

د. محمد بن أحمد ابن شقرون

مظاهر الثقافة في المغرب

دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني



مِظَانُ الْإِيمَانِ فِي الْمَغْرِبِ
دَاسِ فِي الْأَدَبِ الْغَرِيبِ فِي الْعِلْمِ الرَّبِ

د. محمد بن أحمد ابن شقرن

مظاهر التقاء فن المغربين

دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني

توزيع



دار بيت

32-34 شارع فكتور ميكو

الطابق 30.76.44 / 30.23.75

ص.ب. 4038 الدار البيضاء المغرب



جميع حقوق الطبع محفوظة

1985 - 1406

كلمة شكر وتقدير

يسرني أن اتقدم بالشكر الجزيل الى العلامة الاستاذ الكبير السيد علال الفاسي الذي كثيرا ما شجعني وأفادني بنصائحه العلمية والى معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلى الاستاذ السيد محمد الفاسي الذي استفدت كثيرا من أبحاثه المتعددة في ميدان التاريخ والثقافة .

كما اعترف بالاستفادة الكبيرة التي حصلت عليها من أبحاث العلامة فضيلة الاستاذ السيد عبد الله كنون ومن توجيهات الخبير في شؤون المخطوطات الاستاذ السيد ابراهيم الكتاني ومن المعونة التي قدمها الى الاستاذ السيد عبد الله الرجراجي ومساعدوه ، فالى هؤلاء والى جميع من رجعت اليهم في هذا البحث اجزى شكرى والسلام .

كلمة

أنجز هذا البحث سنة 1965 .
أما العنوان الذى اخترناه له فهو
مظاهر الثقافة المغربية وقد بدأنا
بهذه المرحلة للتعريف بالبيئة
المغربية من الناحية الادبية فى حقبة
معينة من تاريخ المغرب تاركين
دراسة المظاهر الاخرى لنقوم بها على
حدة فى بحث مستقل .

وقد قمنا بالفعل بانجاز المرحلة
الثانية تحت عنوان : البيئة المغربية
ومظاهرها الثقافية فى عهد بنى مرين
وبنى وطاس .

الا أن ظروفنا خاصة اضطرتنا
الى استعمال اللغة الفرنسية لتحرير
هذا البحث وتقديمه الى القراء كجزء
من كل متكامل مع ما سبقه وما
سيلحقه بحول الله ، فالموضوع واحد
وان تعددت جوانبه واختلفت مظاهره
وتغيرت لغته على أننا سنحاول فى
دراسة موسعة مقبلة ان شاء الله -
تعريب ما فرنسناه لتعم الفائدة
ويتصل البحث بعضه ببعض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ليس من شك في أن التراث الادبي المغربي معتقراً
جدا الى جهود كثيرة ومتواصلة لبعثه والعمل على التعريف
به في مختلف مجالات نشاطه . ذلك أن الجهود التي بذلت
في هذا الميدان ضئيلة جدا لا تكاد تذكر اذا ما قيست
بالابحاث المتنوعة الكثيرة والمؤلفات الضخمة النفيسة التي
تناولت الادب العربي في الشرق بكثير من التدقيق
والتحليل .

ونتيجة لذلك ظل ادباؤنا مغمورين ، وظل ادبنا
مجهولا في الاوساط العربية بصفة عامة ، وفي الاوساط
الأجنبية بل وحتى في الاوساط المغربية نفسها التي لا
تعرف منه النزر القليل . ومع ذلك فادباؤنا واجنادنا لم
يتخلفوا عن الركب الحضاري العام ، ولم يكونوا دون غيرهم
معرفة وعلماء ، كما لم يكونوا أقل حظا في هذا التراث

العربي العام الذي ساهموا فيه مساهمة سيطلع القارىء في هذا البحث على مدى أهميتها وفعاليتها .

لذلك رأينا من واجبنا ، خدمة لوطننا واحياء لهذا التراث ان نقوم بمجهود في هذا الباب ، وان نقدم للقارىء هذا المجهود المتواضع كي يطلع على ما كان لنا - في فترة معينة من تاريخنا في مختلف مجالات العلم والمعرفة من نشاط ، وعلى ما خلفه ادياؤنا وعلمائنا من آثار خللت ذكركم وأعلت شأنهم وجعلتهم يتبوأون مكانة لا تهل عن مكانة ادياء وعلماء عصرهم .

أما الموضوع الذي اخترناه فهو (مظاهر الثقافة المغربية في عهد بنى مرين) .
ولقد وقع اختيارنا عليه نظرا لكون البيئة المغربية عرفت في هذا العصر نشاطا ادبيا ملحوظا أثار اهتمام الباحثين والمؤرخين ، فوصفوه بأوصاف كلها تقدير ، واعجاب وتنويه ببنى مرين وبأدياء وعلماء المغرب الذين عاشوا في عهدهم .

ألا أن هذه الاحكام وهذه الاوصاف قليلا ما تتصف بالموضوعية وكثيرا ما تجعل وتعمم بدون اسناد الى حجة كافية وأدلة مستمدة من واقع البيئة المغربية التي كانت مجالا لهذا النشاط لذلك رأينا من الضروري أن نخص هذا الموضوع ببحث شامل وان نتوسع فيه قدر الامكان كي نوفيه ما يستحق من العناية والاهتمام ، رائدنا في ذلك الحقيقة

المجردة ، والنزاهة الفكرية واستقصاء العوامل الظاهرة والباطنة التي كانت وراء الظواهر الاجتماعية والثقافية التي ميزت المغرب في عهد بني مرين عن المغرب في عهود سابقة أو لاحقة ، فمجال هذا البحث اذن واضح وزمنه معين ، ومكانه محدود لا يتعدى البيئة المغربية التي تعرف اليوم بالمغرب الاقصى وان تعدها في بعض الاحيان فما ذلك الا لكوننا اردنا الالمام ببعض العناصر والجوانب التي كانت لها صلة وثيقة بالمغرب آنذاك .

تلك هي غايتنا ، اما وسائل تحقيقها فلم تكن ، في الواقع سهلة ولا متوفرة لاول وهلة . نظرنا لقلّة المصادر التي عنيت بالموضوع عناية مباشرة ، ونظرنا لتناثر المعلومات الضرورية هنا وهناك ، في ثنائية كتب التلّقه ، والتاريخ ، والادب والنحو ، واللغة وغير ذلك من المصادر التي قد تسلط على موضوعنا بعض الاضواء وتعرض لبعض جوانبه مباشرة أو بصفة غير مباشرة .

فكان لابد اذن - رغم جميع الصعوبات التي اعترضت سبيلنا - من الوقوف على المصادر المختلفة التي تغيد موضوعنا من قريب أو من بعيد : اعتمدنا على المخطوط منها والمطبوع سواء كان عربيا أو بلغات اجنبية كما استفدنا من مجلات ووثائق مختلفة (بجدها القارىء مفصلة في اخر هذا البحث) واجرينا اتصالات مباشرة مع ذوى العلم والاختصاص لتحقيق وضبط التواريخ والامكنة التي بقيت الى الآن آثارا ماثلة للعيان ، أو تحولت الى انقراض بعد ان كانت مساكن لبعض

الشخصيات التي تعرضنا لها في سياق هذا البحث .

ورغم كوننا أثبتنا جل هذه المصادر في المكان المخصص لها ، نرى من المناسب هنا أن نتعرض لبعضها بالذكر لا سيما تلك التي اتخذناها كمرجع أساسي لما دنا في كثير من الأحيان في طرق هذا الموضوع :

تاريخ العبر وديوان المبتدا والخبر لابن خلدون ، الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، جولة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس لابن القاضي ونفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب للمقرئ ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى للناصري أحمد بن خالد السلاوي : روضة السمرين في أخبار دولة بني مرين لابي الوليد اسماعيل ابن الاحمر : المغرب يروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن ابي رزق : الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية نشر ابن أبي شنب، بلفة الامنية وقصد اللبيب فيمن كان بسببة من مدرس وأستاذ وطبيب نشر ابن تاووت : زهرة الاس في بناء مدينة فاس لابي الحسن الجزنائي ، اختصار الاخبار عما كان بسببة من سني الآثار لمحمد ابن القاسم الانصاري ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين لمحمد عبد الله عنان ، تاريخ المسلمين باسبانيا لدوزي تاريخ المغرب لهنري طراس ، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابي الحسن لابن مرزوق ، الخطيب محمد التلمساني (مخطوط الخزنة العامة) الرحلة المغربية للعهدى (مخطوط الخزنة العامة بالرباط) الذيل والتكملة لابن عبد

الملك المراكشي (مصور الخزانة العامة بالرباط) ملء العيبة
فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة
(مخطوط الاسكوريال) لابن رشيد .

هذه بعض المصادر الرئيسية التي اعتمدنا عليها في هذا
البحث وهي وان اختلفت من حيث القيمة واتصفت أحيانا بعدم
الدقة والشمول وتعليل الاخبار التي توردها والاحداث التي
تصفها الا أنها في مجملها تتضمن معلومات قيمة استنتجنا منها
كثيرا من الحجج والادلة التي بنينا عليها احكامنا فكانت لنا
بمشابة أعمدة متينة وأسس راسخة استطعنا الوقوف عليها مع
اتخاذ الاحتياطات والتحريات الضرورية .

يتضمن هذا البحث أربعة أبواب رئيسية . اختص الاول
منها بدراسة البيئة المغربية في عهد بني مرين دراسة تحليلية
تعتمد على وصف معطياتها المادية والاجتماعية على الخصوص
وتعني بأبرز العوامل الاجتماعية والنفسية التي تفاعلت في
تكوينها وتطويرها ، وذلك كي لا يفاجأ القارئ بالمظاهر الادبية
والفكرية الناتجة عن هذه البيئة .

اما الباب الثاني فقد تناولنا فيه التعريف بمشاهير
الادباء المغاربة الذين تعرضنا لدراستهم وحللنا بعض آثارهم
قدر الامكان .

وقد تخلصنا من هذا البحث الى باب آخر خصصناه
لدراسة مظاهر الحياة الادبية والثقافية في العهد الذي عشنا به

فكان ضروريا أن نتناول في باب رابع مظاهر أخرى للحياة
الادبية أبرزنا فيها إنتاج المغاربة في ميدان العلوم العقلية
والعقلية .

المؤلف

بنو مرين ، اصلهم ، الخلاف في شأنهم

يلعب الفرد في المجتمع دورا قد يكون ايجابيا كما قد يكون سلبيا ، نظرا للعلاقات التي تربط بينهما ، والتفاعل المستمر الذي يطبع وجودهما في الزمان والمكان . ذلك ان هذا التفاعل وهذا الارتباط هما الظاهرتان المميزتان للمتطور الناشئ عنهما والمتجدد حسب قوة وضعف كل منهما ، ونتيجة لذلك ، قد تكون الغلبة للبيئة المادية والاجتماعية التي تتحكم في الفرد الى درجة معينة تجعل منه عنصرا منفصلا متلقيا عاداته وسلوكه منها ، بمعنى ان كل ما يصدر عنه من سلوك نفسي واجتماعي آت من التيار الاجتماعي الناشئ عن الاطار الذي يعيش فيه ، كما قد تكون الغلبة للفرد بحيث يتحرر من القيود ومن الضغط الاجتماعي ليقوم بدور فعال خلاق يطبع البيئة بطابع خاص ويجعلها تسير وفقا لارادته ، خاضعة لسلوكه ، فتتحول تحولا وتنقلب انقلابا فتتغير نظمها وتتطور احوالها كل ذلك ما كان ليحدث لولا فرد من افرادها والدور الخطير الذي قام به من اجل تطورها .

وهكذا يستمر الصراع بين البيئة والفرد الى أن يحدث التكيف ويقع الانسجام والموافاة الضروري لقيام المجتمعات البشرية . واذا كان بعض المؤرخين لا يولون لهذه الظاهرة الاجتماعية اهتماما خاصا ولا يقيمون وزنا لنتائجها ، غايتهم في ذلك سرد الحوادث وتاريخها ، فان من الضروري لكل باحث الاستناد اليها ، والعمل على كشف نتائجها في تفسير الاحداث وتحليل الوقائع التي على ضوئها يمكن أن تفسر الاوضاع

تفسيراً علمياً ، بعيداً عن ضجة العاطفة وتحكم العادات وسيطرة الحالات النفسية والذهنية ، سواء في الوصف او المشاهدة او التعليل .

لذلك اصبح من الضروري ، في مثل هذه اندراستات ، التعرف على الفرد الذى يلعب دور العنصر المحرك فى البيئة المراد دراستها حتى لا نغاباً بالتأثير الذى يحدثه فى هذه البيئة وبالاتجاهات التى تنتج عن سلوكه فيها كفسرد له نفوذ وسلطة .

وهكذا يتطلب البحث الرجوع الى الفرد نفسه ، قبل الانطلاق فى الطريق ، لمعرفة ماهيته ، ماضيه وحاضره ، طبيعته ونوع ثقافته والروابط التى تربطه بالبيئة التى دخلها كي يعيش فيها او يحكمها او يسوسها كما هو الشأن بالنسبة لموضوعنا . كل ذلك ضرورى ومفيد لمعرفة مدى قوته وضعفه ومدى تكامله أو تناقضه مع المجتمع الذى ينطلق الى تسييره . فالنتائج التى يسجلها فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية مرتبطة به أشد الارتباط وخاضعة حتمياً الى درجة ما لشخصيته وسلوكه . كم من مجتمع تغيرت أحواله وتطورت انظمته نتيجة سلطة قوية حازمة حكيمة أخذت بزمام أمره ، فقادته نحو الرقى والازدهار ، وكم من مجتمع اصابه التخلف والانحطاط وحلت به مصائب كادت تقضى على كيانه نظراً لضعف الشخصية التى استبدت بأمره وتحكمت فى مصيره .

ومعنى ذلك بالنسبة لموضوعنا ان التعريف ببنى مرين يشكل عنصراً أساسياً فى هذا البحث ويلقى كثيراً من الضوء على الطريق الذى سنسلكه كما يساعد على الوقوف على كثير من العوامل التى كانت وراء ظواهر برزت وأخرى اندثرت فى هذا العصر .

لقد تضاربت الاقوال حول بنى مرين واختلفت الآراء حول اصلهم ونسبهم ، فكثرت النظريات وتشعبت الاحكام ، فكان من المؤرخين من ارجع نسبهم الى البربر وكان منهم من أكد عروبتهم كما كان منهم من ادعى أنهم أورييون كسائر القبائل البربرية ، الا ان هذه الاحكام لم تكن ، فى جملتها ، مبنية على أسس علمية وحجج موضوعية ، مستمدة من التاريخ نفسه ومن الواقع الاجتماعى الذى عاشته البيئة المغربية عبر العصور : فتحيز البعض لعنصر كان قوياً فى ظروف معينة وتأثر البعض الآخر بعاصمه دينيه او عنصريه لما اكتفى عدد كبير من المؤرخين بالرواية والنقل المجرد . مع ان القضية ذات أهمية عظمى من الوجهة التاريخية المحضة ومن الناحية الاجتماعية ايضا . واذا كنا لا نريد الخوض فى هذا انميدان الشائك الذى ظل الى اليوم مستعصياً على كثير من العلماء المختصين ، نظراً لقلّة المصادر التى يمكن الاعتماد عليها وكثرة الاساطير المتعلقة بالاجناس التى سكنت العالم فى العصور المسيحية ، فاننا كذلك لا نريد أن نمر ساكتين عن أهم ما جاء فى هذا الموضوع من نظريات وبدون ابداء موقفنا منها .

نظرية ابن خلدون :

أهم ما جاء في هذا الباب ، في نظرنا ، هو ما رواه ابن خلدون عن البربر وعن نسبهم وتاريخهم بصفة عامة . ذلك أن معظم المؤرخين عربا كانوا أو مستشرقين استندوا اليه واعتمدوا عليه اعتمادا يكاد يكون كليا عند البعض ، فأتوا بحججه وأدلته ونقلوا ما جاء في مقدمته وتاريخه تأييدا لقولهم واستشهادا لروايتهم فكان ما قالوه هو في غالب الاحيان ما قاله ابن خلدون قبلهم عن البربر عامة وعن زناتة خاصة مع شيء من التفصيل والتعليق في بعض الاحيان .

يستخلص مما جاء في مقدمة ابن خلدون وتاريخه ان البربر كلهم يرجعون في نسبهم الى فرعين رئيسيين تفرعت عنهما شعب وبطون كثيرة : فرع البرانس ، وفرع مادغيش او البتر . الى الفرع الاول تنتسب قبائل صنهاجة وكنانة ومصمودة ولتونة وغيرها من القبائل التي سكنت ما يسمى اليوم بالمغرب العربي وتقا سمت أطرافه في موطنها كما لعبت دورا اساسيا في تاريخه السياسي وحياته الاجتماعية أما قبائل مادغيش او البتر فتتمثل على الخصوص في قبائل زناتة المتفرعة الى مفراوة وبنى يفرن وبنى مرين وبنى عبد الواد وغيرها . هذا هو التقسيم الاول الذي اعطاه ابن خلدون للبربر او بعبارة أخرى سكان افريقيا الشمالية في عهده أى فى القرن الرابع عشر ، وهو تقسيم ازدواجى مقصود عند ابن خلدون مبنى على طرفى نقيض كما جاء فى تاريخه . ذلك ان جميع قبائل البتر أى قبائل زناتة تتعارض مع البرانس فى المسكن وفى أسلوب العيش وفى كثير من العادات والسلوك . بل عرف الفرعان الكبيران بكثير من التناحر والتناحر ، والعداوة المكيئة مدى العصور وعبر المجتمعات التى وجدت فيها هذه القبائل جنبا الى جنب . عرفت القبائل الاولى فى معظمها بنوع من حياة الاستقرار والتشبيث بالمسكن وتعاطى الفلاحة والاهتمام ببناء الدور ، بينما اشتهرت قبائل الفرع الثانى بحياتها البدوية والقائمة على التنقل والترحل الدورى من مكان الى آخر ، بحثا عن الرزق ومعيها وراء ايجاد كلا للماشية اينما وجد الخصب وحيثما ظهرت المراعى والمياه ، مهما كانت الظروف ولو ادى الامر الى التسلط على الغير والسطو على ممتلكاته ومزروعاته . وبذلك قوى الصراع واشتدت العداوة والبغضاء بين الطرفين المتصارعين اللذين ظل كل منهما يكيد للآخر ويتربص به عساه يقضى عليه نهائيا ، ولو ادى الامر الى التحالف مع عدو مؤقت او مع اجنبى كما حدث لقبائل زناتة عند ما تحالفت مع بنى امية فى الاندلس .

والذى يهمنا هنا فى نظرية ابن خلدون ان قبائل بنى مرين قبائل بربرية ترجع فى نسبها الى قبائل زناتة المشهورة وانها بانتمائها الى هذه القبائل تشكل عنصرا من العناصر التى ناصبت العداء الدائم لقبائل مصمودة وصنهاجة وغيرها من فروع البرانس ويؤكد ابن خلدون بربرية هذين العنصرين من سكان المغرب فى عهده بتقسيم آخر جعل فيه البربر ثلاثة أقسام رئيسية : صنهاجة ، زناتة ،

مصمودة ، اى القبائل التى لعبت فى المغرب دورا رئيسيا فى حياته السياسية والاجتماعية الا أننا نراه ، وهذا مهم بالنسبة لموضوعنا ، يخص قبائل زناتة بعناية كبيرة ويدرسها فى تاريخه دراسة طويلة مركزة ، الشيء الذى لم تحظ به القبائل الاخرى التى تتدرج تحت لواء البرانس ، لماذا اذن هذه الاهمية وهذه العناية ؟ هل كان ذلك لغاية مادية او سياسية يرمى اليها من تاريخه الطويل ؟ كما أكد كوتنى فى تاريخه «ماضى افريقيا» (I) نظرا لتكون الدولة القائمة فى عصره هى دولة بنى مرين وهى من زناتة ؟ نحن نعلم ان ابن خلدون كان كثير المطامع والشهوات ، ميالا الى العز والجاه داهية فى خلق الاسباب للتقرب من ذوى النفوذ عارفا بخبايا الاحداث وبدفائن الامور متحينا القرص ، متقلبا فى سلوكه لنيل مراده وتحقيق اهدافه الكبرى والبعيدة ، كل ذلك نعلمه منه ، لكننا لا نظن ان ابن خلدون فى بحثه العلمى ينزل الى هذه الدرجة على حساب استقامته ونزاهته فى التفكير وموضوعيته فى البحث لما اشتهر به من خصال علمية وخلقية يعرفها القارىء ، لقد خدم بالفعل البلاط المرينى وسعى فى السيطرة على أهم مناصبه ، لكنه لم يكن من هذا النوع الذى يخدم مصالحه عن طريق التعلق والتزلف نظرا لكفاءته وثقته فى نفسه واعتزازه بمكانته الاجتماعية ، وقدرته العلمية وشهرته الواسعة التى اجتازت حدود المغرب الى الشرق وغيره .

تلك هى ، باجمال ، نظرية ابن خلدون فى أصل البربر بصفة عامة وقبائل زناتة بصفة خاصة وهى نظرية تنصف بكثير من الشمول والدقة والايضاح ووفرة المعلومات رغم ما يبدو فيها من تناقض وتطرف فى القول ، ولقد كانت المصراحة التى ابداهها ابن خلدون فى هذا الموضوع سببا لكثير من الانتقادات التى وجهت اليه والحملات التى قامت ضده لاسيما من طرف بعض المحدثين الذين نعتوه بأوصاف جارحة ، واتهموه بتهمة التفرقة بين العرب والبربر تلك التفرقة التى اعتمد عليها فى نهاية القرن المنصرم وفى بداية هذا القرن ، كثير من مهدوا الطريق للاستعمار وايدوا خطته فى التفريق بين عناصر السكان للقضاء على القومية وردود الفعل الوطنية فابن خلدون فى نظر هؤلاء هو الذى أوحى بهذه الفكرة للمستعمرين وهو الذى زودهم بسلاح حاد استعملوه للقضاء على وحدة الشعوب المستعمرة !

الا أن ابن خلدون رغم هذا التقسيم لعنصر من سكان المغرب ، الذى أطلق عليه اسم بربر أورد فى مقدمته (I) استنادا الى ابن حزم أن افريقش ، وهو حميرى من التبابعة انتقل الى أرض المغرب بقبائل عربية كثيرة ، استوطنته واستمرت به منذ عصور سحيقة ، ثم زاد وأكد فى تاريخه ان قبائل صنهاجة وكتامة من القبائل

Le passé de l'Afrique du Nord, p. 71. (1)

(1) راجع المقدمة ص ، 127

العربية التي صحبت افريقش هذا من اليمن الى المغرب . وبذلك يلتبس الامر على الباحث في هذا الميدان ، في نظرية ابن خلدون عن البربر . هل هم عرب نزحوا من الشرق الى الغرب فمكثوا فيه الى ان جاء الفتح الاسلامي العربي ام هم عنصر قائم بذاته له خصائصه ومميزاته التي يتميز بها عن العنصر العربي الفاتح ؟ شأبن خلدون رغم محاولاته الجريئة ومعلوماته الواسعة عن البربر وتاريخهم وأماكن استقرارهم في أطراف المغرب لم يذهب بعيدا في هذا الجانب الذي ظل الى اليوم مستعصيا على كثير من العلماء ، ولم يقرر بصفة فسيولوجية وعلمية أن البربر يشكلون عنصرا من حيث العرف او هم عناصر يختلفون عن العرب من الناحية اللغوية فقط . بل ظل يتحدث عن البربر كعنصر قوى في البلاد له عاداته وتقائده ، ويختلف عن العنصر العربي في كثير من السمات والصفات .

عروبة بنى مرين

توجع عروبة بنى مرين الى النظرية القائلة بعروبة البربر عموما ، وهي نظرية كثير من المؤرخين العرب ولاسيما المحدثين منهم وغير العرب الذين كتبوا في هذا الموضوع ، اما الاسس التي تنبنى عليها هذه النظرية فهي باجمال :

1) اللغة

2) دخول الكتانين الى المغرب قبل الفتح الاسلامي ودخول العرب من اليمن الى افريقيا على يد افريقش .

3) لفظة بربر لا تعنى وجود عرق او سلالة .

4) سهولة اسلام البربر وتعريبهم بصفة سريعة .

5) تأثرهم بالحضارة الفينيقية تأثرا عميقا وعدم تأثرهم بالحضارة الرومانية المسيحية .

تعتبر اللغة من المقومات الرئيسية لقومية ما ، فكثيرا ما اعتمد عليها المؤرخون كمقياس يعرف به مدى تشبث شعب بقوميته أو انسلاخه عن هذه القومية واندماجه في قومية أخرى تغلبت عليه بالقوة أو بالتأثير الحضارى العالى الذى تتوفر عليه هذه الحضارة الغالبة ، وهذه حقيقة اجتماعية اثبتها التاريخ حيث رأينا شعوبا كانت تتوفر على لغة قديمة فقدتها أو كادت بفعل التأثير الاجنبى المقصود أو غير المقصود . اما البربر فكانوا يتحدثون بلهجة بل بلهجات مختلفة متميزة عن لغة العرب الا أن هذه اللهجات كلها رغم اختلافها ورغم خصائصها حوت كثيرا من الالفاظ العربية ، كما اشتملت على كثير من ادوات النحو والمخارج الحروفية التي نجدها في اللغة العربية ، وهكذا نجد أسماء كثيرة في ميادين مختلفة في حياة الاسرة او في مرافق

أخرى تكتسب طابعاً حيويًا ، نجدها مستعملة عند العرب وعند البربر بنفس المعنى : فال موت والحياة ، والبيت والدم والباب والساقية وغيرها من الألفاظ الكثيرة التي لا يمكن حصرها هنا يستعملها العرب كما يستعملها البربر على حد سواء أو بشيء من التحريف ناتج عن عوامل بيئية محضة أو حركات هجرية ، أهم من هذا أن الشلحيين ينطقون بحرف الضاد كما ينطق به العرب أنفسهم رغم أنفراد اللغة العربية بهذا الحرف . هناك ظواهر أخرى مشتركة لا يمكن أن نقف عندها هناك لتعدد الحاجة الباحث فيها إلى تحليلها باظهار مصادرها والعلاقات التي تربطها بغيرها من الألفاظ وأدوات النحو التي تنطوي عليها اللغة العربية ، إلا أنه من الممكن أن نشير هنا في هذه المناسبة إلى البحث القيم الذي نشر في مجلة اللسان العربي للاستاذ السوسي المختار حول تأثير اللغة العربية في اللهجة الشلحية (1) فالاستاذ المختار كما يدل عليه نسبه هو من أهل سوس ، قبائل بربرية تسكن منطقة من المناطق المغربية النائية ، اديب مغربي مشهور وفقه لغوي كرس حياته على دراسة وتدريس اللغة العربية كما اهتم خصوصاً بتاريخ إقليم سوس (2) وعلمائه وأدبائه ومشاهير رجاله ولقد أبرز في هذا البحث وجوه التشبه بين اللغة العربية والشلحية وسرد أسماء كثيرة وعبارات متعددة تحدث عن أصلها وتطورها وما لحقها من تحريف ثم أرجعها إلى مصدرها الأصلي وهو اللغة العربية ، وما يزيد البحث قيمة أن الاستاذ المذكور خرج بنتيجة أخرى وهي أن الشلحية في سوس وغيرها من قبائل البربر تستعمل كلمات قديمة سبقت الفتح الإسلامي ، الشيء الذي يثبت في نظره مصدرها واحداً لها وهو اللغة العربية كما يثبت وجود العرب قبل الفتح الإسلامي بقرون . ويستدل كذلك على عروبة البربر أن لفظة «بربر» التي أطلقت على هذا العنصر من السكان المغاربة لا يقصد بها العرق وإنما أطلقت كوصف تطور مفهومه مع الأحداث ذلك أن «بربر» في الأصل كلمة يونانية ، حسب كثير من المصادر ، تعني كل من كان يتكلم بغير لغة اليونان ثم أصبحت تعني عند الرومان جميع الشعوب التي كانت دون حضارتهم ، بل كانوا يعنون بها الشعوب البدائية التي لا حظ لها «من الحضارة» أما العرب فقد استعملوا كلمة بربر بمعنى اختلاط الأصوات واضطراب الألفاظ أو غموض مفهومها فالكلمة معناها إذن تحريف واختلاف في الكلام والتباس فيه بل عدم مطابقته لكلام العرب .

وينسب بعض المؤرخين أفريقش قوله لما سمع العرب يتكلمون بأفريقيا ،
«وما أكثر بربرتهم» ثم قوله في شعر :
«بربرت كنعان لما سقتها من أراضى الضنك للعيش الخصيب» (3)

(1) «تأثير العربية في اللغة الشلحية» مجلة اللسان العربي سنة 1965 عدد 2 من 32 .
(2) له سوس المال في 21 ج وإليخ قديما وحديثا ...
(3) البر ج 1 من 111

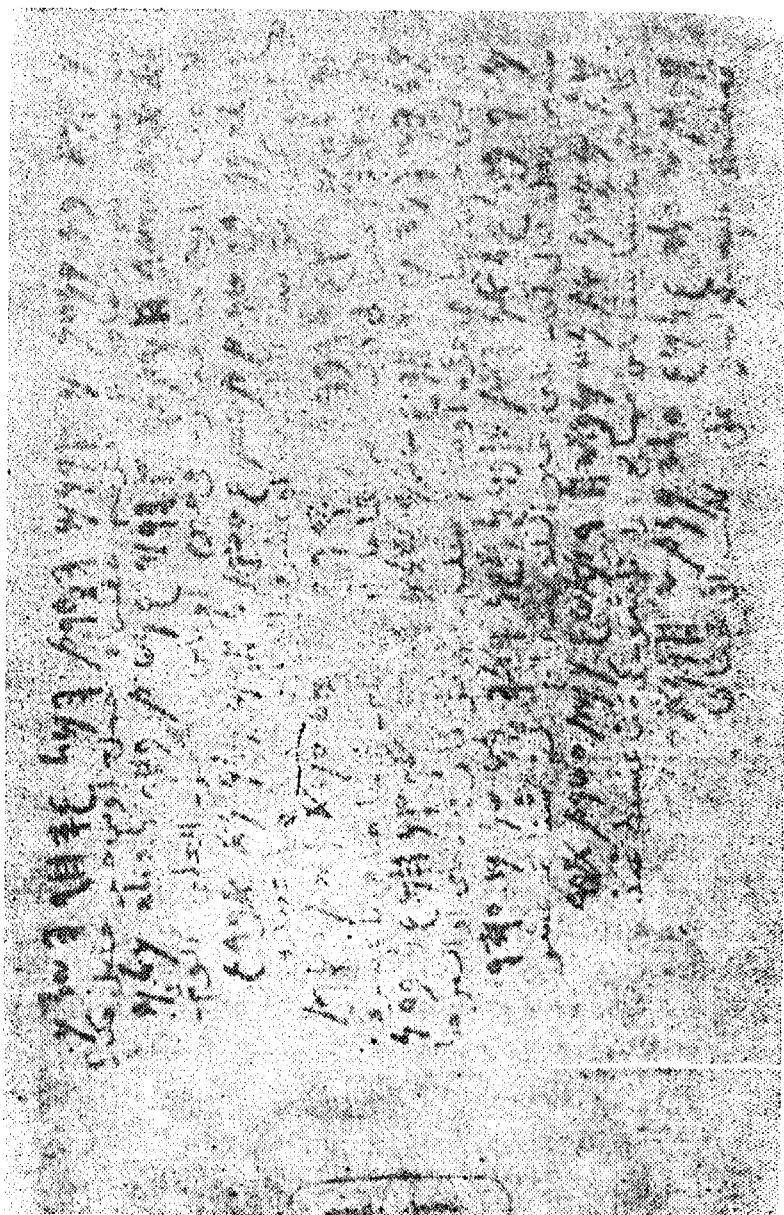
وهكذا يتضح ان المسألة في « بربر » مسألة لغوية محضة لا صلة لها بالعرق او بالجنس ، ذلك ان البربر هم عناصر من السكان يتحدثون بلهجة خاصة تختلف في قليل او كثير عن لغة العرب . فالبربري اذن ، حسب ما اوردناه ، يمكن ان يكون عربيا تبربر أو ان صح التعبير متبربر تعرب ولكن أصيبت بتحريفات وتغييرات سطحية او جذرية ، بحكم البيئة او عوامل اجتماعية معينة .

ثم هناك نتيجة اخرى يستشهد بها انصار عروبة البربر ، وهي دخول العرب من اليمن الى المغرب على يد افريقش ، ثم دخول الكنعانيين بعدهم يوم فتحوا المغرب قبل الاسلام ، بل قبل الميلاد ، وقد كان للفنيقيين في المغرب اثر كبير في سكانه ، كما اكده كثير من المؤرخين العرب وغير العرب . لم يترك الرومان في هذا البلد أثرا . (أو الا أثرا ضعيفا سرعان ما اندرس وزال بزوال سلطتهم الرسمية) والسر في ذلك راجع الى أن الفينيقيين ، كما اثبتته الحفريات (I) كانوا يتحدثون بلغة عربية في جوهرها ، بل قريبة من اللغة العامية المنتشرة في افريقيا الشمالية .

فاذا كان سكان المغرب لم يأخذوا شيئا من الحضارة الرومانية ، رغم سيطرتها وتفوقها ، فهم قد أخذوا عن حضارة الفنيقيين الشيء الكثير وانسجموا معهم في كثير من الظواهر لاسيما اللغة . وما هذا الانسجام وهذا التفاعل بين العنصرين في نظر الكثير ، الا دليل على تقارب المنبعين ووحدة الارومتين .

واذا صححت هذه النظرية ، فينبو مرين كسائر القبائل الاخرى عرب رغم تحدثهم بلهجة خاصة ورغم وجودهم بمناطق المغرب العربي قبل الفتح الاسلامي ، بل هناك من المؤرخين من خصهم بهذه النصفة دون غيرهم ، وأكد عروبتهم من بين البربر ، وابن خلدون نفسه ، كما سبق ان اشرنا الى ذلك ، لاحظ في عصره ان قبائل زناتة بصفة عامة تشترك مع العرب في كثير من الصفات والاخلاق واساليب العيش لا سيما أهل البدو منهم على أن ابن الاحمر صاحب « روضة النسرين » وهو من معاصري الدولة المرينية ومؤرخيها أكد في روضته ان « زناتة كلها عربية الاصل ، من مصر ، يجتمع نسبهم بنسب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذاته وهم من بر ابن قيس ابن عيلان ابن مضر بن نزار ابن معاد بن عدنان وبر بن قيس بن عيلان جد زناتة عربي ليس بربريا سكن مع أخواله من البربر ، وكانوا يسكنون بأرض فلسطين وما ولاها من بلاد الشام ومصر ، ويجاورون العرب في المساكن والمراعي ، وتزوج بر بن قيس فولدت له زوجته مادغيش وعلوان ، فاما علوان ، فمات وهو صغير السن ، واما مدغيش فكان يلقب بالابتر وهو ابو البتر من زناتة . هذا هو قول اسماعيل ابن الاحمر في عروبة زناتة أي عروبة بنى مرين ،

(1) لقد وجد الدكتور البرازيل الايدولوجي رخصة نقل على ما ذهبنا اليه . انظر اللسان العربي 2\1963 ص



1) صورة الرخامة التي وجدها الدكتور البرازلي الادير لونييتو اخذناها عن مجلة اللسان العربي (عدد 2 سنة 1965) التي يصورها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط .

وهو قول كما نرى يعتمد على مجرد رواية ولا يستند الى حجج مقبولة . فمن الممكن ان يكون ابن الاحمر قال هذا من قبيل المدح لرؤساء الدولة الحاكمة لما عرف عنه من تحجب وتودد ورمى خصومه بنى عبد الواد باقبح الصفات وابشع النعوت وهو معروف بذلك التحيز السافر ويعترف به صراحة في كتابه «روضة النسرين» حيث خصص القسم الثاني منه لنشر مثالب ونقائص بنى عبد الواد . ونفس الموقف يلاحظ عند عبد العزيز الملزوزى (1) في أرجوزته (نظم السلوك) حيث وقف من بنى مرين نفس الموقف الذى وقفه نحوهم ابن الاحمر ، لقد نسبهم هو الآخر الى العروبة وتأسف على التحريف الذى أصيب به كلامهم من ذلك قوله (2) :

فجاءت زناة البرابرا	فصيروا كلامهم كما ترى
ما بدل الدهر سوى اقوالهم	ولم يبدل مقتضى احوالهم
بل فعلهم اربى على فعل العرب	فى الحال والصواب ثم فى الادب
فانظر كلام العرب قد تبديلا	وحالهم عن حاله تحولا
كذلك كانت قبلهم مرين	كلامهم كالدرا اذ تبين
اتخذوا سواهم خليلا	فبدلوا كلامهم تبديلا

الشيخ ...

وليس من البعيد أن يكون الملزوزى متأثرا فى كلامه هذا كاسماعيل ابن الاحمر بقوة ونفوذ رؤسائه بنى مرين اذ كان أحد السفراء الملازمين لهم . والانتساب الى العروبة أصبح بعد الفتح الاسلامى مفخرة المستعربين ، وعزة للذين اقبلوا على الاسلام نظرا لكون اللغة العربية هى لغة القرآن ولغة السنة والحديث ، ولكون العرب هم الذين قاموا بالفتوحات الاسلامية ونشر الاسلام اينما حلوا ، فلا غرابة ان يصبح الانتساب اليهم والاندماج فيهم وحمل رايتهم موضوعا من مواضيع الفخر ، ومعنى من معانى المدح والثناء . والتاريخ يجدتنا فى هذا الموضوع عن كثير من الشخصيات المغربية التى بعد اندماجها فى دائرة العروبة والاسلام ، اصبحت تشكر لاصلها وتبحث لها عن اصل عربى صحيح ، ولا غرابة ان يكون ما قاله اسماعيل ابن الاحمر وعبد العزيز الملزوزى من هذا القبيل .

ذلك ما قيل عن البربر عامة وعن بنى مرين خاصة ، وسواء صحت تلك النظريات أم لم يصح ، فبأنفع المغربى ، أى المجال الذى كان مسرحا لانفعالات بنى مرين وعواطفهم وافكارهم واعمالهم ، هذا الواقع الذى شاركوا فى صنعه ، وبدلوا فيه قصارى جهودهم ، جعلنا نميل فى غير تأكيد الى عروبتهم أو على الاقل

(1) انظر ترجمته فى الفصل المقبل الخاص بمشاهير ادباء هذا العصر .

(2) انظر أرجوزته «نظم السلوك» مطبوعات القصر الملكى بالرباط . المطبعة الملكية بالرباط . 1963

نصرح بالصيغة العربية الشديدة التي اكتسبوها في البيئة المغربية وفي الزمن الذي سيطروا فيه عليها .

وإذا كان ما قاله ابن خلدون عنهم في اشتراكهم مع العرب في كثير من الصفات كالتنقل وركوب الأبل والعيش تحت الخيمة ، إذا كان ذلك لا يكفي لتأكيد عربيتهم ، فإن لنا في سلوكهم مظاهر أخرى لا تخلو من إيجابية في هذا المضمار ، فلقد اجمع كثير من المؤرخين الذين كتبوا ووصفوا حياتهم أن بنى مرين أكثر القبائل واسرعها اندماجا في العرب وأقواها استعدادا للتكيف والانسجام معهم في حياتهم اليومية في مواقفهم الاجتماعية المختلفة أكد هذه الحقيقة كثير من المؤرخين الذين يطول بنا المقام لو تتبعنا أسماءهم كلهم ، ذلك ما جعل كوتي (1) يتساءل في استغراب عما بقي من قبائل زناتة ويبحث عنها في مختلف مواطنها التي عرفت فيها من قبل فلا يكاد يجد لها أثرا «انه ، يقول ، اندثرت بعد ما كانت قسوية وانمجت أعقابها وكأنها لم توجد بهذه المناطق الصحراوية والتراب من إفريقيا ومن قلب المغرب الأوسط الذي كان مقرا لها ، والسبب في ذلك ، كما يقول كوتي ، «انها ذابت ودميت في قبائل عربية مختلفة» وقد لاحظنا بالفعل ونحن نتتبع تطور القبائل البدوية في المغرب (بنى هلال وبنى سليم) أن بنى مرين كانوا أكثر من غيرهم انسجاما مع هؤلاء البدو . لقد تحالفوا معهم وقربوهم اليهم وكلفوهم بمناصب خطيرة في الجيش وفي ميادين مختلفة . ولقد سبق لزنانة أن تحالفت مع قبائل أخرى عربية رغم كونها اجنبية على البلاد . وما تلك القبائل الا بنو أمية الذين وجدوا في هذه القبائل خير مناصر لسياستهم ضد الفاطميين المستولين على المغرب ، ثم هناك ظاهرة أخرى بالنسبة لموضوعنا وهي أن بنى مرين اتخذوا اللغة العربية لغة رسمية للبلاد في مختلف الميادين خلافا لما كان عليه الأمر في زمن عبد المومن حيث ، كما يذكر التاريخ ، كانت تسود الدولة ازدواجية في اللغة : لهجة بربرية ولغة عربية ، وذلك ما لاحظته الأستاذ كنون (2) حيث يقول : «فالواقع أن بنى مرين كانوا يعملون للنهضة والتجديد في دائرة العروبة ، لا يخرجون عنها أصلا فخدموا العربية خدمة صادقة ، كفى اننا لم نعد نسمع بعد توليتهم ، الحكم بشيء من التمييز الذي كان عليه البربر في دولة بنى عبد المومن بل كان هذا آخر العهد بحيلة التفرقة ، والعنصرية ، والواقع أن الاستعراب انتشر في البلاد في زمن بنى مرين انتشارا لم يسبق له مثيل حسبما رأينا في التاريخ ، ذلك أن قبائل معروفة ببربريتها وبعدها عن المناطق التي يسكن فيها العرب بكثرة ، استعربت نهائيا حتى أصبح يشك في أصلها وفي نسبها : ونتيجة لذلك أيضا انتشر الشعر العامي في البلاد وكثر متعاطوه ومتذوقوه فسد تآثرهم باللغة العربية وتعودهم على كثير من كلماتها وعباراتها المتداولة .

(1) ماضي إفريقيا ، ص 411 .

(2) عبد الله كنون «النبوغ المغربي في الأدب العربي» (بيروت : مكتبة المدرسة ودار الكتاب

البنانية الطبعة الثانية 1961) ج 1 ص 183 .

أفليس هذا بكاف للدليل على ما ذهبنا اليه ، وعلى الموقف الذى وقفناه من عروبه بنى مرين ، واذا كنا فى نظر البعض ، قد أطلنا الكلام فى هذه الناحية فما ذلك الا اننا نرى كما أسلفنا ان التعريف بالفرد فى المجتمع (لا سيما بفرد يلحظ دورا رئيسيا فى تغيير البيئة وتطويرها) ، امر ضرورى من الناحية الاجتماعية لمعرفة نوع النتائج التى تركها او من الممكن ان يتركها . فبنو مرين بصيغتهم العربية وبصفتهم البدوية وبأخلاقهم وعاداتهم وحالاتهم النفسية اثروا بكل ذلك فى المجتمع المغربى . أفلا يتأثر الادب بهذه العوامل كلها ؟

الأطوار المادية

تلعب البيئة المادية فى حياة الامة دورا مهما وخطيرا فى نفس الوقت سواء أكان الامر يتعلق بالناحية النفسية ام الاجتماعية ام السياسية ، ونتيجة لذلك يصعب على الباحث بل يستحيل عليه أن يتعرف الى شعب ما دون الرجوع الى هذه البيئة التى كثيرا ما تتحكم فى سلوك الافراد المادى والمعنوى وتطبعهم بطابع خاص . ان الصلة الوثيقة بين الفرد والمجتمع الذى يعيش فيه ، فهما عنصران متفاعلان متكاملان متأثر احدهما بالآخر . فمن التعسف اذن التمثل بينهما والعمل على دراسة كل جانب على حدة ، لذلك نرى من ان ضرورى الالمام ، ولو بصفة وجيزة ، بمعطيات البيئة المغربية لا سيما فى زمن بنى مرين .

تعاقبت على أرض المغرب منذ وطئتها قدم الاسلام دول اختلفت فى السلوك والاتجاه وتفاوتت فى القوة والضعف حسب الامكانيات والظروف والملابسات المحيطة بها . الا أن المغرب فى هذا العصر بقى محافظا على حدوده الجغرافية وعلى وحدته الترابية منذ حققها له يوسف بن تاشفين ، فلم نعد نرى تلك الاطراف الشاسعة الممتدة الى تونس شرقا والى الاندلس غربا اذ تقلصت الامبراطورية الموحدية وانقسمت على نفسها انقساما كان منه المغرب الاقصى اطارا لبنى مرين والمغرب الاوسط لبنى عبد الواد بينما تسلط على القطر التونسى بنو حفص . وهكذا رجع المغرب الى نفسه ابتداء من قيام دولة بنى مرين عليه ، مستمدا امكانياته من رجاله ومن ترابه ، متفاعلا مع معطياته ، عاملا على تثبيت شخصيته ، رغم طموحه فى التوسع والنشاط اقتداء بأسلافه .

تجده شرقا هضاب وأنجاد تتصل بالقطر الجزائرى وشمالا شاطئ البحر الابيض المتوسط وغربا المحيط الاطلنطكى وجنوبا مراكش والصحراء (x) ويمتاز خصوصا بسلسلة جباله الشاهقة الريفية والاطلسية تلك الجبال التى انطبعت بطابع

x وما وراءها الى اطراف شاسعة .

خاص والتي كان لها أثر فعال عبر القرون في حياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على السواء . جعلت منه شبه مناطق داخلية واخرى خارجية ، لعبت دورا رئيسيا في حياة أفرادها وتحكمت الى درجة ما في سلوكهم وتصرفهم المادي والمعنوي فكان منهم تبعاً لذلك المتمسك بأرضه المعتصم بها ، المستورد رزقه منها ، كما كان منهم الراحل المتنقل من مكان الى آخر ، الباحث عن طعامه وكلاً ابله أو غنمه ، لا يعرف للاستقرار معنى ولا يجد الى الاكتفاء بإمكانياته سبيلاً وهكذا كان سكان جبال الاطلس والريف محتمين بسلحهم الطبيعي ، مستقرين منعزلين عن سكان السواحل والسهول الذين سلخوا مسلحاً من نوع خاص له أثره في سلوك من سكن الانجاد أو المناطق الصحراوية أو الاراضي الساحلية مما أدى بطبيعة الحال وطبيعة هذه المواقع الجغرافية الى تنافر وتصارع ، بل الى فتنة سياسية وهزات اجتماعية لامجال لذكرها والتفصيل فيها هنا ، كل ذلك كان له أثر قوى وخطير في تطور حياة هذه البيئة التي نتحدث عنها .

ويكفي القارئ مثالا على ذلك أن يرجع الى تاريخ هذه البلاد ليعرف ما لعبه شمالها من دور في حياتها وما جلبه اليها من مؤثرات خارجية ، وما تسبب فيه من أضرار نظرا لامتدادها على البحر الابيض المتوسط وقربه غربا من شاطئ اسبانيا . ألم تكن حياة المغرب مرتبطة الى درجة ما بحياة اسبانيا نظرا لقرب البقعتين ؟ ألم يكن هذا الارتباط الجغرافي بين العدوتين عاملا من عوامل تفاعل وتكامل الحضارتين الاندلسية والمغربية في زمن معين ؟ ألم يترك هذا الاتصال أثرا بقي الى اليوم بادية الى العيان في كل من اسبانيا والمغرب في اللغة ، وفي العادات ، في المباني وفي بعض التنظيمات ؟ وللصحراء المتاخمة لجنوب المغرب وبعض من شرقه دورها كذلك في تطور الاحداث السياسية والاجتماعية التي عاشها المغرب زمن بنى مريم أو عمر عصور أخرى : اطراف شاسعة ممتدة ، شكلت منافذ واسعة تسربت منها الى المغرب عناصر أجنبية مختلفة ، سيطرت عليه وأخضعته لحكمها وتصرفها مدة تطول أو تقصر حسب اعتبارات زمنية وأخرى مكانية . فمن هذه الابواب دخل المرابطون الذين يرجع لهم الفضل في توحيد تراب المغرب ثم المرينيون أنفسهم الذين ساسوا البلاد زهاء قرنين ونصف ثم السعديون ثم العلويون الذين يحكمون البلاد منذ سنة 1659 ، ولم تكن الحدود الشرقية ولا الغربية بأقل أهمية وخطرا من الحدود الاخرى التي لعبت دورا رئيسيا في تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فالحضارة الشرقية الاسلامية خضعت في تنقلها الى المغرب الى هذا العامل ، فتسربت اليه في بداية أمره اوقبل أن يشتد الاتصال بالاندلس عن طريق افريقية . اننا هنا لسنا بصدد بحث موضوع تاريخي أو جغرافي (شرحه وتفصيله) ولكننا لانرى بدا في بعض الاحيان ومتى اقتضى البحث ذلك من اللجوء الى حقائق تاريخية واخرى جغرافية نفسرها بها ونستدل على حقائق ادبية تقتضى منا الشرح والتعليل ، ذلك ان الظواهر الاجتماعية كما اثبتته علم النفس الحديث وعلم الاجتماع متفاعلة متكاملة

مؤثرة ومتأثرة مهما اختلفت وتنوعت مظاهرها ومهما بدت الشقة بعيدة بين جوانبها. كم من هزة سياسية كان السبب في وقوعها عاملا اجتماعيا أو أدبيا ! كم أزمة اقتصادية لم تنشأ الا عن ظروف اجتماعية محضة أو تصرفات خلقية معينة . ان الظواهر يفسر بعضها البعض الآخر ويعمل جانبها الجانب الآخر . وتبعاً لذلك ، لابد من بحث ما من الالمام بها كلها لمعرفة مقدار تأثيرها وتأثيرها وتلمس ما ظهر منها وما خفى ، وللتمييز بين الاسباب والمسببات والاصل والفرع تمسكا بالموضوعية واظهارا للحقيقة المجردة .

الاطار الاجتماعي

العناصر المكونة للمجتمع المغربي في عهد بني مرين

— مميزاتها —

— مدى اختلافها وانسجامها —

تكونت البيئة الاجتماعية في هذا العصر من عناصر اختلفت في أصلها ، في تكوينها وفي سلوكها النفسي والاجتماعي ، كما اختلفت في قوتها وضعفها ، الشيء الذي أدى حتما الى نتائج معينة لابد لشرحها وتعليلها ، من التعرف الى هذه العناصر — لاسيما تلك التي كان لها من قريب أو من بعيد أثر على الحياة الادبية — التي تعايشت جميعها وتفاعلت في اطار واحد وفي زمن واحد .

فالى جانب بني مرين ذوي السلطة الرسمية ، نجد قبائل اخرى لعبت في تكوين المغرب ، وما زالت ، دورا رئيسيا وأثرت في تطور مراحل حياته تأثيرا خطيرا . بالإضافة الى قبائل صنهاجة التي شكلت المغرب تشكيلا واعطته شخصية جغرافية احتفظ بها عبر العصور نجد قبائل المصامدة التي تكونت منها الدولة الموحدية الكزائلية ، ورغم كون هذه القبائل كلها بربرية أو على الاصح تتحدث بلغة بربرية الا أنها كانت كثيرة التطاحن والتصارع في الخفاء تارة وفي العلانية مرة اخرى فالقبائل الموحدية على الخصوص كانت مناوئة مضمرة الشر ، متربصة بالقبائل المتسلطة القائمة على انقاضها ، فالمسألة خلافا لما أكده بعض المؤرخين وما نقل عنهم (I) لا تعدو أن تكون سياسية محضة ومادية صرفة . فهزيمة المصامدة امام قوة بني مرين وانقراض دولتهم رغم ماكان لها من السلطة العالية والنفوذ القوي في المشرق أو المغرب ، والقضاء على ماكانوا يتمتعون به من مصالح مادية واعتبارات

(I) هنري تيراس «تاريخ المغرب» (الدار البيضاء 1951) ج 1 ص 15-22 .

معنوية ، كل ذلك أدى الى ردود فعل كان لها اثر على الحياة المغربية سواء من الناحية الاجتماعية أو الناحية السياسية ، فالحقد كان حادا والتنافر مستمرا والعداء كامنا شديدا نظرا لحدادة الهزيمة وما كان لها خصوصا من اثر نفسى فى قبائل المصامدة .

فالموحدون الى هنا ، وخلافا لبنى مرين ، أهل البدو والقوم الرحل ، عرفوا بحياتهم المستقرة وباستيطانهم للجبال وباعتصامهم بأماكنهم وبتشبثهم بأرضهم واستغلالها ، الشيء الذى يتطلب العناية المستمرة والمراعاة الدائمة . اليس فى هذا النوع من السلوك فى الحياة تناقض حاد وخلاف يؤدى حتما الى تصادم له اثره اقتصاديا واجتماعيا وبالتالى أدبيا ؟ ألا ينتظر من هذه الظاهرة الاجتماعية وحدها سلوك خاص فى الادب وغيره ؟ أضف الى ذلك أن العناصر المصبودية لازالت تحمل فى نفسها وفى ذهنها أثر « العقيدة الجديدة » التى أتى بها المهدي بن تومرت وعمل على ترسيخها فى أبناء قبيلته وغيرهم . لقد قام المهدي بإصلاح ديني ، أساسه « الطريقة الاشعرية » مجددا ومجتهدا ، عاملا على تطوير مفهوم العقيدة الاسلامية وعدم الركون الى نصوص الشريعة الاسلامية وحدها دون اعمال العقل بينما قام بنو مرين منذ اعتلائهم عرش المغرب بمحاربة هذه « البدعة » والرجوع الى الاصل أى الى المذهب المالكي مذهب أهل السنة ، الذى يتمسك بنصوص القرآن وما ورد فى الحديث والابتعاد عن أعمال الرأى والاجتهاد . وبذلك تكون اختلاف من نوع آخر ، اختلاف فى المذهب وفى فهم القواعد الاسلامية أو بلغة العصر معارضة مذهبية ان شئنا .

العنصر العربى

منذ الفتح الاسلامى (I) دخلت المغرب فاستوطنته عناصر عربية ، سكنت هنا وهناك حسب اعتبارات مادية واخرى معنوية فاعلة متفاعلة مع العناصر الاخرى التى جاورتها فى نفس الاطار . الا أن الهجرة الكبرى حسب مصادر التاريخ ، كانت على يد الفاطميين يوم غادروا المغرب الى الشرق تاركين وراءهم خلفاءهم الذين مالبتوا أن انفصلوا عنهم وشقوا عصا الطاعة معلنين استقلالهم وقيام دويلات تقاسمت المغرب العربى . وكرد فعل ضد هؤلاء العصاة المغاربة بعث الفاطميون الى افريقية قبائل « لا يحصى عددها » من بنى هلال ثم من بنى سليم (2) احتلت المغرب احتلالا وانتشرت فى مختلف نواحيه « كالجراد المنتشر » عابثة بانظمتها ، وعائية فسادا فى أراضيه ومدنه وقراه . هؤلاء العرب بل هؤلاء الاعراب قوم بدو أتوا المغرب ولهم

(1) بل قبل الفتح الاسلامى حسب روايات مختلفة .

(2) وغيرهم .

لقتهم الخاصة وعاداتهم وتقاليدهم المرعية وسلوك في حياتهم يختلف عن سلوك الآخرين . الا يحتاج اندماجهم في البيئة الجديدة الى عملية تكيف نفسية واجتماعية قد تكون صعبة كما قد تطول أو تقصر حسب الظروف والملايسات .

ومهما يكن من أمر ، فقد عاش منهم بالاضافة الى عرب يعقل عدد كبير فسي ظل بنى مرين ، متجاورين مع غيرهم من أبناء المجتمع المغربي منفعلين ومتفاعلين ، بل لعبوا دورا في الحياة الرسمية وغير الرسمية كما لعبوا دورا في الحياة الاجتماعية في هذه البيئة ، ففي الميدان الاول نجدهم يحتلون مناصب مختلفة سواء في الجيش أو في الادارة . لقد بواهم بنو مرين مناصب عالية كان لا يتمتع بها الا بنو مرين أنفسهم ، أو عناصر من قبائل زنانة على العموم ، بل أخطر من هذا لقد وجدوا بجانب جنود بنى مرين على رأس الجيش جيش الدولة رغم ما يتطلبه هذا الميدان من حذر ورنقه وإخلاص . لقد عدل طراس هذه الثقة التي أولاها بنو مرين لهؤلاء العرب بكون القبائل المرينية المسيطرة على السلطة القائمة في المغرب غير متوفرة على العدد الكافي من أبنائها لتشكيل الجيش ولتزويد المخزن بالعناصر الصالحة ، (1) ولكنه لم يذكر لماذا لجأ بنو مرين الى العرب دون سواهم من القبائل الاخرى الموجودة في المغرب أكان ذلك من قبيل العفوية والصدق أم هو أمر محكم ومدبر ؟ أما نحن فنرى لهذه الثقة أسبابا أخرى منها ما هو اجتماعي ومنها ما هو نفسي . ان بنى مرين (2) عرب كما رجحنا ، بدو ورحل كهؤلاء العرب لهم تقاليد متشابهة وطقوس مماثلة رغم ما ظهر بينهم من اختلاف في السياسة أو الاجتماع . يدل ذلك على الانسجام الذي حصل بين الاولين والآخرين اثناء ممارستهم للسلطة والذي لم يسبق ان حصل بينهم وبين غيرهم من صنهاجة أو مصمودة أو عناصر أخرى . ان طراس يؤكد هذا ويكرره بقوله : « لم يتمكن أبدا بنو مرين من الاستغناء عن العرب » (3) .

ولقد كان من نتائج سلوك هؤلاء الاعراب ان انطبعت البيئة المغربية في هذا العصر بطابع الحياة البدوية بجميع أشكالها وضروبها المختلفة نظرا لما اتصفوا به من كثرة التنقل وعدم الاستقرار . فكانوا بطبيعتهم البدوية يحتلون بقعة من الارض لخصبها ووفرة مياهها ثم سرعان ما يغادرونها بعد ان قضوا حاجتهم فيها . وبذلك شجعت الحركة البدوية في المغرب وتطورت معالمها حتى أصبحت بحكم العدوى والاضطرار قبائل كثيرة عرفت نوعا من الاستقرار تنحو نحوهم وتتخذ طريقهم في مبيت العيش والملبس والنوم . ولقد تحدث ابن خلدون عن هذه الحركة البدوية واصفا مظاهرها السلبية ومفصلا نتائجها الوخيمة من الناحية العمرانية اذ ، كما يقول في مقدمته ، « ان كثيرا من القرى والمدن الصغرى انمحت معالمها بل اندثرت

(1) تاريخ المغرب ج 2 ص 98 .

(2) او على الاقل يصطفون اكثر من غيرهم بصفة مربية قوية .

(3) انظر تاريخه (الدار البيضاء 1951) ج 1 ص 220 .

نهائيا ولم يبق لها أثر منذ ذلك التاريخ نظرا للاتلافات التي الحقها بها هؤلاء الاعراب . (1) ولقد تأثر ابن خلدون وانفعل حتى أصبح يؤكد أن الديار خربت وان الاحجار تقلت وان الاشجار اقتلعت الى الابد . ولقد نسب ابن خلدون هذه الظاهرة الى العرب بينما الامر يتعلق بقبائل الاعراب البدوية ثم ان هذه القبائل العربية لم تكن هي المسؤولة الوحيدة ، كما أكد ابن خلدون ومن نقل عنه (طراس) عن هذه الظاهرة الاجتماعية ذات الأثر السيء على العمران وعلى الاقتصاد بصفة عامة . ذلك أن قبائل أخرى (2) وخاصة منها قبائل بني مرين وزناتة بصفة عامة شاركت بحكم تكوينها الاجتماعي وتقاليدها البدوية في خلق هذه الظاهرة وانتشارها .

وليس بخاف مالهذا النوع من السلوك في الحياة من أثر بالنسبة للسكان الذين كانوا يعيشون على خلاف ذلك ، حياة الاستقرار والحضر - ولو بصفة نسبية - إذ كان الاخلاق شديدا والتعصب قويا بين الطبقتين نظرا لتعارض المصالح واختلاف الامزجة وتناقض الاخلاق والذوق والخسارة التي يلحقها هؤلاء بأولئك ، الشيء الذي تلبه اليه كثير من المؤرخين ، وفي مقدمتهم ابن خلدون ، واعتبروه نوعا من العصبية التي كثيرا ما تنشب في بقع العالم بين أهل البدو وأهل الحضر .

ونتائج هذا كله ان الحياة الاقتصادية تأثرت الى درجة ما بحياة هذا العنصر من السكان الذي سلك هذا السلوك في كسب رزقه واقتناء موارده ، إذ كان من الصعب على البدوى أن يمتحن حرفة أو يتخذ صناعة يتدرب عليها ويتفنن فيها أو يستقر بأرض يفلحها ويرعاها ، حتى يستغل ثروتها ، الشيء الذي يتطلب منه الاستقرار والصبر والصمود والبناء والتعمير ، بل عندما تشتد الحاجة يضطر بحكم وضعيته الى التسلط على الغير واغتصاب ممتلكاته وفرض سيطرته عليه ، مما يؤدي الى التفتير والتجوع . ولقد ازدادت الحالة خطورة والازمة شدة بسبب ما كان لهؤلاء الاعراب من نفوذ ومن جاء لدى رؤساء بني مرين الذين ، اتقاء لشركهم ، أو جزاء لهم على خدمتهم ، ما فتنوا يفدون عليهم من الاراضي المغربية أجودها وأكثرها خصبا ، ومن المناصب أعلاها منزلة بالنسبة للعناصر الأخرى من السكان . وهكذا تمتعوا بنظام الاقطاع الذي كان سائدا في هذا العصر وتصرفوا في كثير من الاراضي تصرف المالك المطلق فارضين على أهلها انواعا شتى من الضرائب والخدمات فكانت النتيجة كذلك أن قل خصب هذه الاراضي وتقهقرت فلاحتها وفتر عمرانها وعم فيها الفساد والظلم نتيجة رد فعل أصحابها .

الا ان البيئة المغربية قد افادت كثيرا من وجود هذه القبائل العربية بين ظهرانيتها وانتشارها في كثير من الجهات التي تتفق وطبيعتها . لقد انتشرت

(1) المقدمة (مصر - المطبعة التجارية الكبرى بدون تاريخ) ص. 149-150 .

(2) راجع على الخصوص 182 - 183 , pp. Les Arabes en Berberie , (W.) Marçais .

العربية بفضلها انتشارا لم يسبق للمغرب أن عرفه من قبل وعمت حركة التعريب كثيرا من القرى والبادى حتى أصبحت اللغة العربية هي اللغة السائدة في البلاد (1) وهي اللغة الرسمية للدولة (2) خلافا لما كان عليه الامر زمن ائوحدين او العصر الذى سبقه . وهكذا عربت قبائل كثيرة لم تكن تعرف سوى البربرية بل هناك من القبائل من عربت نهائيا وفقدت « بربريتها » حتى اصبح يشك فى امرها ويستبعد أن تكون بربرية فى بدايتها ، ولقد ساعد على هذه الحركة وتنشيطها ما كان لبنى مرين وهذه القبائل من توافق فى الامزجة وتشابه فى الطبع وتقارب فى كثير من العادات والتقاليد وبذلك تظافر الطرفان وتعاونوا عن قصد أو غير قصد فى كثير من الاحيان على خلق هذه الظاهرة الاجتماعية التى كان لها كما سنرى اكبر الاثر من الناحية الادبية أو جوانب أخرى مختلفة تمت اليها بصلة (3) .

عنصر الاندلسيين

هناك عنصر آخر من عناصر سكان المغرب لا يجب ان نفعل عن ذكره ، نظرا لما قام به من دور وما تركه من اثر فى هذه البيئة التى كانت اطارا واحدا لجميع العناصر المختلفة التى تعايشت كلها فيه وتفاعل بعضها مع بعض فكونت وحدة اجتماعية لها طابعها الخاص ومميزاتها الخاصة . والامر يتعلق هنا بعنصر الاندلسيين الذين ترددوا على المغرب او عاشوا فيه حينما أو استقروا فيه نهائيا لاسباب دينية أو اجتماعية أو اقتصادية . لقد توالى هجرات الاندلسيين على المغرب منذ ارتباط العدوتين الى ان اشتد هذا الارتباط وقوى فى عصر بنى مرين قبل أن يتلاشى وينهار بسقوط دولة بنى نصر (4) . لم نجد فى المصادر الخاصة أو العامة ما يساعد على معرفة نسبة هؤلاء المهاجرين بالضبط ولم نقف على وثيقة تفيد من قريب أو من بعيد فى البحث عن أهمية حركتهم ، ولكننا بحكم التاريخ وتطور الاحداث نستطيع أن نؤكد ان الهجرات مهما اختلفت انواعها ومقاصدها ، قد قويت وتلاحقت فى زمن قصير ايام المحن ولاسيما بعد سقوط القواعد الاسلامية بالاندلس وقيام مملكة غرناطة التى كانت بمثابة مقدمة للهجرة الكبرى . والذى يهنا هنا ان قيام غرناطة وافق قيام دولة بنى مرين وان عمر الاولى كان تقريبا هو عمر الاخرى ، اى منذ اوائل القرن السابع للهجرة الى اواخر القرن التاسع وهكذا عاشت الدولتان متحدتين من حيث الزمن ومتقاربتين من حيث المكان . ونتيجة لذلك . اصبحتا

(1) طراس (تاريخ المغرب السدار البيضاء 1951) ج 2 صفحة 26 .

(2) عبد الله كنون النبوغ ج 1 ص. 183 .

(3) لم ان هناك فوائد أخرى من الناحية الاقتصادية لا يتسع المجال لذكرها هنا .

(4) سنة 1492 .

وجها لوجه تارة فى تعاون مستمر ضد النصارى وأخرى فى تنافر وتنازع ومرة فى حياد قد يطول أمده أو يقصر . وبذلك امكنا ان تلعبا دورا مهما فى تاريخ كل من الشعبين وأن تطبعا حياة كل من المجتمعين بطابع خاص تجلت معالمه فى الحياة الاجتماعية كما ظهرت آثاره فى الميادين الأخرى .

وانذا تذكرنا أن القواعد الإسلامية المتداعية هنا وهناك والمتساقطة فى يد الاسبان تركت شعبا أوى كله تقريبا أو جلّه الى غرناطة ، الملجأ الأخير ، حتى ضاق سكانها بهؤلاء المهاجرين وأصبح يعادل 600 000 (I) ، وعلمنا من جهة أخرى الظروف القاسية التى كان يتخبط فيها سكان هذه القاعدة الأخيرة ، أمكنا تقدير مدى ارتباط مصير هؤلاء الأندلسيين بمصير المغاربة ومعرفة أهمية رجالهم وتنقلاتهم الى المغرب لئذى طالما استنجدوا به هم وأسلافهم ووجدوا فيه فى كثير من الأحيان المساعد الأمين والناصر القوى والجندى الباسل .

ومهما يكن من أمر ، فقد وجدوا فى المغرب فى هذا العصر الذى تؤرخ له وتناثروا هنا وهناك رغم انحصار جلهم فى بعض المدن الرئيسية كفاًس وتطوان والرباط وسلا وغيرها من المدن والبادى والقرى .

وقبل أن نتعرض لصفاتهم وأخلاقهم وما تركوه من أثر فى هذه البيئة المغربية ، يجب أن نعرف قبل كل شئ من هم ؟ ما منبعمهم ؟ وما نوع ثقافتهم بصفة عامة ؟

منهم العربى الفصح الذى نزح من الشام أو غيرها منذ الفتح الإسلامى وحافظ على قيمه ومثله الأخلاقية والاجتماعية عبر العصور (2) ومنهم المولد ، أين النصارى الذين اعتنقوا الإسلام ، والذين ما زالوا بحكم الوراثة والبيئة التى نشأوا فيها يحملون كثيرا من صفات وأخلاق أجدادهم رغم اندماجهم فى المجتمع الإسلامى . ومنهم المدجن الذى عندما غلب على أمره وأصيب فى نفسه وذويه ، رضى بالتعايش مع غيره من الاسبان الفاتحين فبقى خاضعا لسيطرة السلطة المسيحية محافظة على أمواله وأمتعته أو لاعتبارات أخرى ، ومنهم النصرانى المعاهد الذى فضل البقاء فى ظل الدول الإسلامية المتساقطة لأسباب مختلفة ، متشبها بديانته وخلقه وتعصبه خصوصا رغم ما تتمتع به من تسامح دينى واجتماعى ، ورغم مآظهم به من محبة وإخلاص للمسلمين . ومنهم الموريسكى أو العربى المنتصر ، ذاك الذى أرغم على اعتناق الديانة المسيحية والتخلّى نهائيا عن جميع مظاهر قوميته والذى رغم الوعيد

(1) عنان عبد الله ، نهاية الأندلس وتاريخ الغرب المنتصرين القاهرة ، مطبعة مصر 1953 صفحة 35 .

(2) لقد ذكر ابن الخطيب فى الإحاطة عددا . القبائل العربية التى استوطنت الأندلس أنظر صفحة 40 . (دار المعارف بمصر المجلد الأول بدون تاريخ) .

والتهديد استطاع الالتحاق بالمسلمين فرارا من الاذى ومحافظة على عقيدته (1) ، ومنهم الافريقي البربري الذي كان قد اختار العودة مع الفزاة أو مع غيرهم يعمل جنبا الى جنب مع باقى الاندلسيين المجاهدين (2) .

والواقع أن الامر يتعلق بأجناس أو على الاقل ، بعناصر اختلفت فى دياناتها وفى ثقافتها كما اختلفت فى اساليب حياتها ونماذج سلوكها رغم البيئة المادية التى كانت اطارا واحدا لتعايشها وتفاعلها ، شعب تكون من هذه العناصر جميعها التى امتزج بعضها فى بعض ماديا وفكريا وروحيا فكان منها الاديب والفقيه والتاجر والصانع والفلاح والفنان وغيرهم من طبقات الشعب .

نآلآن يحق لنا أن نتساءل عن الاثر الذى تركه هؤلاء الاندلسيون فى المغرب وعن الدور الذى لعبوه فى مختلف الميادين الثقافية منها والاجتماعية على الخصوص

لم تحفل مصادر التاريخ كعادتها بهذا النوع من الدراسات نظرا لاهتمام اصحابها بالناحية السياسية والعسكرية على الخصوص ، والاكتفاء فى كثير من الاحيان بالاشارة الى الجوانب الاجتماعية والثقافية ، وقد يرد شئ من ذلك هنا وهناك ، لكن بصفة عرضية وفى مواضع متفرقة . لذلك يصطدم الباحث فى هذا الميدان بكثير من العقبات ، قبل أن يصل الى الغاية المنشودة . ونحن ، وإن كنا لانريد التفصيل والالام بجميع الجوانب مراعاة للخطوط التى رسمناها لهذا البحث الا اننا نرى ضروريا فى هذا الباب أن نقف ولو قليلا عند بعض المظاهر التى تجلى فيها اثر هذا العنصر من السكان .

نعم لقد دخل المغرب هؤلاء المهاجرون وازداد عددهم كما رأينا فى هذا العصر، نظرا لما حل بهم من أزمات وما لحقهم من ويل وبعدها تأكدوا من النهاية الحتمية لغرناطة المحتضرة ، دخلوا ولهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة وعقليتهم ، وطبائعهم واخلاقهم التى كانت تختلف عن اخلاق من أقبلوا على التعايش معهم فى هذه البيئة المغربية .

لقد عاش الشعب الاندلسى ، كما لا يخفى ، فى احتكاك مستمر مع النصرارى وغيرهم ، فى اصطدام تارة وفى استسلام طورا وفى تعايش سلمى موقت أحيانا ، مما أدى الى ردود فعل سلبية وإيجابية ، نفسية واجتماعية ودينية على الخصوص ، أساسها التنافر والتناقض ومحاولة قضاء جانب على الجانب الآخر . وكان من نتائج هذا الصراع ان تآثر الاندلسيون بصفة شعورية وغير شعورية رغم محافظتهم على عقيدتهم ، بنظريات ومفاهيم من خالطهم من النصرارى واليهود الذين كثيرا ما

(1) عثمان عبد الله ، نهاية الاندلس (القاهرة مطبعة مصر 1958) صفحة 472 .

(2) منهم بنو ادريس وبنو العلا مثلا

ناقشوه في أمور دينية طالما اجتنبوا الخوض فيها والتساهل في تأويلها ، فاتصفوا تبعاً لذلك أو عن طريق التأثير غير المباشر بحرية التفكير ، وانطلاقة التعليل ، ومحاولة فهم الاشياء ، ظاهرها وباطنها ، الشيء الذي لم يكن مألوفاً في البيئة على العموم ، اذا استثنينا بعض الاوساط . ألم تكن هذه الظاهرة وحدها كفيلاً بخلق نيار معارض قد يكون سرياً لا يتعدى الانفعال المكبوت ، وردود فعل نفسية تنتظر فرصة التنفيس والتعبير ، كما يكون علنياً يتجاوز دائرة الانفعال وينتقل الى بعض الطبقات الاجتماعية ، لا سيما ونحن نعلم ان المغاربة عرفوا منذ القديس بشدة محافظتهم وتمسكهم بتقاليدهم التي طالما دافعوا عنها ، وكافحوا من اجل ابقائها على ما هي عليه نظراً لماهية البيئة التي كانوا يعيشون فيها واسلوب الحياة التي كانوا يحيونها .

لقد حاول الموحدون مثلاً ، بشتى وسائل الضغط والاكراه ، ارغام رعييتهم على اعتناق افكارهم الجديدة والتخلي عن مذهب مالك . لكن هذه الوسائل لم تزد المغاربة إلا عناداً وتصلباً في الموقف ، رغم ما لحقهم من آذى ومحن . وفي هذا المضمار نورد هنا فقرة للاستاذ كنون (X) هذا نصها : «والذي نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي لم يهزم مطلقاً أمام الدعوة الى الاجتهاد التي كان الموحدون يتزعمونها ولا امام المذهب الظاهري الذي عرف نشاطاً كبيراً في هذا العصر» . ويفيد النص كذلك أن الظاهرية عرفت نشاطاً ملحوظاً الى جانب المذهب المالكي والتيارات الفكرية الأخرى من شيعية وسلفية وغيرها . ألا يعني هذا أن دعوة ابن حزم عرفت مكانها في البيئة المغربية ووجدت معارضة قوية من طرف الفقهاء والعلماء وطبقات الشعب الأخرى (2) ؟

لقد حدث من معارضة ومقاومة ما أشار اليه الاستاذ كنون أيام بنى عبد المومن حيث كانت الهجرة محدودة وتلقائية في غالب الأحيان . فما ظنك بعصر بنى مرين حيث اشتدت الهجرة وقوى الارتباط بين العدوتين وتساقطت جميع اقواعه الإسلامية في يد الاسبان باستثناء غرناطة التي كانت على وشك السقوط والانقياد . وسواء ظهر ذلك أو لم يظهر لمن أرخوا لهذا انصر من المعاصرين وغيرهم . فان طبيعة الاجتماع وقوانينه تجعلنا ننتظر تلك النتيجة رغم ما بدا في الافق من ظواهر أخرى سائدة حالت دون ملاحظات تلك التيارات المعاكسة التي تعمل عملها في الافكار وفي النفوس ولو لم تتخذ شكل الظاهرة المسيطرة .

هذا فيما يرجع لبعض خصائص الذهنية الاندلسية ، اما الجوانب الأخرى فجديرة بالذكر لما لها من اثر في الوصف والتعليل . لقد عاش الاندلسيون في

(1) النبوغ المغربي ج 1 ص 122-123 .

(2) النبوغ 1 ص 137 حيث يذكر الاستاذ كنون ما لقيه المذهب الظاهري من معارضة على يد الفقيه ابي زكرياء الزواوي أيام الموحدين .

بيته وصفها الشعراء والكتاب والمؤرخون وغيرهم وبأوصاف لا تكاد تختلف فسى جعلتها ، وهى من شأنها أن تؤثر فى الفرد وتكيف سلوكه النفسى والاجتماعى ، وتجعل منه عنصرا له مذهب خاص فى الحياة واخلاق تبعث على التفاؤل والانشراح والاقبال على الحياة المرحبة للتلذذ بها وبشهواتها . قالوا انها خصبة وجميلة ، تحف بها الحدايق الغناء ، وتخرقها الوديان الجارية وتعلوها القصور البديعة المتناثرة هنا وهناك ، وتتلاقى فيها جميع العناصر المتعايشة اليهودية والنصرانية والعربية وغيرها وتعيش كلها تحت ظلالها الوارفة وجناتها المثمرة ، بيئة شاع فيها الغناء والطرب والرقص وانتشرت فيها دور الملاهى والمقاهى التى كان الناس يؤمونها من سائر الطبقات تفاعلت فيها حضارات مختلفة فى صفاتها فتكونت منها حضارة راقية ، حضارة الشعب الاندلسى على العموم ، ولقد أكد ابن الخطيب (I) فى حديثه عن غرناطة قائلا : «أخلاقهم جميلة وصورهم حسنة ، وشعورهم سود ، والسنتهم فصيحة عربية وأخلاقهم أبية ، وحديث حريمهم جميل ، موصوف بالسحر ، وتنعيم الجسوم واسترسال الشعور ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة ، وقد بلغن من التفنن فى الزينة لهذا العهد والمظاهر فى المصبغات والتنفيس بالذهنيات ، والديباجيات والتماجن فى اشكال الحلى الى غاية نسال الله ان يفض عنهن فيها» .

تاك هى بيئة الاندلسيين الى تركوما وتلك أخلاقهم وصفاتهم التى حملوها معهم يوم أقبلوا على البيئة الجديدة ليتخذوها مقرا نهائيا لهم .

وهى بيئة تختلف ، كما نرى ، عن البيئة المغربية ، ذات النزعة البدوية ، كما أسلفنا ، والطابع المحافظ . ألم يكن حتميا ان يقع بين العنصر التقليدى والعنصر الجديد نوع من التناقض والتصادم قبل أن يقع الاندماج والانسجام ؟ الا تقتضى ظروف التفاعل والاحتكاك المباشر ان يتأثر جانب بجانب آخر والعكس بالعكس ؟ ذلك ما كنا ننتظره وما لمسنا منه فى مختلف مظاهر الحياة المغربية بعد قدوم هؤلاء المهاجرين ، رغم كون دائرة استقرارهم لم تتعد بعض المدن الرئيسية كالرباط وتطوان وفاس . لقد كيفت هذه العناصر الاندلسية حياة المغرب الثقافية والاقتصادية والاجتماعية . وتركت آثارا مباشرة وقوية فى جميع الميادين ، مما جعل بعض المؤرخين ومنهم طراس (2) يؤكدون أن حضارة المغرب فى عصر بنى مرين حضارة أندلسية محضة مستوردة من العدو الأخرى ، لا دخل للمقاربة فيها . ورغم ما فى هذا الحكم من تسرع وتطرف ، لتجاهله عملية التفاعل الاجتماعى من أخذ وعطاء ،

(1) الإحاطة ، تحقيق وتقديم عبد الله منان (دار المعارف بمصر بدون تاريخ) المجلد الاول ص 133 .

(2) تاريخ المغرب الدار البيضاء بدون تاريخ ج : 2 ص 76 .

نلاحظ ان العنصر الاندلسي كان له أثر فعال في جميع مرافق الحياة المغربية .
كما سنرى فيما بعد بتفصيل ، الا انه يمكن الاختصار والاكتفاء هنا بذكر بعض
الامثلة فيما يرجع لبيادين رئيسية .

ففي الميدان الثقافي مثلا ، نجد عناصر أندلسية اكتسحت الميدان ولعبت دورا
رئيسيا فيه . نظرا لما كانت تتوفر عليه من مكانة سامية ومركز اجتماعي مهم .
لقد وفد على المغرب في هذا العصر من المهاجرين شخصيات ذاع صيتها في المجتمع
المغربي وانتشر مفعولها نفسيا وروحيا وماديا ، فكان لوجودها في المغرب فائدة
للطلبة بصفة خاصة ولجميع الاوساط المثقفة بصفة عامة وليست هذه الشخصيات
بالعدد القليل الذي يمكن حصره في هذا المجال الضيق ، لذلك نكتفي هنا بذكر
بعض الاسماء مشيرين الى الدور الذي قامت به هذه الشخصيات .

في المقدمة نجد الشاعر الكبير ، والكاتب البليغ والمؤرخ العظيم الوزير لسان
الدين ابن الخطيب (I) الذي تردد على المغرب كسفير او كلاجئ وشهرته لا تخفى
على أديب او مؤرخ نظرا لثقافته الواسعة والدور الذي لعبه في الميدان الثقافي
والميدان السياسي ، اذ كان ابن الخطيب استاذا يقتدى به أينما حل وارتحل فكانت
تلك الايام التي قضاه بالمغرب عبارة عن دروس يستفاد منها ، او مادة غزيرة
يستقى منها سواء في الميدان الثقافي او في السياسة او في البلاط الملكي ، ولا
أدل على ذلك مما ألفه أثناء مقامه بالمغرب من كتب كثيرة ومتنوعة سنأتي على
ذكرها من بعد . وفي عالم الروحيات نجد شخصية أخرى نسردنا على سبيل المثال
نظرا للدور الذي لعبته في ميدان الزهد والتصوف وأعني بهذه الشخصية أبا
العباس احمد بن عاشر ، دفين سلا . لقد انتقل من غرناطة الى المغرب حيث أصبح
شيخا يتطرح عليه ويتبرك منه . طمعا في نصائحه ودعواته ، يكفيك دليلا على
ذلك ما قام به السلطان أبو عنان من جهود للاتصال به والاستفادة من نصائحه .
لقد ذهب اليه راجلا وانتظره طويلا لكن محاولاته باءت بالفشل فرجع خائبا ، يائسا

وفي البلاط المريني نجد كذلك عددا لا يستهان به من هؤلاء الاندلسيين الذين
خدموا الدولة وأدوا من المهام ما جعلهم يتقلدون مناصب عالية مخزنية نظرا لثقافتهم
وقوة نفوذهم والشهرة التي كانوا يتمتعون بها سواء في بلادهم او خارجها .
فوجودهم في البلاط دليل على تأثيرهم المادي والمعنوي ، وشرف للمخزن المريني
الذي أصبحوا من المنتمين اليه وهكذا ، على سبيل المثال ، كان لابي عنان من
الكتاب الاندلسيين ابن جزى ناسخ رحلة ابن بطوطة وأبو القاسم ابن يحيى الغساني
البرجي وغيرهما ..

أما في الجيش فلقد احتل الاندلسيون كذلك مناصب سامية ، اسوة بغيرهم

(1) توفي 776 بفاس حيث احرق .

من العرب والبربر ، كقواد او كمشاة ، فاتصفوا بالخصال الحسنة ، وبالطاعة وحسن الترتيب واللون الجميل في اللباس . ومن المفيد ان ننقل هنا عن الاستاذ المنونى ما جاء فى بحثه عن جيش بنى مرين حيث يقول مستندا الى «فيض العباب» فقد كان فى مقدمة الموكب قواد الجيش من بنى مرين والعرب والاندرلسيين والاعلام وجاء بعد هذه الجموع المشاة الاندرلسيون (1) .

وهكذا يتضح من هذا النص أو غيره من المراجع ان الاندرلسيين لعبوا دورا هاما فى الجهاز الادارى للدولة وأدوا خدمات مدنية وعسكرية ، لا تقل شأنًا وخطورة عن المهام التى اسندت لغيرهم من بنى مرين والعرب وهى ، كما نرى ، وظائف سامية لا تسند الا لمن حظى بثقة الرؤساء وتوفرت فيه شروط الامانة والكفاءة والاخلاص . وبذلك كان للدور الذى قاموا به فى هذه الميادين اثر بليغ فى ذهنية ونفوس المغاربة الذين عاشروهم او اتصلوا بهم من قريب او بعيد . وأنت تعلم ما فى الاحتكاك المباشر او غير المباشر ، لا سيما بمن تتمثل فيه السلطة او الكفاءة ، من اثر فى التكيف وقدرة على التنشيط، وبعث دوافع التقليد والتنافس والتسابق .

وليست هذه هى الميادين الوحيدة التى تجلى فيها اثر الاندرلسيين بالمغرب ، ان تأثيرهم تجاوز هذا الحد الى مرافق أخرى اجتماعية واقتصادية وعمرانية لا سبيل للتعرض لها هنا نظرا لما سقناه من أمثلة نطن أنها كافية لآخذ فكرة عن الدور الذى لعبه هذا العنصر من السكان الى جانب العناصر الاخرى . ورغم كونهم انحصروا فى بعض المدن الرئيسية فان تأثيرهم المادى والخلقى والمعنوى تجاوز حدود هذه الدائرة الضيقة ، وانتقل كما قلنا ، الى آفاق أخرى بقيت الى الآن تحمل طابعا اندلسيا . ظهر ذلك التأثير فى فن البناء وفى اللباس وفى أسلوب الاكل وفى الغناء ، وفى الرقص وفى تقاليد وعادات ما زال بعضها حيا الى اليوم .

عنصر اليهود

أجمع المؤرخون او كادوا على ان أهل النمة ، اليهود والنصارى ، بصفة عامة، عاشوا فى المجتمعات الإسلامية عيشة كريمة محترمة ، لا يسهم سوء ، ولا يصيبهم اذى الا فى أحوال نادرة ، نظرا لما تمتعوا به فى هذه المجتمعات من تسامح دينى واجتماعى ، خلافا لما كان عليه غيرهم من المسلمين فى بلاد النصارى حيث ساد التعصب والاضطهاد والابادة فى بعض الاحيان وأصدق مثال وأقربه الى عصرنا ما شاهده اسبانيا المسلمة على يد الكنيسة اثر سقوط غرناطة ونفى المورسكيين

ورفى هذا يقول آدم متز (1) : وان ما يميز المملكة الاسلامية عن أوروبا النصرانية فى العصور الوسطى ان الاولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الاديان الاخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانية ، وان الكنائس والبيع ظلت فى المملكة الاسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، كأنها لا تكون جزءا من المملكة ، معتمدة فى ذلك على اليهود وما آكسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فتسبب ذلك فى خلق جو من التسامح لم تعرفه أوروبا فى القرون الوسطى ، هذا ما قاله آدم متز عن وضعية أهل الذمة فى المجتمع الاسلامى ، وما قال عنهم غيره لكثير سواء فى تاريخ الاسلام او تاريخ المسيح . وإذا كان الامر كذلك ، فلا غرابة فيه ، اذ ان القرآن وهو دستور الاسلام ، وأساس شريعته نص على معاملة النصارى واليهود معاملة أساسها التسامح والتعاطف والتعايش السلمى ، الشيء الذى يفرض احترام شعائر الدين وعاداته وأخلاقه ، ولو كان فى ذلك ما حرمه القرآن على المسلمين . فقد قال تعالى : «ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » ، (2)

ولم يكن المجتمع المغربى فى عهد بنى مرين بأقل من غيره من المجتمعات الاسلامية تسامحا نحو اليهود . لذلك نجد منهم فى هذا العصر اقلية كان لها دورها وتأثيرها المباشر وغير المباشر فى الحياة المغربية . وإذا كنا نجهل بالضبط نسبة هذه الاقلية وأماكن استقرارها لعدم اهتمام المؤرخين بصفة عامة بهذا الجانب ، فمن الممكن أن نؤكد ان نسبتها ارتفعت فى هذا العصر خصوصا ، وفى العصور التى بعده ، نظرا لما حل بالمسلمين باسبانيا من تعذيب ونفى نتيجة تعصب الكنيسة ضدهم اثر سقوط غرناطة وبعد النفى العام . ذلك ان اليهود كانوا يعيشون فى ظل القواعد الاسلامية بالاندلس آمنين مطمئنين ، متمتعين بحقوقهم المادية والمعنوية ، كما أكد ذلك كثير من مؤرخيهم وغيرهم من المسلمين والنصارى ، الى أن نفوا مع المسلمين ولقوا نفس المصير من اضطهاد وتعذيب ، فتوافدوا بكثرة على أرض المغرب ، واستقروا ببعض مدنه وقراه لاسيما فى فاس حيث البلاط المرينى وحيث الاسر الموسرة والعناصر الاندلسية التى هاجرت من العدو واستوطنت هذه المدينة منذ قرون . وجدير بالذكر هنا كما أكد الى مالكا (3) أن أهم الإصلاحات التى أدخلت على قانون الاحوال الشخصية اليهودية يرجع عهدها الى هذا التاريخ الذى قويت فيه الهجرة اليهودية الى المغرب ، اذ أن كثيرا من الحاخامات الذين هاجروا الى المغرب بادروا بتشريع هذه الإصلاحات مستمدينها من العادات والتقاليد اليهودية التى كانت سائدة فى الاندلس فكانت اذن تلك الهجرة عاملا من عوامل وضعية المرأة اليهودية بالمغرب وأساسا لكثير من التشريعات التى ما زال معظمها يطبق حتى

1، الحضارة العربية . ص. 172 .

2، المنكوت ، 29

3) مالكا : وضعية المرأة اليهودية بالمغرب ، (يناير 1952) ص 115 .

انيوم (I) . ونلاحظ كذلك ان هؤلاء اليهود المهاجرين هم السفرديون الذين كانوا يتحدثون بلهجة اسبانية (لاتينو) . لقد نقلوا الى المغرب علاوة عن ثقافتهم الدينية عاداتهم وأخلاقهم وما اكتسبوه من مميزات خاصة وعمدة فى المجتمع الاندلسى الاسلامى الذى كان يعج حينذاك بعناصر مختلفة المشارب والمنازع . فكان منهم من بلغ درجة كبيرة فى العلم والاداب ، كما كان منهم أطباء وتجار وصناع وأصحاب حرف بدوية وفنون مختلفة سنتعرض لها فيما بعد .

وعلى كل فقد عرفوا فى كثير من نواحي المغرب ولا سيما فاس ، وعاشوا جنبا الى جنب مع المغاربة المسلمين كما نأوا عن طغى الرسميين وغيرهم من رؤساء بنى مرين الذين قربوهم اليهم وأغدقوا عليهم عطفهم وأدخلوا بلاطهم ومجالسهم وأطلعوهم على أمورهم الخاصة ، انشئ الذى جعل المسلمين ، فى بعض الايام يغيرون ويتورون ضد الطفيان والتحكيم . واذا كان أبو الحسن المرينى شذ عن غيره من ملوك بنى مرين (2) واستغنى عن هذا العنصر ولم يستخدمه ولم يقربه ، فأبو يوسف يعقوب وهو مؤسس دولة بنى مرين عندما بنى فاس المدينة البيضاء ، لم يفته ان يخصص لليهود جزءا من ساحتها كمساكن يستقروا بها ، فانتقلوا اليها على عهده ، بل من أمره ، حماية لهم ، ودفاعا عن حقوقهم . اما السلطان ابو يعقوب فكان لا يفارقهم لا فى سرائه ولا فى ضرائه «حتى التحموا به التحاما وامتزجوا امتزاجا يجانسونه فى خلواته وينادمونه فى أندية» ، فعظم بأسهم لدى النخبة لأقبال السلطان عليهم (3)

وفى أيام السلطان عبد الحق آخر ملوك بنى مرين برز على مسرح السياسة يهودى يدعى هارون عين وزيراً . فكان من أمره ما كان حتى قام قاضى فاس وخطيبها أبو فارس النورياكل يخطب فى الناس ويحثهم على شق عصا الطاعة وخلع السلطان عبد الحق والانتقام من هارون الذى طغى واستبد بالحكم وصار يعذب هذا ويرحم الآخر . واذا كان ما حدث أيام أبى يوسف الموحدى الذى أمر بتمييز اليهود عن غيرهم بلباس خاص (4) يجعل المعارض يشك فى المعاملة الحسنة التى لقيها اليهود فى بعض المجتمعات الاسلامية من طرف الرؤساء والملوك ، فالسبب فى ذلك على ما يستنتج من الاحداث والملابس راجع أولا الى كون عناصر من اليهود قد اسلمت او تظاهرت بالاسلام ثم أصبحت تسلك سلوك من ارتد او سلوك المنافقين . لذلك فرض عليهم السلطان المذكور زيا خاصا عقابا لهم على ما أبدوه من نفاق وخداع ووقاية من تصرفات أخرى قد تثير الفوضى وتسبب الاضطراب ، ثم ان هذه التدابير

(1) نفس المصدر ، ص 116 .

(2) ابن مرقوق السند الصحيح ، مجلة هيبيريس ج 60 ، 1925 ص 127 .

(3) التامرى . الاستقصاء الجزء 3 (دار الكتاب الادب البيضاء 1955) ص 80 .

(4) عبد الواحد المراكشى ، المعجب (القاهرة 1949) تحقيق وتقديم محمد سعيد المريان ومحمد الرحمانى صفحة 304 و 305 .

كانت على العموم فردية بمعنى ان المسؤولية فيها كانت تقع على ابي يوسف الموحدى ولم تصدر عن الشعب كرد جماعى . فالامر اذن كان يكتسى صبغة خاصة ويعتبر شيئا قليل الوقوع .

وهكذا يتضح لنا الدور الذى قام به اليهود فى عصر بنى مريـن . والنفوذ الذى حصلوا عليه على يد ملوكهم بصفة خاصة ، فكانوا فى البلاط ندماءهم وخزنتهم ومدبرى شؤونهم الخاصة ، بل مارسوا السلطة وخاضوا فى شؤون السياسة وحكموا فكان منهم الرئيس وكان منهم الوزير .

الا ان دورهم الخفى داخل البلاط المرينى كان اقوى واشد تأثيرا ، نظرنا لاتصالاتهم السرية بالحاشية والاسرة المالكة ولتعاطيمهم لحرف وصناعات فنية تمت الى النساء باكبر صلة وترتبط بميدان الانفعال والوجدان ايما ارتباط .

وعن طريق هذه الوسائل السرية النفسية استطاعوا ان يضربوا على الوتر الحساس ، فاستمالوا القلوب وثانوا من العطف ما جعل بعض ملوك بنى مريـن يستمعون اليهم وينتصحنون بنصائحهم ، فيطبقون ما يوحون به اليهم ولو كان ضد ابناءيا المسلمين . وذلك ما حدث بالفعل ايام السلطان ابنى الربيع الذى قتل الكاتب الشهير العلامة ابنى مدين عقلا بنصيحة اليهودى خليفة ابن وقاصه الاصغر (I) .

وفى الميدان الاجتماعى برز تأثير اليهود فى نواحي كثيرة من الحياة المغربية لاسيما فى فاس ارتبطوا بأهلها ارتباطا وثيقا وتفاعلا معهم تفاعلا مستمرا كان أثره واضحا فى المعاملات المشتركة والاتصالات المختلفة فى كثير من العادات والتقاليد السائدة بين الفريقين . ان كثيرا من العادات الاجتماعية ، والعادات المتعلقة بحياة الاسرة او بنظام الاكل او اللباس او بطواهر أخرى أصبحت مشتركة بين بعض الاسر المغربية والاسر اليهودية بحيث قوى التشابه فى بعض الميادين .

ولعل السر فى ذلك راجع ، فى نظرنا ، الى أن فاس كانت تحوى فى هذا العصر كثيرا من العناصر الاندلسية المسلمة التى هاجرت اليها اثر سقوط القواعد الاسلامية والتى كانت تعيش ، كما أسلفنا ، جنبا الى جنب مع اليهود قبل نزوحهم الى أرض المغرب . كان اذن ماض مشترك ، وطول ألفة ، ثم كان النفي العام الذى وحد المصير ، فهذه كلها عوامل اجتماعية ونفسية كانت الاساس فى تكوين هذه الروابط الودية بين بعض الاسر المغربية والاسر اليهودية .

واذا كنا نجد صعوبة فى تحديد هذه الظاهرة الاجتماعية ومعرفة مدى التأثير والتأثر فى مظاهرها ، فمن الممكن أن نسجل بعض العادات والتقاليد التى انتقلت مباشرة من عنصر اليهود الى المسلمين ، ويرجع انتشار كثير من هذه العادات والتقاليد

الى هذا العهد الذى نؤرخه . لقد كانت هناك صناعات مختلفة خاصة باليهود انفردوا بها بصفة عامة .

فالصياغة والصيرفة لم تكن بيد المغاربة المسلمين فى أول الامر ، ولم تكن لهم كذلك مهارة كبيرة فى صنع الاقمشة والملابس النسوية على الخصوص كنظم المقد ونسج القيطان وحبك «السقيفة» وتطريز القفطان بالصقلى ، وانما انتقلت اليهم عن طريق اليهود الذين كانوا يباشرونها ويتفننون فيها . وفيما يرجع لاساليب الطبخ يمكن أن نلاحظ أن قلى الفلفل وتقطيعه وغمسه فى الخل وتحميصه مع تحميصات أخرى كالباذنجان والجزر ، كل ذلك كان مألوفاً فى أطعمة اليهود قبل أن ينتقل الى أطعمة الاسر المسلمة .

هذا فيما يرجع لبعض التقاليد والعادات الاجتماعية التى برزت فى بعض الاوساط المغربية التى سكنها اليهود مع غيرهم من المسلمين ، أما من الناحية الثقافية فلا نكاد نجد فى مصادر التاريخ أو غيرها وخصوصاً تاريخ المغرب ، اهتماماً كبيراً بهذا الجانب رغم كون اليهود عرفوا منذ القديم بثقافة دينية لاهوتية كانت تقريباً المبدأ الوحيد الذى خاضوا فيه وتوسعوا (1) ورغم كون يهود الاندلس على الخصوص نشطوا نتيجة احتكاكهم بالمسلمين فى ميادين صوفية وأخرى دينية محضة تدور حول التوراة والتلموذ ويؤكد هذا ما أثبتته اندرى شراقي (2) فى كتابه عن اليهود حيث يقول : (إن الثقافة اليهودية عرفت فى المجتمع الاسباني ساعاتها الذهبية فى القرون الوسطى وذلك فى اطار الحضارة الرقيقة التى أدخلها بنوا أمية الى قرطبة . ولقد أعطى التعايش العربى اليهود أحسن ما يمكن من الثمار) . أقما كان اذن من الممكن أن يترك اليهود أثراً فى هذا الميدان كما فعلوا من بعد فى المجتمعات الاسلامية الاخرى ، بحكم الاتصال وما ينتج عنه من ردود فعل نفسية واجتماعية تجعل العنصرين المتجادلين يدلان بحجج وأدلة ولا سيما وقد ورد فى القرآن مسائل جاءت فى التوراة بتفصيل كقصص الانبياء وغيرها ، وذلك ما لم نعتز عليه تعصبا للعاطفة الدينية أو لاسباب أخرى لسنا نعلمها لحد الآن .

وهل ما هنالك أن بعض المصادر اشارت اشارة خفيفة الى شخصية من علماء اليهود بفاس وهو موسى بن ميمون القرطبي (3) . ويذكر بعض المؤرخين أن موسى هذا خرج من قرطبة خوفاً من اضطهاد الموحدين وسكن مع أسرته بفاس قبل أن ينزح عنها الى مصر ، كما يذكرون انه كان يحفظ القرآن ويتظاهر بالاسلام . ولا غرابة فى كون موسى بن ميمون يحفظ القرآن لان التوراة والقرآن

(1) اندرى شراقي : تاريخ الديانة اليهودية ، سلسلة «ماذا اعرف» باريس 1964 ص 97 .

(2) نفس المصدر صفحة 102 .

(3) كان فى عصر الموحدين .

متحدان كما قلنا في أمور كثيرة رغم اختلافهما في الجزئيات والتفاصيل . وقد ورد في بعض المصادر ذكر شخصية أخرى عرفت بعلم واسع واطلاع كبير وهي خلوف اليهودي ويضيف نفس المصدر أن خلوف هذا كان من أساتذة محمد بن ابراهيم الابلي التلمساني في عصر بني مرين(4) .

تلك بصفة وجيزة أهم مميزات العنصر اليهودي في هذا العصر وأبرز مجالات نشاطه في الميادين الرسمية والثقافية والاجتماعية . ويتضح مما تقدم أن أثر هذا العنصر ومخلفاته ظهرت بشكل قوى في فاس رغم وجود اليهود في مدن أخرى مغربية كتطوان والرباط ومكناس ومراكش وذلك يرجع الى الاسباب التي ذكرناها آنفا ..

(4) عبد الكريم بن الحسنى : جامعة القرويين (الكتا بالذهبي ، الذكرى المائة بعد الالف نشر وزارة التربية الوطنية 1954) صفحة 166 نقلا عن ابن القاضى جلوة الاقتباس .

الحياة السياسية العامة

حضع المجتمع المغربي في هذا العصر كالعصور التي سبقتة أو لحقته لقانون النشوء والارتقاء ، فشهد قيام دولة وسقوط دولة أخرى . دولة تنشأ وترقى وتتطور ، ودولة تشيخ وتعجز فتحتضر وتموت . ذلك ما عاشه المغرب في هذه الفترة الأولى التي تبدأ بقيام دولة مرين وسقوط دولة الموحدين . وليس الامر بسيطا كما قد يتبادر الى الذهن وكما يتصوره بعض المؤرخين الذين كثيرا ما يغفلون هذه المرحلة الانتقالية نظرا لبعدهم عن الاحداث وتأثرهم بالالفاظ التي كثيرا ما تضلل القارئ وتخفى عليه ما تتضمنه من قوة وضعف وإيجابية وسلبية ، وحيوية وشدة انفعال ، وتذهب به بعيدا عن الواقع الاجتماعي وتوقعه في الجفاف اللفظي ، وبذلك يميل الى الاختصار والتجريد الذي كثيرا ما يفسد الحكم ويشوهه ؛ ونحن لا نريد من المؤرخ أن يتأثر بعاطفة أو بأخرى ، فذلك يتنافى والبحث العلمي وانما نريد أن ينتبه الى هذه الظاهرة النفسية وقيم لها وزنا ويتخلص من تأثيرها فيقف منها موقف الحياد ليبنى أحكامه لا على ما تمليه الالفاظ والعبارات المختصرة وما قد توحى به هذه الالفاظ من ذكريات بل كذلك على نتائج الجهود التي يبذلها لتفهم الاوضاع وسبر غورها ومعرفة ما يحركها وما يتفاعل في خلقها من عوامل نفسية واجتماعية واقتصادية . ذلك أن كثيرا من المصادر التاريخية لا تعبر لهذه الفترة الانتقالية أهمية كبيرة ، رغم خطورتها وشدة تأثيرها في الاوضاع السائدة ، فتكون النتيجة الاختصار والايجاز والتطلع السريع الى معرفة خصائص ونتائج الدولة الجديدة ؛ مع أن الامر ذو أهمية كبرى ، لا بالنسبة فقط للدولة الناشئة والدولة المنهارة ، بل كذلك بالنسبة للبيئة التي تكون مسرحا لهذه الحوادث . هناك صروح تشيد وأخرى تهدم ، هناك عادات تتزحزح وأخرى تتكون ، وبعبارة أوجز هناك صراع بين الحياة والموت . ولقد حملنا على اثار هذه الملاحظات ما رأيناه من اختصار وتحريف في وصف هذه المراحل الدقيقة من تاريخ المجتمعات الاسلامية على العموم والمجتمع المغربي بوجه أخص ، وحرصنا على الالمام بالعناصر السلبية والإيجابية في الموضوع والاسباب القريبة والبعيدة التي كثيرا ما تكون وراء الاوضاع والاحداث والذي يهمنا هنا أن مثل هذه المراحل كثيرا ما تكون هي الاساس في خلق مجتمع جديد ، ترسم له الخطوط التي يسير عليها في مستقبله ولا تحيد عنها الا في جزئيات أو ميادين خاصة لان المجتمع في بدايته كالطفل في حداثته سنه يتأثر الى حد بعيد في حياته المقبلة بما عاشه من أحداث في صباه وما يتكون فيه من عادات سلبية وإيجابية في هذه المرحلة من حياته التي تترك فيه من العوامل ما سيطلع شخصيته وما سيتحكم في سلوكه الى درجة معينة . وليس

هناك اذن جد فاصل ، كما فى الاشياء المادية المحضة ، بين دولة قديمة وأخرى جديدة قامت على انقاضها ؛ وانما هناك صراع بين قوة آخذة فى الهبوط وأخرى فى طريق الصعود ، تشتركان معا فى هذه العملية فى نفس الزمن والمكان ، رغم بروز القوة الجديدة فى مسرح السياسة والنفوذ الرسمى . فقيام دولة بنى مرين منذ بداية القرن الثالث عشر ليس معناه انمحاء دولة الموحيدين نهائيا وخلق الميدان لبنى مرين وحدهم ، ذلك ما لا يقله العقل ، وما لا يسمح بتصوره علم الاجتماع . وانما هناك اختفاء دولة من الميدان الرسمى وحلول دولة محلها فيه . أما الصراع فيبقى دائما مستمرا فى النفوس وفى العواطف والتفكير ، والا فكيف يعقل أن نتمحى عادات تكونت منذ قرون وتروى من الازهان والعواطف والوجدان لتحل محلها - بين عشية وضحاها - عادات أخرى أتت بها عناصر جديدة استولت على زمام الحكم .

وعلى كل ، فالمرحلة الانتقالية التى عاشها المغرب فى هذا العصر ، مرحلة كان لها شديد الاثر فى تاريخه السياسى والاقتصادى والاجتماعى بصفة عامة . وهى مرحلة استغرقت حسب المؤرخين أى حسب الاعتبار السياسى الرسمى نصف قرن على وجه التقريب أى منذ ما قبل 2213 الى سنة 1269 وهو التاريخ الذى قضى فيه السلطان أبو يوسف يعقوب على مقر سلطة الموحيدين ابتداء من سقوط مراكش . أما حسب الواقع الاجتماعى والنفسى فسلطة بنى مرين بدأت قبل سنة 1213 ، بدأت أيام الموحيدين ، بل قبل قيام هذه الدولة التى كثيرا ما كانت تقاوم العناصر الزناتية وتحاول بشتى الوسائل استمالتها ، نظرا للمؤامرات التى كانت تحيكها ضدها ؛ بل هناك ما يؤكد أن جذور هذه الدولة المرينية تمتد الى القرن العاشر والحادى عشر حيث كانت قبائل زناتية تصول وتجول فى ربوع المغرب ، مهدة الطريق بصفة لا شعورية لدولة بنى مرين التى سيطرت على الحكم بصفة رسمية اثر تفكك امبراطورية الموحيدين وانقسامها . ويحدثنا التاريخ أن هذه القبائل الزناتية التى أشرنا الى وجودها فى المغرب ما بين القرن العاشر والحادى عشر كان لها من النفوذ والقوة ما جعلها تشكل امارتين مستقلتين بالمغرب وهما امارة مكناسة وامارة مقلوة .

ونتيجة لما سبق أن ذكرناه ، اشتد الصراع بين القوات المنهارة والقوات الصاعدة حيث دام أكثر من نصف قرن ، الشيء الذى تسبب فى كثرة الفتن والحروب والاضطرابات الداخلية التى عصفت بالبلاد وهزت أركانها وزحزحت أمنها وأحدثت تغييرا فى نظمها ، مما كان له أثر على حياة هذه البيئة التى عاشت فى جو من الاستقرار والسلم النسبى على عهد الموحيدين . لم يكن من السهل القضاء على قبائل المصامدة التى ظلت تقاوم وتصارع الى آخر لحظة من حياتها السياسية الرسمية التى انتهت بسقوط مراكش بعد تأسيس فاس الجديدة ، وحتى بعد سقوط مراكش فى يد أبى يوسف يعقوب بقيت العناصر المصمودية منبثة هنا وهناك ، ومعتمدة بالجبال ،

منحينة الفرص ومتروكة الحوادث ، تعمل في الخفاء كائنة وناقمة . وما استقرار بني مريين في فاس حسب بعض المؤرخين الا احتياط وخوف من الجبال المطلة على المدينة والتي التجأت اليها قبائل مصمودية كثيرة .

وقد كان على بني مريين أن يواجهوا كذلك قوة أخرى ويحسبوا لها حسابها ، وبقاء لشرها ، ورغبة في استخدامها لصالحهم . ذلك أن قبائل الاعراب المنتشرة في بلاد افريقية وفي المغرب الاوسط دخلت على يد الموحدين الى المغرب الاقصى واستقرت في نواحي كثيرة منه لاسيما في السهول والاماكن الصحراوية . فكانت بطبيعتها البدوية وبحكم تكوينها العام وسلوكها الخاص ، وبوصفها عنصرا أجنبيا ، كانت بحكم هذه العوامل كلها حدثا اجتماعيا له عواقبه وأثره في المجتمع المغربي . فالمشكلة اذن كانت مشكلة اندماج ، تحتاج الى وقت والى عملية تكيف قد تكون سهلة أو صعبة حسب الظروف والملابسات المحيطة بميدان التفاعل والتعايش ، وإذا علمنا أن المغرب كان يعيش نمطا عيشة استقرار قبل دخول هؤلاء الاعراب الى ميدان الاجتماع والسياسة ، وان هذه القبائل لم تعرف سوى التنقل والترحال من مكان الى آخر ، أدركنا خطورة الموقف بالنسبة لبني مريين أنفسهم وللبيئة المغربية على العموم . فكان على الرؤساء الجدد اذن أن يتخذوا العدة ويحتاطوا لحل هذه المشاكل الاخرى وذلك حفظا على سلامة سلطتهم ومراعاة للتوازن الاجتماعي العام ، واتقاء كل ما من شأنه أن يمس بعروشهم من قريب أو من بعيد . كان عليهم اتخاذ هذه الاحتياطات رغم ما كان بينهم وبين القبائل البدوية من تشابه في المزاج والطبع ، كما أسلفنا ، وتوافق في كثير من العادات والاخلاق ، وانسجام في ميادين السلوك العام .

ومن العوامل الاخرى التي زادت في توتر الحالة العامة قيام دولة بني عبد الواد بالقطر الشقيق ، وتعتبر هذه القبيلة الزناتية اعدى اعداء لبني مريين (I) ويرجع عداه كل منهما للآخر منذ زمن طويل الى العصبية القبلية ولاسباب اقتصادية لا مجال للتفصيل فيها هنا . لقد نشب بين الدولتين نزاع مسلح استعمل منذ قيامها الى النهاية فكان لذلك اثره في سياسة المغرب الداخلية والخارجية وفي حياته الاجتماعية والاقتصادية على العموم اذ أن كثيرا من الحروب والفتن قامت بالمغرب بسبب وجود حدو دائم على الحدود الشرقية المغربية . فكانت النتيجة حدوث اضطرابات متوالية نظمت من بني مريين ومن الشعب المغربي مجهودات بشرية ومادية لمجابهة هذه الواجهة الثالثة وللقضاء على هذه الفتنة التي أصبحت تهدد الدولة الجديدة وهي لم تستقر بعد بصفة نهائية .

(I) من نتائج ذلك تأليف كتاب دوفة النسرير في محاسن بني مريين ومساوي بني عبد الواد لابن الأحمر .

ثم بحكم طبيعة البيئة المغربية ، وبحكم الجوار وعوامل دينية صرفة أصبحت من المعايير السائدة في المجتمع المغربي لتقييم الاوضاع الجديدة ولتحديد مشروعية الدول القائمة والحكم على مدى استجابتها لرغبات الشعب العميقة ، بحكم هذا كله وجدت الدولة المغربية نفسها في وضع يفرض عليها ، تكيفا مع البيئة الجديدة ، ان تجابه مشكلا آخر لا مفر منه ، ولا تملص من تحمل أعبائه ، مهما كانت الظروف ومهما كلفها ذلك من ثمن وتضحية ؛ كان عليها اذن أن تفتح المعركة في هذه الواجهة الاخرى حيث كانت حرب الاسترداد الاسبانية على أشدها ومملكة غرناطة في خطر شديد ومستمر . فمئذ تسلط بنو مرين على الحكم ووقعوا تحت الضغط الاجتماعي شعروا بثقل الوزن وأدركوا أنها مسؤولة سيضيفونها الى مسؤولياتهم الاخرى ، حفظا على مركزهم وتأكيذا لسمعتهم . منذ بداية أمرهم وجه اليهم النداء التقليدي وتلقاه أبو يوسف يعقوب وهو لم يستكمل بعد تصفية القواعد المصبودية ، وهو ما زال في هجوماته ضد الفتن الناشئة هنا وهناك وضد المؤامرات التي كثيرا ما تقوى في مثل هذه المراحل التي تجتازها للشعوب ، وبالفعل أخذ السلطان أبو يوسف يستعد للمعركة منذ هذا التاريخ ويجهد لها الطريق ويرسم لها الخطط حتى اذا ما جاءت سنة 1275 وجدته على أتم استعداد ليلتحق بجيشه الذي عبر البحر الى العدو الاندلسية حيث تنأهب جيوش الفريقين لخوض غمار المعركة .

وهكذا يتضح لنا أن هذه المرحلة الانتقالية التي عاشها المغرب في هذا العصر والتي أبرزنا بعض مظاهرها ، كانت خطيرة وقوية الاثر في سياسته الداخلية والخارجية ، اذ فيها تحددت معالم هذه السياسة واتضح خطوطها وبرز كثير من أهدافها ، كما كان من الممكن توقع نتائجها سواء في الميدان الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي على العموم حتي أصبحت كثير من الوقائع التي حدثت فيما بعد والتغييرات التي طرأت على الانظمة والعادات والتقاليد نتيجة لهذه المقدمة التي رسمت الخطوط الرئيسية وفتحت أبواب مجالات بقيت مفتوحة الى آخر أيام بنو مرين وخلقت أوضاعا كان لها نتائج قوية في مستقبل حياة المغرب الثقافية والاجتماعية . ألم تكن هذه الحروب والفتن والاضطرابات السياسية والاضطهادات الدينية خليفة بتحريك العواطف وبايقاض الشعور وخلق ردود فعل نفسية خاصة واجتماعية تؤثر في الميدان الادبي وتؤثر به ؟ ألم تكن سببا لفتح أبواب المغرب على مصراعيها لاستقبال عناصر أجنبية لها ثقافتها الخاصة (1) ولها دينها (2) ؟ ألم تكن فرصة لاتصال أهل المغرب الاقصى بأهل المغرب الاوسط والادنى والشرق العربي على العموم ؟

(1) الاندلسيون .

(2) اليهود والمعادون .

وبعبارة أدق ألم يكن لها في ميدان الادب تأثير مباشر أو غير مباشر ؟ ذلك ما سنراه في موصعه بحول الله .

وتلي هذه المرحلة الانتقالية مرحلة أخرى أطول (I269 – I358) عرف فيها المغرب على يد بنى مرين كثيرا من الاستقرار وتطورت فيها العادات واستفحلت فيها المشاكل التي برزت الى الوجود في المرحلة السابقة . لقد بذلت فيها أكبر التضحيات وأعظم الجهود لاقرار الامن وتركيز أسس الدولة وتحقيق الاهداف التي رسمت من قبل ، وتعتبر هذه المرحلة من الناحيتين الزمنية والمكانية وحسب النتائج المستخلصة أطول المراحل التي قطعها المغرب في هذا العهد وأغناها أحداثا وأشدها تركيزا وأكثرها عمراناً وأرقاها ازدهارا . يكفيك أن أعظم ملوك بنى مرين عاشوا فيها وإن أعظم المؤسسات والمنشآت العمرانية يرجع تاريخ تأسيسها الى هذا العهد، وإن أهم المنجزات وأقوى العمليات العسكرية والاتصالات الدبلوماسية حققت أثناء هذه الفترة . ففيها تدخل بنو مرين في الاندلس تدخل مباشرًا ومستمرًا كانت له نتائج قوية بالنسبة لعمر غرناطة ، آخر قاعدة اسلامية بالاندلس ، وفيها قاموا بمعارك طاحنة ومتوالية ضد بنى عبد الواد بتلمسان والمغرب الاوسط . كما بسطوا سلطانهم على مملكة الحفصيين على يد أقوى ملوكهم السلطان أبى الحسن الذي حقق انتصارات كبيرة على الصعيدين الافريقي والاندلسي حتى كان الناس يظنون أن الامبراطورية الموحدية قد بعثت على يد هذا السلطان . وفي الميدان العمراني شهد المغرب في هذه المرحلة تأسيس عدد كبير من البنايات الضخمة الجميلة والمؤسسات الدينية والاجتماعية المزخرفة التي بقيت بعض معالمها الى الآن شاهدة ، ناطقة بعظمة هذه الدولة وبالمجهودات الجبارة التي بذلتها في هذا الميدان .

أما في الميدان الثقافي ، فقد يبرز في هذه الفترة كبار الفقهاء والمحدثين وأشهر المؤرخين وعلماء النحو واللغة كما ظهر عدد لا يستهان به من الادباء ، كان من انتاجهم أمهات الكتب التي استفاد منها أهل المغرب وأهل الشرق على السواء ولا يزال الطلاب والقراء الى اليوم في بعض معاهدنا ينهلون منها ويستضيئون بنورها . بكفينا هنا أن نشير الى أن ابن اجروم صاحب الاجرومية في النحو وابن مرزوق وإبى زرع وابن الشاط وإبن بطوطة وإبن رشيد كلهم عاشوا وانتجوا في هذه الفترة التي نصفها .

على أن الحالة لم تدم طويلا كما هي في عزها ومجدها وإن الزمان ، كما قالوا ، بخيل لا يوجد بمثله في كل الظروف والمناسبات ولأن قانون التطور يسير سيره الحتمي لا يراعى في ذلك سوى الاحداث وتفاعلها وتكاملها وتناقضها ، فينزل بأمله من قمة مجدها وذروة رقيها الى درجة تنحط فيها وينطفئ نورها . ذلك ما وقع لدولة بنى مرين في هذه الفترة الاخيرة التي تبتدىء بنهاية عهد أبى عنان وتستمر الى أواخر سنة 1465 التي شهدت سقوط بنى مرين وزوال نفوذهم الرسمي . إلا أن الامر ليس معناه انحطاط الدولة نهائيا في هذه الفترة وانقضاء كل شيء من سلطتها

الزمنية والروحية وتوقف آثارها الثقافية والحضارية ، ذلك ما يتنافى وأسس علم الاجتماع والقوانين التي يخضع لها فيما يرجع لتطور الامم والمراحل التي تقطعها في ازدهارها وانحطاطها . ذلك أن الدولة استمرت في مباشرة مهامها في الداخل والخارج وحققت انتصارات في ميادين مختلفة وبقي نفوذها سائدا . الا أن كثرة الفتن الداخلية والمؤامرات والدسائس الوزارية والهجمات الخارجية والتدخلات الاجنبية وكوارث طبيعية وأمراض اجتماعية خطيرة ، كل ذلك أصابها في الصميم وجعلها تتعثر في طريقها وحال دون تحقيق كثير من أهدافها . فكان الضعف وكان الوهن ، وكانت الانهزامات المتتالية في الداخل والخارج . يكفيك برهانا على ذلك أن بنى الأحمر ، بعدما كانوا يستنجدون ويستعطفون ، ويستفيدون من قوة أبطال بنى مرين ، بعد هذا كله ، أصبحوا في آخر هذه الفترة يتأمررون على الدولة ويتدخلون في شؤون المغرب (1380 - 1395) تدخلوا سافرا ، يعزلون هذا وينصبون ذلك وفقا لمصلحتهم وأغراضهم الشخصية . ولا أدل على ذلك من إبعاد السلطان أبي الربيع وتعيين أبي العباس مكانه ومن احراق لسان الدين ابن الخطيب بفاس ، كل ذلك دبر ونفذ بإيعاز وأمر من السلطان محمد الغني بالله .

ويكفيك حجة كذلك أن بنى مرين في آخر أمرهم أصبحوا أداة طيعة في يد وزرائهم يفرضون عليهم إراداتهم ، إن نفذوها نجوا ، والا ، أصابهم ما أصاب السلطان أبا سعيد عثمان الثالث والسلطان عبد الحق المريني على يد الوزير أبي زكرياء

والذي يهمننا ان نسجله هنا بالنسبة لموضوعنا هو أن المغرب ، نتيجة لما عاشه في هذا العصر من أحداث واضطرابات وفتن في الداخل والخارج وما حصل عن ذلك من ردود فعل نفسية واجتماعية ، أصبحت له علاقات مختلفة مع الدول المجاورة ، مع الشرق ودول افريقية أفاد منها رغم ما منى به من انهزامات سياسية واضطرابات اجتماعية استنزفت قواه وأضعفت امكانياته المادية والبشرية مع الاندلس .

لقد فتحت هذه العلاقات أبواب المغرب كلها في وجه الاندلسيين الذين نكطروا على مدنه وقراه في هذا العصر ، فكان ملجأ سياسيا يقصده كل من نكب وأصيب من أجل أفكاره ونزعاته السياسية ودارا للضيوف يلقون فيها كثيرا من الترحيب والاکرام ، ومقرا للسفارات المتواردة عليه ، كما كان مسكنا لكثير من العناصر التي أرادت أن تستظل بظله ؛ فكانت النتيجة أن أصبح التبادل ظاهرة مثمرة استطاع بفضلها كثير من أهل المغرب أن يطلعوا على القطر الاندلسي ويشاهدوا ما يتوفر عليه من امكانيات طبيعية وبشرية وما يزر به من مظاهر الحضارة والرقى ، فكانت فرصة ثمينة سمحت لهم باجراء اتصالات كثيرة مع ذوى العلم والمعرفة وأصحاب الفن والحرف المختلفة ، وتلك نتائج كان لها صدى كبير كما سنرى في ميدان (الادب والثقافة بوجه عام) . ولقد كان من نتائج هذه الاحداث ونوع السياسة التي سلكها بنو مرين أن اتصل المغرب اتصالا قويا بالمغرب الاوسط وبالمغرب الادنى،

فالتدخل بل القضاء على دولة بنى عبد الواد كان الهدف الرئيسى لهم ، اذ العداوة كانت قديمة لم تغلب عليها الايام بحيث استعملت كل من الدولتين جميع الوسائل وسلكت شتى أنواع السلوك للقضاء على الاخرى ، فدبرت المؤامرات وحيكت الدسائس ونفذت جميع أنواع الحيل والمكر والخديعة ، تحقيقا للانتصار . فكانت الغلبة لاسباب لا سبيل لذكرها هنا لبنى مريـن الذين استطاعوا ، بعد خسائر كبيرة وتضحيات جسيمة ، القضاء على بنى زيان وضم قطرهم الى المغرب الاقصى ، ثم كان التدخل النهائى لآبى الحسن فى تونس حيث استطاع بفضل جهاده ودهائه أن يضم هذا القطر الآخر الى باقى اجزاء المغرب العربى ، رغبة فى تحقيق الوحدة الكبرى ، وجمع الشمل . ومهما كانت النتائج السياسية لهذا الانتصار ، فالذى يجب تسجيله هنا أن عددا كبيرا من فقهاء المغرب وعلمائه استطاعوا خصوصا فى عهد السلطان آبى الحسن أن يجروا اتصالات كثيرة مع رجال الفكر فى افريقيا وهم مشهورون آنذاك بالنبوغ والمعرفة الواسعة وبالتطلع فى العلوم الشرعية وفى الفقه فاستفادوا من هذا الاتصال وأفادوا وتركوا صدى منه فى ميادين خاصة سنعرفها فى مكان آخر .

ومن العوامل التى ساعدت على اقامة علاقات بين الشرق عموما الانتصارات العظيمة التى حققها السلطان أبو الحسن فى تونس أو غيرها ، فقد كان لها صدى قوى وأثر عميق فى الاوساط الشرقية وفى مصر على الخصوص ، حيث أصبح السلطان محمد الناصر ابن قلاوون يتلقى السفارات المغربية حاملة كتابا خاصا من السلطان المرينى مع هدايا ثمينة كالمصاحف المذهبة وأشياء أخرى نفيسة ، وكثيرا ما كانت تبعث هذه السفارات بمناسبة سفر الحجاج المغاربة أو رغبة فى اقامة علاقات طيبة أو لاسباب خاصة كسفر والدة السلطان آبى الحسن الى الديار المقدسة . على أن المهم فى هذا هو تنقل المغاربة ، وقد كان ملوك بنى مريـن يراعون فى تعيين الوفود اختيار الشخصيات التى كانت تتمتع بنفوذ معنوى وروحى وثقافة متينة (X) وبذلك يقع الاتصال والاحتكاك والتبادل فى الافكار وفى الآراء وتقع المناظرات والمناقشات التى ترجع بفائدة كبرى على الطرفين .

الحياة الدينية فى عصر بنى مريـن

بذل الموحدون أقصى ما يمكن من الجهود وتفننوا فى الوسائل المختلفة للقضاء على المذهب المالكى وعلى فقهاء المذهب المالكى وعلى انصاره فقاموا بحملة كبرى تعسفية ضد من كان يعتقد ، أحرقوا كتب الفقهاء على مرآى ومسبح من أفراد

(X) كلف الكاتب ابن مرقوق من طرف السلطان ابى منان بالاتجاه الى تونس قصد تحقيق مشروع الزواج من أخت السلطان الحفصى .

الشعب ، للقضاء على المذهب ، ثم للقضاء على علم الفروع ، تهيدا لنشر دعوتهم
اندينية وتثبيتا لمركزهم السياسى ، فكان الصراع ، وكانت المعارضة وكانت
ردود الفعل هنا وهناك ... ذلك أن المذهب المالكي ، فى نظره ، أصبح جافا ، خاليا
من محتواه الصحيح ، ومبنيا على القشور ، وعلى الشكليات بعيدا عن دعائيه
الاصليتين القرآن والسنة ، اذ أصبح الفقهاء ، وهم كثيرون ، يشتغلون بالتصنيف
والتلخيص ، والتجريد ، تاركين الاصول ومهتمين بالفروع ، فأصبحوا تبعاً لذلك
محتكرين للعلوم الدينية ، ان صح التعبير ، مستبدين بأرائهم وأفكارهم فاضيين
سلطتهم الروحية والمادية على الرؤساء وعلى غير الرؤساء من أفراد الشعب ، فاحتلوا
المناصب المالية ووقفوا مواقف عدائية ضد من كان يخالفهم فى الافكار والآراء .

الا أنه رغم هذه الحملات المنظمة . وهذه التعسفات الشديدة والتدابير
النظرية والعملية للقضاء على المذهب المالكي وعلى أنصاره ، فان الحالة سرعان ما
رجعت الى ما كانت عليه من قبل ، فخرج المذهب من هذه المحن منتصرا ومن هذه
المعركة التى صمد ضدها قويا . ذلك أن بنى مرين بمجرد استيلائهم على الحكم
قد أعادوا للشعب مذهبه الرسمى ، وعملوا على توطيده وتدعيم أركانه ولم يجدوا
فى ذلك صعوبة ولا معارضة جذيرة بالذكر . لان الشعب كان قد اختار مذهبه منذ
ما قبل المرابطين وانسجم مع مقتضياته ، وتكيف مع متطلباته ، لاسباب اجتماعية
لا سبيل لتحليلها هنا ، رغم ظهور مذاهب أخرى لم يكتب لها النجاح ، وتيارات
عقدية وسياسية كانت تعارضه وتعرقل سيره ، كما أن المذهب الاشعرى من حيث
العقيدة ظل هو الآخر سائدا ، يرعاه ملوك بنى مرين ويدين به الشعب كله
بصفة عامة .

لم يكن بنو مرين ، كما هو معلوم ، أصحاب فكرة جديدة من حيث الفقه أو
فى العقائد أو أصحاب دعوة اصلاح يقومون بها ، كبنى عبد المومن سابقا ، لتركيز
سلطتهم ولتعديل موقفهم واستيلائهم على الحكم ، وانما انتصروا فى هذه الناحية على
ارجاع الامور الى نصابها استجابة لمطامع الشعب العميقة ، ولكسب النفوذ المعنوى
والروحي فى هذا الميدان الذى كان يعتبر من العوامل الحساسة لتدعيم أسس الدولة ،
فبنو مرين لم يقصروا ولم يتقاعسوا ، بل بذلوا ما فى استطاعتهم فخدموا الاسلام
خدمة شهدت بها مواقفهم ومآثرهم .

لقد زعم بعض المؤرخين أنهم أرادوا تعويض النقص الذى كانوا يشعرون
به بالنسبة الى أسلافهم نظرا لكونهم لم يأتوا بجديد يبنون عليه سلطانهم . أما نحن
فنرى لهذا الحماس الدينى تعليلا آخر راجعا الى ظروف اجتماعية ليست سياسية .
ذلك أن الدول المتعاقبة على حكم المغرب ، اذا كانت فى أغليبتها دخلت بفكرة جديدة
فى بداية أمرها لتأييد موقفها ، فان بنى مرين لم يكونوا فى حاجة الى هذه البدعة ،
بحكم ظروفهم السياسية والاجتماعية السائدة فى المغرب بل كانوا أشد قوة وأكثر
استعدادا لمحاربة خصومهم كما كان الجو مواتيا لهم . ان بنى عبد المومن ، بسبب

الانهزام الكبير الذى منوا به فى الاندلس ، ضعفوا واستكانوا ، وانهارت قواهم ، وتفككت أجزاء امبراطوريتهم ، وبذلك خلا الجو لخصومهم ، فاستغلوها فرصة للاطاحة بهم والاستيلاء على ملكهم . أما بنو مرين ، بوصفهم أهل بدو وترحل فى المناطق الصحراوية وغيرها ، فكانوا أقوياء أشداء متعودين على المغامرات والشدائد والمحن ، فلم يكن هناك من حاجة الى خلق بدعة يتخذونها وسيلة سياسية نقلاب النظام . أما تحديسهم للدين وتعصبهم لقضايا الاسلام ، فلم يكن ، ظنا منا ، بدعة ابتدعوها ولا تعويضا لنقص فيهم . فالامر اذن داخل فى دائرة مثل عليا ومقاييس اجتماعية ، وقيم روحية تشبعوا بها فكونت عقليتهم وروحهم وسلوكهم الفردى والاجتماعى .

ومهما كانت الاسباب ، ومهما اختلفت الآراء والاهداف التى كانوا ينشدونها ، فيبنو مرين قاموا كما أسلفنا بخدمات جليلة فى سبيل الاسلام . فما ان استقروا وخلصت لهم أمور البلاد حتى هبوا يدافعون عن اخوانهم المسلمين بالعدوة الاندلسية حيث كان الاسلام وجها لوجه وفى صراع مستمر مع المسيحية الاسبانية حيث أصبحت القواعد الاندلسية تتساقط فى يد النصارى القائمين بحرب الاسترداد . لقد خاض أبطال بنى مرين معارك طاحنة وحروبا مستمرة ، خاضوها بأنفسهم ، وبجيوشهم وبأساطيلهم منذ تولوا أمر البلاد الى أن أشرفوا على الهلاك وأصيبوا بما تصاب به سائر الدول عندما تصل الى مرحلة معينة من شيخوختها . فكانت الغلبة لهم كما كانت عليهم حسب الظروف . لقد استنزفوا قواهم وتركوا دماءهم وضجروا بكل نفيس لديهم ، غير طامعين فى مال أو فى كسب سياسى كما يظن البعض . وإنما قاموا بذلك للدفاع عن حمى الدين الاسلامى المهدد فى هذا القطر . ومن المعلوم تاريخيا أن الفضل فى بناء مملكة غرناطة واستمرار سلطانها أكثر من قرنين راجع الى التدخلات الديبلوماسية والعسكرية التى قام بها بنو مرين فى الاندلس . ولسم يكونوا وحدهم فى هذه الحروب وهذه الجهود المادية والروحية ، بل كان من ورائهم مختلف طبقات الشعب من علماء وموظفين وجنود ورؤساء قبائل . فالدفاع عن حمى الدين كان فى نظرنا هو الهدف الوحيد الذى كان يبرر هذه التدخلات الحربية وهذه الجهود المضنية .

أما فى الداخل فلم يكن موقف بنى مرين من الشؤون الدينية بأقل منه حماسا ونشاطا فى الاندلس فهنا نجد أعمالا بارزة ومظاهر متعددة ومختلفة لهذا السلوك الروحى . فكثرة المساجد والمدارس التعليمية واقامة الزوايا كانت ترمى الى نفس الغاية ، كما أن تنظيم وفد الحجاج والاعتناء بسفرهم فى كل سنة ، وإرسال مصاحف قرآنية الى الاماكن المقدسة لدلالة على مدى تشبثهم بروح الاسلام وبتعاليمه ، وعملهم لرفع رايته فى الظاهر والباطن ، فقد ورد أن بنى مرين كانوا لا يشترطون فى موظفيهم ، كمتياس ، سوى اخلاصهم لتعاليم الاسلام بصفة عامة . ذلك كان شرطا أساسيا قبل تعيينهم وتقليدهم مناصب الدولة ، بسيطة كانت أم عالية ، فلم تكن جنسيتهم من الشروط ولا من المقاييس التى يرجع اليها فى هذا الباب ، اذ كان يوجد بالمخزن

المريني موظفون مغاربة وأندلسيون ومشاركة ، ويؤكد هذه الظاهرة ما رواه بعض المؤرخين في وصفهم للجيش المريني الذي كان على جانب كبير من التربية الاسلامية التي كانت تفرض عليه وهو مسافر أداء مهمته واقامة صلواته بقيادة ملوكه وبمجرد سماعه اذان الصلاة ولقد أوردت بعض المصادر التاريخية (I) ان من بين الوظائف التي كانت تسند لمن هو أهل لها وظيفة صاحب الصلاة وهي مهمة دينية محضة يتولاها صاحبها بظهير من السلطان ويتقاضى عليها «مرتبا موسعا» .

بهذا السلوك وبهذه المواقف الدينية كان الشعب يحكم على هؤلاء الموظفين ويفقد منزلتهم ويزيد في احترامهم وتقديسهم ، فكان التجاوب بينه وبينهم على هذا الاساس ، على هذه الرابطة الروحية التي تربطهم وتجعلهم منسجمين متجهين اتجاهها واحدا ، هو خدمة الاسلام خدمة مستقيمة واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ولا تعقيد ولا اشكال .

ولا أدل على هذه الروح الدينية المتغلغلة في النفوس وهذا الاتجاه العلمي السائد من كثرة الكتب المؤلفة في هذا العصر ، في التفسير وفي الفقه وفي الحديث ، وهي اذا قيسست بغيرها من الكتب التي ألقت في علوم أخرى ظهرت سائدة مهيمنة ، وافرة العدد ، ومتشعبة الفروع حتى كادت تنفرد وحدها بالميدان وحتى أصبحت الحركة العلمية تقريبا مرادفة للحركة الدينية في هذا العصر . ان أشهر الكتب وأقواها أصالة ترجع الى هذا العصر الذي كثرت فيه الشروح والتعليق والهوامش . ونظرا لكثرة هذه الكتب وضيق المجال عن ذكرها ، فاني اكتفى هنا كمثال على ذلك ، بالإشارة الى القائمة التي أوردها الاستاذ كنون في كتابه النبوع (صفحة 123) عن هذه المؤلفات وعن أنواعها واتجاه أصحابها ففي ذلك دليل على ما لاحظناه من خلال تتبعنا لهذا الاتجاه السائد في هذا العصر .

والى جانب هذه الحركة العلمية الدينية التي كثيرا ما تصطبغ في نظر البعض بصيغة نظرية محضة بمعنى ان طبقة خاصة من الطلبة والفقهاء ورجال الدين عامة هي التي كانت مصدرا لها - وان الشعب كان يقوم فيها بدور المتلقي والمتأثر في أغلب الاحيان ، كانت هناك حركة دينية أكثر التصاقا بالشعب وأكثر اثارة لانفعالاته واستجابة لنزعاته الفطرية ، تلك هي الحركة الصوفية التي لعبت دورا خطيرا في حياة الشعب المغربي في هذا العصر ولا سيما في آخره . اتصفت بهذه الحيوية وهذه القوة لانها كانت بسيطة في بدايتها وعملية أكثر منها نظرية ، بعيدة عن التكلف ، لا تحتاج الى مجهود فكري ولا عناء تلقيني ، اذ المتصوفة قبل كل شيء رجال يعبدون الله ويكثرون من ذكره ، ومن الصلاة في الليل والنهار ويقومون بحركات خاصة ، تجعلهم في موقف خاص ، وتؤهلهم للخشوع ولل اتصال الروحي بالاله (الفناء) زاهدين في

(I) محمد التوني ، «نظم الدولة المرينية» مجلة البحث العلمي ، الرباط عدد 2 سنة 1964 ،
صفحة 211 .

الدنيا بكل نعيمها وملذاتها - كان هذا السلوك الديني اذن سلوكا عمليا صرفا يتناسب مع بساطة الشعب وصفاته وخلو ذهنه من عادات وتقاليد يتخذها الفرد عن طريق الدرس والتلقين . وبذلك استطاعت الحركة ان تنشط نشاطا واسعا لاسيما في ضواحي المدن حيث يتصل المريد بشيخه اتصالا مباشرا وحرا وحيث يتم التفاعل بينهما على اساس عبادة الله والتفاني في حبه والتطهر من رجس الجسد ومن الرذائل التي علقت به ، ويذكر بعض المؤرخين ان الزوايا بدأت تنتشر في هذا العصر ، لاسيما في أواخره . لقد انتشرت بالفعل هذه الزوايا وتوسعت دائرتها ، لكن هذا الانتشار لم يكن بعيدا عن تأثير بني مرين ، خلافا لما زعمه بعضهم (X) ، ولم يكن يخالف رأيهم ولا اتجاههم ، لان الدولة كما رأينا آنفا ، كانت تعمل جاهدة ومخلصة لنفس الغاية ولنفس الاهداف ، كما كانت ترعى هذه الحركة وتحيط قادتها بعنايتها الخاصة . ويكفي مثالا على ذلك ان السلطان أبا عنان كان يتطرح على مقر الشيخ سيدي ابن عاشر بسلا على يحظى بمقابلته وينال من بركته ، لقد جاء في مصادر تاريخية متعددة أنه كان يتردد عليه كثيرا راجلا تواضعا منه وتشجيعا لرعاياه على اتخاذ نفس المواقف من رجال هذه الحركة رغم كونه لم يقلح في مسعاه ولم يتصل بالشيخ المذكور .

وجدير بالذكر هنا ان نشير الى ان هذه الحركة الصوفية التي بدأ انتشارها يقوى شيئا فشيئا في المغرب كانت تسير جنباً الى جنب مع الاتجاهات الاخرى الدينية النسائفة في نفس الوقت . ذلك ان الطريقة الاكثر انتشارا في عهد بني مرين والاقوى تجاوبا مع الشعب كانت هي الطريقة الشاذلية وهي كما نعلم اقرب الطرق الى المذهب السنني واكثر انسجاما مع التيار الشعبي الجارف في هذا الميدان . واذا تذكرنا ان مذهب مالك في الفقه هو السائد وان المذهب الاشعري في العقائد هو مذهب الامة بصفة عامة ، اتضح لنا ، رغم فروق شكلية واختلافات بسيطة مدى الانسجام والتكامل بين هذه التيارات الدينية المنتشرة في المغرب والتي كانت من أهم العوامل التي وحدت بين صفوف المغاربة في المقاومة التي نظمها ضد الاجانب (البرتغال على الاخص) .

واذا كان المجال لا يسمح لنا هنا بالدخول في تفاصيل هذه الحركة ، في نشأتها ، في تطورها وفي الظروف والملابسة لها والطرق المتبعة عند تأسيسها او مربدها ، محافظة على وحدة الموضوع ، فمن المناسب ان نلاحظ انه كان لها ، بقطع النظر عن النتائج السياسية التي أدت اليها ، تأثير عميق في نفوس الشعب وفي سلوكه ومواقفه من الناحية الثقافية والنفسية والاجتماعية وغيرها من الميادين التي لا يمكن التعرض لها هنا .

واذا كان الجو الديني في المغرب كذلك بصفة عامة ، اذا كان قد انطبع بهذا الطابع الذي وصفنا أهم مظاهره ، أفلا يكون له بصفة مباشرة او غير مباشرة تأثير

على الادب بمختلف اشكاله وانعكاسات قوية او ضعيفة في اغراضه ؟ ذلك ما سنراه في موضعه .

اما النتيجة التي نستخلصها الآن من هذه المرحلة هي ان المجتمع المغربي في عصر بنى مرين مجتمع يغلب عليه الطابع البدوي ، رغم اشاعات فاس ومراكش وتطوان ومدن اخرى ، ومجتمع ديني في جوهره واشكاله ، بمعنى ان روح الاسلام ونعاليمه بلغت من نفوس المقاربة أشدها وطبعت سلوكهم الفردي والاجتماعي ، كما حددت وكيفت عقلهم ، وما يصدر عنهم من ردود فعل عاطفية وعملية ، في اجتماعاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظرهم الى غيرهم من ذوى الجنسيات الاخرى . فكانت النتيجة هي شدة المحافظة والتمسك بالقديم الى درجة التزمت ، وذلك رغم اتصالهم بالاسبان عن طريق الاندلس ورغم العناصر المختلفة التي هاجرت من الاندلس الى المغرب وسكنت أهم مدنه الرئيسية ؛ والى جانب ذلك فهو مجتمع عربي في جوهره ومختلف مظاهره

الباب الثاني

مشاهير الادباء المقاربة

- (1) مالك بن المرحل
- (2) عبد العزيز الملوذي
- (3) ابو العباس القباب
- (4) ابن بطوطة
- (5) أبو العباس احمد زروق
- (6) ابن رشيق
- (7) ابو عبد الله محمد العبدري
- (8) ابن رشيد
- (9) ابن داود السلوي
- (10) ابن عبد الملك المراكشي
- (11) ابن البناء

شخصيات مشتركة

- ابن الخطيب
- ابن خلدون
- ابن مزوق

مشاهير الأديبة في عصر بني مرين

قبل أن ننتقل إلى التحدث عن هذه الشخصيات ، ينبغي أن نلاحظ أولا أن كثيرا من الالتباسات والأغلاط وقعت في تحديد نسب الأدياء وودهم إلى أصلهم ، ذلك أن المغرب كان يسمى في عرف القدماء المغرب الأقصى والمغرب الأدنى وحتى الأندلس. فلذا قالوا أن فلانا مغربي فليس معنى ذلك أنه من المغرب الأقصى بالضبط . فتحديد الجنسية بالمعنى الحديث لم يكن مألوفا في العصور الوسطى ولم يكن يقام له وزن كالיום لذلك كنت ترى في البلاطات عناصر مختلفة لا يشترط فيها أن تكون من المغرب الأقصى وإنما كان يتطلب منها شروط أخرى لتلج سلك المخزن . ولقد رأينا في الفصل السابق أن بني مرين لم يكن يهمهم في الشخص سوى إخلاصه للرؤساء ولاسيما اعتصامه بدين الإسلام وتعاليمه . لذلك أصبح من الصعب ، والحالة هذه ، على المؤرخين التمييز بين الجزائري والمغربي والأندلسي في تحديد الانتاج الأدبي وزده إلى معينه الأصلي . أضف إلى ذلك أن مما زاد الأمر تعقيدا تنقل سكان المغرب بالمعنى العام بين أطرافه الشرقية والغربية وعدم استقرارهم في مكان معين على العموم ، وذلك حسبما تمليه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تفرض على المواطن أن يهجر مسقط رأسه إلى مكان حيث الهدوء وحيث يطيب المقام ويلد . وهو في هذه التنقلات متصل ، محتك بغيره ، متفاعل مع معطيات البيئة المادية والاجتماعية ، عامل ، منتج انتاجا نظريا أو علميا معنويا أو ماديا . وهكذا أصبح المؤرخون القدماء يردون نسب الأديب تارة إلى البيئة التي عاش فيها وطورا إلى مسقط رأسه ولو لم يقض فيه سوى بضعة أيام ، وطورا إلى المكان الذي هاجر إليه ومات فيه رغم أن آخر إقامه فيه لم تتعد بضعة أشهر . ومما قاله ابن خزم في هذا الباب (I) (أن جميع المؤرخين من أيمتنا السالفين متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته الذي استقر به ولم يخرج عنه رحىلا إلى أن مات ... فابن مسعود كوفي وإنما سكن الكوفة خمسة أعوام وقد بقي 58 سنة بمكة .. فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا ، ومن هاجر منا إلى غيرنا فلاحظ لنا فيه والمكان الذي اختاره أسعد به) .

(I) انظر في رسالة المغرب المعداد الرابع سنة 1954 ص 38 بحثا للاستاذ عبد الرحمان القاسي تحت عنوان طنجة وآثارها .

ونتيجة لذلك ، أصبح من المتعذر التعرف على الانتاج المغربي بدقة وتحديد زمانه ومكانه بالضبط ، ونتيجة لذلك أيضا ان كثيرا من الادباء المغاربة الذين نشؤوا وترعرعوا فى البيئة المغربية وقضوا معظم عمرهم فيها تاركين وراءهم انتاجا أدبيا له وزنه وتراثا فكريا لا يستهان به ، عدوا من الاجانب لمجرد كونهم غادروا المغرب فى آخر أيامهم واعتبر انتاجهم من مخلفات بيئة أخرى لا تمت للمغرب الاقصى بصلة ، فاذا سمعت الملقى أو الفرناطى فليس معنى هذا اذن ان الامر يتعلق بانتاج لا حظ للبيئة المغربية فى تكوينه أو فى صقله ، بل يقتضى البحث والتحري فى الموضوع ان نتتبّع المنتج فى رحلته ونحن اذ نشير هذه الحقائق التاريخية هنا وهذه الملاحظات المتعلقة بالبحث الادبى ، انما نريد أن نلفت النظر الى الصعوبات الناتجة عن هذه الظاهرة فى الادب العربى عموما والادب المغربى خصوصا .

وبعد فالنتيجة التى نستخلصها من هذا العرض هى ان الادباء المغاربة كثيرون لكونهم ينتمون الى ما نسميه اليوم بالمغرب العربى والى الاندلس ثم لكون البيئة المغربية نفسها أنجبت لنا شخصيات كثيرة من الضنعب وضع قائمة لها وحصرها فى هذا النطاق الضيق . لذلك كان علينا أن نراعى ، فيما سنترجم لهم ، نسبة التمثيل الواسع والاختيار والاقتصار على عدد يتناسب ومستوى هذا البحث :-

ابن المرحل

عند ما نبحث في كتب التاريخ والادب وغيرها من مشاهير أدباء هذا العصر، نطالعنا شخصية سيطرت بذكرها وشهرتها على كثير من الشخصيات النابغة في هذا الميدان . فابن المرحل كان ولا يزال اسما تردده الالسنه وتعز به الاقلام في المحافل الادبية وكتب التراجم والتاريخ ، الا أننا ويا للأسف ، لم نعر على ما كنا نتوقعه في دراستنا لترجمته وتقصينا لمظاهر سلوكه وتبعنا لمراحل اطوار حياته ، من اخبار دقيقة ، واحداث بارزة تتناول حياته بجميع مراحلها ، وتهتم بمظاهر تفاعله مع بيئته المادية والاجتماعية . وتسجل من قريب او بعيد العوامل التي تفاعلت في تكوين شخصيته بحيث يتجلى لنا بوضوح او بصفة عامة ما كان يتصف به من صفات فكرية ، وطبيعية ونفسية واجتماعية على الخصوص .

وبالرغم من كون اسمه ظل لامعا ومتصدرا في ميدان الادب على العوم في هذا العصر ، فان الذين كتبوا عنه او ترجموا له لم يعنوا غالبا بهذه الناحية من شخصية مترجمنا رغم كونها تشكل عنصرا هاما من عناصر البحث الذي يقوم عليه الموضوع . فشخصية الاديب وحالته النفسية ومزاجه ، وطبعه وذهنيته ومدى تفاعله مع بيئة ، كل ذلك من العوامل التي لا يمكن اغفالها نظرا لما تلقى من أضواء على البحث وما تكشفه من أسباب كانت وراء هذا النوع أو ذاك من الانتاج أو من الاسلوب الذي اهتم له الاديب . ان معرفة المنتج ضرورية في نظرنا قبل معرفة انتاجه واذا كان العذر هو قلة المصادر وعدم اهتمام المؤرخين عادة بالمنتج اهتمامهم بالانتاج نفسه ، فلنا في هذا الانتاج وسيلة نلجأ اليها عليها تفيدنا بما نحن في صددده رغم ما يتطلبه الامر من تمحيص وتقصى لسير الاحداث خوفا من الوقوع في احكام أساسها العاطفة أو التسرع في الاستنتاج . فابن المرحل هذا ، كما هو معروف عند معاصريه او عند من ترجموا له ، هو ابو الحكم مالك بن عبد الرحمان بن علي . كان مولده سنة 604هـ بمدينة مالقة حسب ما روته كتب التاريخ والادب ، الا ما كان من الاستاذين ابن تاووت وعفيفي (1) اللذين ذهبا الى ان مسقط

(1) الادب المغربي ، صفحة 221 ، (بيروت 1960) .

رأسه كان بسبته ، وهذا الخلاف كما رأينا ناشئ عن كثرة التقلبات بين الاندلس والمغرب في عصر بني مرين وعدم الاستقرار في مكان حصين ، نظرا للاضطرابات السياسية والفتن الداخلية من جهة ولتعدد العلاقات بين مملكة غرناطة ومملكة بني مرين في هذا العصر من جهة أخرى . فليس بعيدا أن يكون من مواليد سبته كما آله الاستاذان إلا أن المشهور في مسقط رأسه هو مالقة ، ولقد وجدنا ، ونحن نبحت عن هذه الحقيقة ، نسخة خطية قديمة من خزنة الكلاوي كتب في أول صفحاتها المتلاشية ما نصه : « قال الشيخ الامام الاجلي البارع الاديب ابو الحكم مالك بن عبد الرحمان المالقي نزيل سبته ، فالمخطوط اذن يشكك الى درجة ما حجة يعتمد عليها الباحث في اصدار هذا الحكم .

فابن المرحل اذن ولد بمالقة ونزل ، كما جاء في المخطوط القديم بسبته ، ولكننا لسنا نعلم متى غادر مالقة وكم قضى فيها من عمره . سكنت المصادر عن هذا الانتقال ولم تدل بمعلومات لا عن الزمن الذي قضاه ابن المرحل في مالقة ولا عن الاسباب التي جعلته يغادر مسقط رأسه ، مع كون هذه المعلومات ليست من الجزئيات البسيطة التي لا يؤبه بها كما يظنه البعض فهي في نظرنا ، اساسية لما تلقينه من أضواء على سلوك الفرد النفسي والاجتماعي . فالبيئة الاندلسية ليست هي البيئة المغربية وليس ، تبعا لذلك ، سلوك من عاش في الاولى كمن عاش في الثانية اذ الاخلاق والعادات والقيم والمثل تتكيف وتختلف من بيئة الى أخرى ومن زمن الى آخر ، فالمجتمع الاندلسي كما هو معلوم ، يتكون في هذا العصر الذي نورخه من مختلف اجناس ، تختلف في العادات والتقاليد والثقافة والطقوس الدينية ، وليس كذلك المغرب . لذلك كنا نرغب في معرفة هذه المعلومات للالمام بالعوامل التي تضافرت في تكوين شخصية مترجمنا .

وعلى كل حال فابن المرحل ، كما يستنتج من آثاره ، لم يمكث طويلا بمالقة ، وانما انتقل الى سبته وهو صغير السن . لم نلمس في شعره اثرا للبيئة التي كانت ولادته بها ، ولم نعثر لحد الآن على معلومات او على جزئية تفيد من قريب او من بعيد في هذا الموضوع .

ومن المؤسف ان لا نجد في بيتين (I) اجاب بهما ابن القاضي بن عبد الملك عند ما سأل عن مولده كلمة اوشارة يستدل بها على مقامه الطويل أو القصير بمالقة :

يا سائلا عن مولدى كى اذكره	ولدت يوم سبعة وعشره
من المحرم افتتاح اربع	من بعد ستائة مفره

(I) مشاهير رجال المغرب للاستاذ كنون صفحة 6 .

وانما الذي يستنتج يوضح من شعره انه عاش طويلا بسببته رغم تنقلاته منها الى فاس والى الاندلس حسب الظروف والملايسات المحيطة بحياته . ذلك ان اتصالاته واحتكاكاته العادية والخاصة التي سجلتها كتب التاريخ كانت في عموما تجري في سببته ومع رجال سببته ، الشيء الذي يدل على تفاعله مع هذه المدينة وطول استقراره فيها .

لقد روت بعض المصادر صدى اصطدامات وقعت بينه وبين شخصيات أخرى في سببته ، منها ما جرى بينه وبين ابن رشيق ساكن سببته في هذا العصر الذي هجاء بقوله (I) :

لكلاب سببته في التباح مدارك	وأشدها عند النهار بين مالك
شيخ تقاني في البطالة عمره	واجل يحكيه الكلام الآفك
احلى شمائله السباب المقرى	واعف سيرته الهجاء الماحك

وقد نقل الاستاذ كنون في كتابه مشاهير رجال المغرب خصومات كثيرة حدثت بين ابن المرحل وبين مواطنيه ولاسيما اهل سببته . فابن رشيد السبتي تصدى للرد عنه عند ما انتقده ابن عبد المالك المراكشي وابن رشيق هجاء بشعره في سببته والشاعرة صارة الحلبية عند ما دخلت سببته مدحت ابن المرحل فاجابها بقوله (2) :

يا نذرة الدنيا لقد	حزت العلا بكمالك
وملكت افئدة الورى	فالناس فيك كمالك
ان قايسوك بمالك	الفوك املك مالك

كل هذا يدل على ان صاحبنا ترعرع في احضان سببته وبين ظهرائي رجالها فابن رشيد هذا وابن رشيق وغيرها عاصرا مترجينا وعاشا معه في مدينته وجها نوجه ، وفي شعره ايضا اشارات وتلميحات أخرى كلها صدى لحياته في سببته .

واذا كلنا نعلم أن سببته من أهم مدن المغرب في ذلك العصر ، ومن أكبر مراكزه الثقافية كما اسلفنا نظرا لموقعها الجغرافي الرابط بين العدوتين ولكونها نقطة ارتكازية يلتقي فيها الواردون من الاندلس الى المغرب والمقاربة والمشاركة الوافدون الى الاندلس اذا علمنا ذلك أدركنا مدى الدور الذي كانت تلعبه هذه المدينة الشاطئية من الناحية الثقافية ومن الناحية الاجتماعية والسياسية على العموم ، وبقطع النظر من ذلك ، فهي مشهورة منذ القديم بمضارقتها العريقة وبأصالتها وبرجالها في ميدان الثقافة والحرب ، فأشهر رجالات المغرب منها أو عاشوا فيها ، لقد انجبت

(I) الإحاطة المجلد الاول تحقيق عبد الله عنان (مصر) صفحة 481 .

(I) الإحاطة المجلد الاول صفحة 481 .

من العلماء والعفاه والادباء والزعماء ما لم تنتج مدينة اخرى فى مستواها . ويكفيك مثلا على ذلك ان القاضي عياض صاحب المؤلفات الشهيرة منها ولسنا فى حاجة الى التعريف بهذه الشخصية نظرا لشهرتها فى العالم العربى كله ، وانما الذى يجب ان نلفت النظر اليه هو ما لقيه الموحدون من معارضة على يد هذه الشخصية التى كانت تدافع عن عقيدتها ضد البدعة الموحدية وان العزفيين المشهورين بالعلم والتقوى وابن رشيد وابا العباس السبتي وغيرهم من المشاهير كلهم من هذه التربة التى تميزت بشخصيتها القوية وبطابعها الخاص فلا عجب اذن ان يتأثر ابن المرحل بهذه البيئة التى شب فيها وترعرع فى احتكاك وتفاعل مع العلماء والادباء والفقهاء وانصوفيين ولا غرابة ان يربى تربية اسلامية متينة خالية من كل بدعة وانحراف ، فذهب مالك والاشعرية كانا على اشدهما فى زمنه وقبل زمنه لاسيما بسببته حيث عاش عياض زعيم المالكية ورأى فيها الذى ضحى بنفسه فى سبيل عقيدته ولم يستسلم امام قوة الموحدين .

ولقد اثرت تلك البيئة الدينية تأثيرا بليغا فى صاحبنا ، وطبعت سلوكه بطابع روحى لم يفارقه حتى الممات . لقد كان عفيفا طاهرا ليس فى سلوكه ما يخل بالاخلاق او يمس بتعاليم الاسلام على العموم ، بل ظل متشبثا بهذه الروح الدينية القوية حتى اصبح بعضهم يعده من رجال الصوفية والواقع ان فى شعره ما يؤكد تعلقه بالنزعة الدينية عليه ويلقى ضوءا على تفانيه فى حبه لله ولرسوله من ذلك قوله:

تناسى فؤادى كل حب بحبه كذلك تحيل الشمس ضوء الاهلة

وهكذا يستمر ابن المرحل فى مدح النبى اشفاء لغليله واداء لواجبه سواء فى هذه القصيدة او فى قصائد اخرى نظمها لنفس الغاية ، مما يؤكد هذه النزعة الروحية التى تطبع سلوكه . والظاهر من هذه الابيات ومن غيرها ان الشاعر لم يحظ بتلك الامنية القالية على كل مسلم ولا سيما فى ذلك العصر ، وهى الحج الى بيت الله الحرام ، ظلت الرغبة ملحة لديه الى وفاته دون اشباعها ، ولسنا نعلم السبب الذى حال بينه وبين تلك الرغبة ، رغم محاولتنا لفهم الاحداث والوقائع التى شهدتها بيئته والظروف والملابسات التى كانت تحيط به مع انه عمر حتى تجاوز الثمانين :

يا أيها الشيخ الذى عمره قد زاد عشر سبعين

ثقافته

لم تهتم المصادر التاريخية كمادتها بتحديد نوع الثقافة التى تلقاها شاعرنا ولم تبين بتفصيل ودقة المناهج التى اتبعها فى دراسته الابتدائية والثانوية والعالية اللهم الا ما جاء فى اشارات عابرة ولمحات خاطفة فى بعضها كنفح الطيب وازهار الرياض والاحاطة ، الا أننا رغم ذلك يمكننا ان نستنتج من تكوين ابن المرحل

فكرة عن هذه الثقافة وعن الأساليب التي اتبعها ، وليس من الطبيعي أن تكون هذه الثقافة خارقة للعادة أو مختلفة عن الثقافة التي كان يتلقاها غيره من المواطنين المغاربة ولاسيما في سبتة .

لقد كانت هناك تقاليد وعادات فرضتها الظروف الندية والاجتماعية حتى أصبحت جزءا من القيم والمثل العليا السائدة في ذلك العصر . لقد جرت العادات أن يبدأ الطفل بحفظ القرآن الكريم وباستظهاره قبل كل شيء ، وابن المرحل ، كما جاء في بعض المصادر التي اهتمت بترجمته ، حفظ القرآن كسائر مواطنيه بل اتقن قراءته السبع ثم انتقل الى المرحلة الثانية وهي دراسة اللغة العربية وما يتصل بها من علوم . فقد كان من المقرر في سبتة وغيرها أن يقرأ الطالب في هذا الميدان كتاب الفصيح لابي العباس ثعلب وكتاب الامالي لابي علي القالي ، والفية ابن مالك والاجرومية وغيرها (1) من أمهات الكتب المصنفة في الفقه والنحو والصرف والبلاغة والعروض . كان الطالب في هذه العلوم وفي غيرها يعتمد على المتن كأساس لتعلمه ويعتمد خصوصا على الحفظ والاستظهار كي تقوى ملكة اللغة فيه ويكتسب الروح العربية عملا بقول الشاعر :

علمي معي حيث ما يمت يتبعني صدرى وعاء له لا بطن صندوقي
ان كنت في البيت كان العلم فيه وان كنت في السوق كان العلم في السوق

وإذا علمنا أن ابن المرحل كان قاضيا بالاندلس أدركنا مدى تطلعه في الفقه والشريعة الإسلامية على العموم . ذلك أن القاضي في هذا العصر كسائر العصور الوسطى ، كان الى جانب المامه باللغة العربية وسائر فروعها ، ملما بأصول الفقه وأصول الدين وذلك عن طريق دراسة رسالة أبي زيد والمدونة وغيرها من أمهات الكتب التي لا مناص منها للفقيه .

ولكن لماذا نذهب بعيدا وأمامنا آثار ابن المرحل ، قد نجد فيها ما عساه ينير السبيل ويفيدنا في تحديد تكوينه ، فالى جانب شعره الذي قد نجد منه بعض القصائد وأبياتا متناثرة هنا وهناك ، نجد مخلفات أخرى اشارت اليها بعض المصادر . ففي الادب ترك ابن المرحل ارجوزة في العروض ، ونظم الثلث من أدب الكاتب ، وفي الفقه والعلوم الإسلامية عامة ترك نظم التيسير في الفراءات ثم نظم غريب القرآن وأرجوزة في الفرائض وفي النحو وفقه اللغة نجد له نظم الفصيح لابي العباس ثعلب ، وفي مدح النبي ارجوزة سماها الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة الى غير ذلك من المؤلفات التي لم نقف عليها لحد الآن .

فنظرة خاطفة على هذا الانتاج تعطينا فكرة عن نوع الثقافة الذي تلقاها مترجمنا فهو ، كما رأينا يكثر من النظم ، بل يعمد الى «ما صنف في النحو أو الفقه

(1) طبعا بعد ظهور ملين اللانين

عنه ولو قليلا رغم ما في ذلك من صعوبات تعترض الناظم في هذا العمل وتقيسه
أو المنطق أو القرآن فينظمه في آيات تارة مختصرا وأخرى متقيدا بالنص ، لا يخرج
حريته . ثم نراه الى ذلك يخص النبي صلعم بقصائد من عنده يتقن فيها لغة ويتفاني
فيها محبة و إخلاصا للرسول وتوسلا به لآخرته كما قال في شعره :

يمدحني له ثم استشفعت ثم بمحبتي
أما لي في مدحه تشفيح وفي حسب
يسل أن في مدح النبى وسيلة
وفي جبه أخرى فحسبى هما حسب

وهكذا يتضح لنا أن مالك بن المرحل تلقى ثقافة عامة اسلامية في
جوهرها ، ولغوية في شكلها وبذلك كان فقيها وعالما لغويا ، قبل كل شيء ، الشيء
الذي أهله لتبوؤ منصب القضاء ، وهي وظيفة لا يحظى بها في عصر بني مرين ،
كما رأينا ، الا من برز واشتهر ورقى بعلمه وتفقته في دين الله ؛ وكذلك كان الامر
فاتصل ابن المرحل بالقصر وأصبح من حدامه كاتبا أو شاعرا . لسنا نعلم عنه شيئا
في بداية أمر هذه الدولة لا من الناحية السياسية ولا من الناحية الثقافية ، ولكن
الغالب على الظن أنه كان معتمدا في هذه الايام الصعبة أى قبل استقرار الامر لبني
مرين ، ببيئته في سبتة التي كانت كما رأينا تفتح برجال العلم والادب وشيوخ الفقه
والمتصوفة ، فكان ابن المرحل بين ذويه وبين اقربائه وأصحاره الذين كانوا غالبا
من ذوى العلم والمعرفة والصلاح . يكفي مثلا على ذلك أن أبا اسحاق ابراهيم
الانصارى (1) العالم الاديب الفقيه المحدث هو زوج أخته وأبا الحسن التلمساني شيخ
ابن الخطيب هو حفيده ، ومع ذلك لم يلبث أن فارق أهله وأصدقائه رغم كبر سنه
فانتقل الى فاس بعدما انجلت الظروف وصفا الجو السياسي وخلص الامر نهائيا الى
ملوك بني مرين . لقد تحدث عن هذا الانتقال بعض المصادر ذاكرا أنه كان في خدمة
السلطان أبي يوسف يعقوب ثم أبي يعقوب يوسف . كان من سفرانها ، كما كان
من كتابهما الاقربين (2) وبالفعل وجدنا في شعره صدى لهذا الاتصال وأثرا لهذه
الاحداث التي كانت تقع في العدة الاندلسية ، وتنعكس على نشاط الدولة المرينية
وعلى الشعب المغربي بأجمعه . نعلم من ذلك ما نظمته في مدح الامير أبي مالك ابن أبي
يوسف مهنثا اياه بفتح مراكش ثم ما قاله في الحث على الجهاد ضد النصارى في
الاندلس وهو يومئذ بالبلاط المريني في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف . وبعد
هذا الاتصال بالبلاط المريني الذي بدأ منذ استيلاء الدولة نهائيا على الحكم واستمر
الى آخر عهد السلطان أبي يعقوب يوسف ، لم نعد نعلم شيئا عن نشاط ابن المرحل
في هذا البلاط ، فانقطع خبره رغم كونه عمر طويلا وعاش الى آخر هذا العد ، الى أن
توفي ودفن بفاس .

(1) انظر ترجمته في الإحاطة المجلد الاول صفحة 277 .

(2) الناصري ، الاستقصاء ، ج 3 صفحة 88 انظر كذلك اللخيرة السنية تحقيق ابن أبي شنت
ص 80 - 90 .

عبد العزيز الملزوزى

ونجد كذلك فى هذا العصر أدبياً آخر بارزاً أشارت إليه بعض المصادر وذكرته واصفة إياه بأوصاف النبوغ والبروز ، رغم كون هذه المصادر كلها لم تحفل بحياته الشخصية ولا بجوانب سلوكه النفسى والاجتماعى داخل الاطار الذى كان مسرحاً لتفاعلاته وتكيفاته ؛ لذلك لم نعثر على ترجمة وافية لعبد العزيز الملزوزى ولا على ترجمة وجيزة تساعدنا على تفهم أسس هذه الشخصية . لذلك كان لا بد ، الى جانب هذه الاشارات العابرة فى بعض الكتب ، ان نتيجة الى ما تركه لنا الملزوزى من آثار ، الا أن هذه الناحية لم تكن مع الاسف بكافية لاعطاء فكرة عن حياته والاطوار التى مر بها منذ ولادته الى وفاته . لقد اتضح بعد مقارنة الرويات أن اسم مترجمنا الحقيقى هو أبو فارس عبد العزيز الملزوزى بن عبد الواحد بن محمد كما جاء فى أرجوزته نظم السلوك (I) وقد أبى الشاعر الا أن يذكر نسبه فى هذه الأرجوزة قائلا:

حتى تكون هذه الأرجوزة تكتسب بها العجز ملزوزة

اهتم بذكر نسبه فى مقدمة مؤلفه لما فى ذلك من تعظيم ، وتشريف ولما فى ذكر الحسب والنسب من فوائد اجتماعية وقيم خلقية يعتز بها الفرد لاسيما عند العرب الذين اشتهروا منذ القديم بهذه الخاصية ؛ ولم تكن هذه الظاهرة وليدة هذا العصر أو العصر الذى قبله ، وانما كانت من التقاليد الاجتماعية التى توارثها العرب خلفاً عن سلف منذ الجاهلية . ولقد بحثنا عن هذه القبيلة لمعرفة موقعها الجغرافى فى المغرب وأهميتها بالنسبة للقبائل الاخرى التى ما زالت محتفظة بأسمائها الى اليوم ، الا أننا لم نقف على شيء نهتدى به للوصول الى المنبع أو لاقامة علاقات تجعلنا نطمئن الى نتيجة موضوعية . قد يكون السبب فى ذلك كما أسلفنا أن قبائل زناتة ، وشاعرنا منها ، اندثرت كلها أو جلها نظراً لاستعراب أغليبيتها واندماج أكثر قبائلها فى القبائل العربية التى كانت تنسجم معها الى حد بعيد . وعلى كل حال ، فقد كنا ننتظر من عبد العزيز ان يذكر لنا فى إنتاجه ، كما سبق أن ذكر نسبه ، شيئاً يتعلق بولادته أو تاريخها ، لكنه لاذ بالصمت ومر سريعاً ينقل لنا أخبار بنى مرين والوقائع التى حدثت فى زمنهم .

تربيته وأخلاقه

يذكر المؤرخون أن صاحبنا كان من سكان مكناس ، لكن لم يذكرنا هل سكنها طفلاً ، أو كانت مسقط رأسه ، غير أنه يستنتج من شعره ومن الاحوال

(I) هذه الأرجوزة عثر عليها بكاملها الاستاذ عبد الوهاب بن منصور الذى يرجع له الفضل فى ابرازها الوجود ونشرها ضمن مطبوعات القصر الملكى بالرباط سنة 1963 .

التي عاشها أنه سكن هذه المدينة مدة طويلة قبل أن يتصل ببلاط مزين ؛ ومكناس في ذلك الوقت مدينة زاهرة مزدهرة من الناحية الفلاحية والاقتصادية بصفة عامة - كما وصفها صاحب الروض الهتون في مكناسة الزيتون (1) وكان بها علماء أجلاء وفقهاء اشتهروا بغزارة علمهم وقوة باعهم في العلوم الاسلامية على العموم - وقد أثر ذلك الجو في مترجمنا ايما تأثير حيث كان متشبعا بروح الاسلام وبعقيدته المتينة . وليس من شك في أنه حفظ القرآن كمعاصريه قبل أن يتعلم اللغة العربية وفروعها وقبل أن ينكب على دراسة الفقه وأصوله وأسس ، ذلك أن في أرجوزته ما يدل على هذه الروح الاسلامية القوية التي سيطرت على اتجاذه ، فطبع اعتقاده وسلوكه ؛ فهو في أرجوزته هذه يهتم قبل كل شيء بذكر النبي وينسبه وبجميع الخلفاء الراشدين وبالإشارة الى مواقفهم لنصرة الاسلام والذود عن كيانه .

ثم نراه الى ذلك يكثر في منظومته من الاستشهادات القرآنية والتضمينات الحديثية الشيء الذي يدل على مدى تأثره بالقرآن وبالسنة من جهة ثم على حفظه للقرآن حفظا متينا وروايته للاحاديث النبوية وسيرة الصحباء والخلفاء . ومثالا على ذلك نورد له هذه الابيات التي اقتبسناها بصفة عفوية من أرجوزته (2) للدلالة على ما قلناه :

ليس ذلك بقادر على ان يحيى الموتى فقل لا أو بلى

ثم يقول :

نفوسنا بشرية تعمل ان لم يصبها وإبل فطل

أما الفقه فقد نال منه الشيء الكثير نظرا للظروف المحيطة به ومعطيات مجتمعه الدينية والخلقية . وكان لابد من أن يدرس الفقه وأصوله والعلوم المتفرعة عنه . ولولا ذلك لما دنا من بلاط بنى مزين اذ كان المفروض فيمن يقترب منهم ويقصد حضرتهم ان يكون قبل كل شيء فقيها ، متدينا ، عالما بأمور الشريعة الاسلامية ، فكان ذلك هو الاساس وهو المقياس الجارى به العمل فيما يرجع للتوظيف ، وفيما يرجع لولوج الحضرة المرينية ، هذا بالنظر الى أن الواردين على بلاط بنى مزين من العدو الاندلسية أو من افريقيا كانوا نبغاء ، فقهاء وعلماء ، فالتيار الجارى والضغط الاجتماعى المتحكم في هذه البيئة آنذاك كان يفرض على المثقفين أن يسايروا الركب ويندمجوا في حظيرة الطبقة المثقفة المحظوظة . كانوا عليهم أن يتكيفوا ويسلكوا سلوكا خاصا يرفعهم الى الدرجة المنشودة الى المكانة المرموقة حسب القيم الاجتماعية السائدة في ذلك العصر . فكان اذن صاحبنا فقيها ، عالما بالاصول وبالفروع ، ويؤيد هذا أن السلطان أبا يعقوب يوسف ، عندما حلت المجاعة بالمغرب سنة 693هـ لجأ الى

(1) ابن غازى العثماني تحقيق ونشر الاستاذ عبد الوهاب بن منصور مطبوعات القصر الملكى بالرباط .

(2) سنتحدث عنها في آخر هذا البحث

الفقيه أبي فارس عبد العزيز الملوzy لتبديل الصيعان المستعملة في ذلك الوقت واحلال محلها مد النبي صلعم ، نظرا لفلاء المعيشة وارتفاع ثمن القمح الذي أصبح يبلغ عشرة دراهم . وهكذا لجأ السلطان نفسه في هذه الظروف العسيرة الى فقيه كى يكتسى الاصلاح صبغة شرعية لا تخرج عن تعاليم الاسلام ، فكان فقيها هو المستشار الذي يستفتى في الامور المتعلقة بالمعاملات التجارية وغيرها ، ومعنى ذلك أن عبد العزيز الملوzy كان شاعرا (1) كما ذكرت بعض المصادر التاريخية وفقهها كبيرا كما استنتجناه من آثاره ومن الظروف المحيطة به في مجتمعه .

أما اتصاله بالبلط المرينى فكان حقيقة تاريخية لا تشوبها شائبة نظرا لما وقفنا عليه من آثار تثبت هذا الاتصال ؛ الا أننا لم نعرف متى بدأ هذا الاتصال وكيف تم . ولعل السبب في ذلك راجع ، على ما يبدو ، الى كون العصر الاول لبنى مرين كان عصر حروب وفتن داخلية وخارجية اذ كان الصراع على أشده بين ملوك الموحدين المنهارين وبين بنى مرين المتسلطين على الحكم بالقوة والسيوف ، فالفترة اذن كانت عصبية ولا تسمح بالظهور على مسرح الاحداث الا لمن كان يتوفر على شجاعة قوية وحرص مكين على اظهار معارضته للحكم القائم أو مناصرته له ، رغم المحن والاضطهادات التي يكون معارضا لها . وعلى كل حال فلم يرد ذكر في الفترة الغامضة لمترجنا لسبب منه أو لاسباب خارجة عن ارادته ، رغم كونه ينتمى الى قبائل زناتة التي انبثقت منها قبيلة بنى مرين وغيرها ، ومهما يكن من أمر ، ومهما كانت الاسباب التي كانت وراء اختفائه في بداية الازمة القائمة ، فان عبد العزيز ربط مصيره بمصير ملوك بنى مرين الاولين ، منذ استقلوا بالسلطة وخلا لهم الجو السياسى ، أى منذ قضى يعقوب بن عبد الحق على الموحدين بمراكش واستقر بمدينة فاس . فكان شاعرنا هذا يلزمه كما لازم ابنه أبا مالك ثم السلطان أبا يعقوب الى أن قتل سنة 697هـ ، أى قبل وفاة السلطان المذكور بتسع سنوات . فيكون اذن مترجنا معاصرا لمالك بن المرحل ولادباء آخرين سنأتى على ذكرهم ، الا أننا لم نجد رغم تحرياتنا وتقصيائنا ، ما يفيد أو يشير الى كون صاحبنا انتقل كثيرا من العدة المغربية الى العدة الاندلسية أو قام برحلات أخرى خارج المغرب كما كان الشأن بالنسبة لمعاصريه من الفقهاء والادباء والعلماء فقد كنا نتوقع ذلك التنقل الكثير وذلك الترحل نظرا لما كان العمل به جاريا في ذلك العصر ولاسيما في عهد السلطان أبي الحسن .

الا أن القصيدة التي نظمها بمناسبة عودة أبي يوسف يعقوب من الجهاد في الاندلس ، قد تكون حجة يستدل بها على مرافقته لملكه في هذه المعركة التي دارت رحاها بالاندلس لان صاحبها يصف فيها المعارك والاصطدامات والاتصالات وصف شاهد عيان ولانه يلم بالجزئيات ، والمرئيات ، والمسموعات التي لا يمكن أن ينقلها الا من كان يخوض المعركة أو من كان يشرف عليها ؛ وعلى هذا فقد يكون صاحبنا

(1) كان كاتباً لأبي مالك بن أبي يوسف يعقوب انظر الدخيرة السنية ص. 76-86

رافق يعقوب بن عبد الحق في إحدى المعارك التي خاضها ضد نصارى الاسبان ولم يكن ذلك مستبعدا كما أسلفنا .

وعلاوة على ذلك ، فقد بقي الملوzy ملازما لرؤسائه وأولياء نعمته الى أن كانت وفاته على أيديهم سنة 697هـ بسبب جنابة اقترفها فقتل في السجن خنقا بفاس .

آثاره

أما آثاره فهي تتلخص حسب ما وقفنا عليه لحد الآن في قصائد وفي أبيات متناثرة هنا وهناك ، ثم خصوصا في أرجوزة طويلة سماها كما قال هو بنفسه :

سميتها من حسننها نظم السلوك في الانبياء والخلفاء والملوك
وهي تقع في 1325 بيتا نظمها على بحر الرجز ولقد أشارت اليها بعض المصادر كالذخيرة السنية وروض القرطاس ذاكرة منها بعض الابيات الى أن عثر عليها في مخطوط قديم الاستاذ عبد الوهاب بن منصور فنشرها لأول مرة كاملة ، وهي الآن مطبوعة في متناول القراء .

أبو العباس القباب

إن أبا العباس أحمد المشهور بالقباب من الشخصيات المغربية التي لا يقل أثرها عن تلك الشخصيات التي تعرضنا لها فيما قبل رغم كون المصادر الادبية والتاريخية لم تحفل به كثيره ، ولم تخصصه بعنايتها وتقديرها طبقا لاستحقاقه وكفاءته : وليس من الغريب في ذلك من شيء ما دمنا نعرف أن نفس المصير لقيه كثير من علماء المغرب ونبغائه ومشاهير رجاله الذين قل منهم من وجد انصافا من لدن معاصريه على الخصوص الذين كانوا رغم قدرتهم على الكتابة ، يفضلون السكوت أو يعمدون الى طمس آثار هؤلاء الاعلام لاغراض سياسية أو شخصية محضة . إلا أن السبب قد يرجع في بعض الاحيان الى الشخصية المعينة بالامر التي تظل قابضة ، ساكنة لا رغبة لها في الظهور والبروز . ولعل صاحبنا كان من هذا النوع الذي لا يميل بطبعه الى احتلال المقاعد اللامعة والمحافل الرسمية والخوض في المعارك الدنيوية التي كان من الممكن ، نظرا للظروف التي كان يعيشها المغرب ، أن تسبب له أحداثا لا قدرة له على تحملها ؛ انه ، حسبما وقفنا عليه ، رجل خير وصلاح ويسر قبل كل شيء ، بل أكثر من ذلك ، كان حسب معاصره ابن الخطيب ، ناسكا زاهدا في الدنيا ، ماثلا عنها ، لقد «نسك ورفض العيش» وما ذلك كله الا أنه كان متشبثا بالروحانيات ،

غير مبال بالماديات وما وراءها من نفع ومصالح زائلة . ولعل هذه التربية الروحية المتينة ، وهذه الصفات الخلقية الحميدة هي التي جعلت القباب يعتذر عن لقاء ابن الخطيب عندما وجه له الدعوة وهو يومئذ بفاس ثم بسلا لاجئا منتظرا مصيره بعد أن عصفت الاحداث بمكانته وبمكتسباته بالعدوة الاندلسية . ان القصة مشهورة خلدت شهرتها تلك الرسالة المعروفة التي كتبها ابن الخطيب اثر هذه الحادثة وسماها «مثل الطريقة في ذم الوثيقة» . لماذا لم يستجب القباب لدعوة ابن الخطيب رغم شهرة هذا الاخير ومكانته السامية وسلطته الخطيرة في المغرب أو خارجه ؟ لماذا لم يلب الدعوة اذن ؟ ان القرائن والاحوال تدل على أن القباب تعمد التأخر وأبى الاتصال بابن الخطيب رغم الاعتذار الذي صدر منه بعد ذلك . لماذا كان اذن يعجل هذا التأخر ؟ لم تكن بينهما علاقات خاصة ولم يسبق لهما أن التقيا التقاء خاصا نتج عنه سوء تفاهم أو اصطدام . أما نحن فنرجح أن سبب هذا التأخير هو القباب نفسه ، طبعه ، تكوينه ، تربيته ، وغير ذلك من العوامل التي جعلت الهوة عميقة بينه وبين رجل أقبل على الدنيا بكل مواهبه وقدراته وخاض غمارها بكل وسائله وحيله ودهائه ، بل وبمكره في بعض الاحيان ؛ فالتناقض كان اذن صريحا بين الرجلين رجل يتخذ من دنياه وسيلة لآخرفته ورجل يملا حياته بنشاطه مستثمرا خيراتها ، مستغلا حوادثها ، عاملا على البروز فيها وادراك جاهها واعلاء سلطانه فيها . فنحن هنا اذن بين ضدين بين السلب والايجاب أو كما يقول علماء النفس بين الانا النفسي والانا الاجتماعي . فالتأخر اذن كان مقصودا ، والاجتناب غاية رعى اليها القباب فكان من نتائجها ما كان يتخوف منه ، وما كان يعمل على اجتنابه اتقاء لشر ابن الخطيب وبأس أمثال ابن الخطيب ، وعلى كل حال فالامر واضح والقباب جنى على نفسه من حيث لا يريد ، ومزقت أعراضه وأعراض أمثاله ، وطار صيته واكتسب سمعة ما كان في حاجة اليها . يكفيه فخرا أن تتوج أعماله الصالحة وسلوكه الحميد بأن يرسله السلطان أبو سعيد ابراهيم (762) سفيرا الى غرناطة في مهمة دينية صرفة (I) ففي ذلك دليل آخر على روحانيته وصدق سلوكه ، وثقة ملك البلاد في استقامته .

ثقافته

أما ثقافته فتكاد تكون منحصرة في الفقه حسبما ورد في بعض المصادر التي تعرضت له بصفة مباشرة أو غير مباشرة وذلك أنه كان عدلا موثقا بفاس بل صدر عدول الحضرة الفاسية ثم ولي القضاء بجبل طارق ، وهاتان الخطتان تحتاجان ، بلا ريب ، الى تكوين متين في الاحكام الشرعية والنوازل الفقهية المختلفة ، نظرا لما كان يعرض على أصحابها من قضايا ومقالات متنوعة تستوجب الحسم والبت فيها بدون

(1) الاطاحة صفحة 194 (دار المعارف بدون تاريخ .

مراوغة أو تردد خصوصا في زمن بنى مرين حيث أصبحت مادة الفقه كما أسلفنا من المواد الأساسية التي يتكون فيها الطالب تكويننا قد يكون على حساب مواد أخرى . ولا غرابة في ذلك فمترجمنا كان هو الآخر أحد صدور الفقهاء في عصره ومن حفاظ مذهب مالك . نحن لا نستغرب تلك الظاهرة لان مذهب مالك في الفقه أصبح مسيطرا ومتحكما في شؤون الامة ، والفقهاء والعلماء يصدرون عنه ويرجعون اليه في كل المناسبات والظروف ، فلقد استرجع مكانته وسلطته في عصر بنى مرين بعدما مر بفترات عصيبة في زمن الموحدين ، فالتبحر في الفقه والتمسك به جعل صاحبنا يحفظ مذهب مالك عن ظهر القلب ، وليس ذلك في متناول كل أحد ، ولا بالامر السهل رغم كون البرامج المقررة في ذلك العصر كانت في معظمها تعتمد على الذاكرة والاستظهار . واذا كان القباب من حفاظ مذهب مالك ، فان اتجاهه وعيله كانا على ما يبدو ، منذ نشأته ، متفقين مع المناهج السائدة في عصره ، الشيء الذي قوى الانسجام ووحدة الاتجاه ورسم الطريق أمامه يسير فيها بدون تردد أو تراجع .

ولقد توج هذا التكوين المعين بأن احتل القباب مكانة مرموقة في عصره اذ أصبح مدرسا لمادة الفقه يستفيد منه الطلبة وغيرهم ، كما يستفتى في مسائل شائكة استعصت على كثير من الفقهاء وذوى المعرفة ثم أصبح عدلا موثقا بفاس حيث تعرف عليه ابن الخطيب ثم عين قاضيا كما أسلفنا .

بعد هذا نتساءل عما اذا كان القباب قد اكتفى بهذا النوع من التكوين كما أكدته المصادر التي اهتمت به أم تجاوز هذا الحد . ثم نعر على ما يفيد في الموضوع ، لا ما يؤكد ولا ما ينفي ، الا أننا نرجح أن القباب كان بارعا في اللغة وفي الادب بدليل أنه ترك شعرا يستنتج منه الباحث أن صاحبه لم يكن من المبتدئين أو ممن لم يمارسوا نظم الشعر ، علاوة على أن ثقافة العصر لم تكن لتسمح للطلاب باهمال دراسة اللغة وفروعها . ان ما جرى على ابن المرحل وعلى ابن رشيد وعلى الملزوي وغيرهم من نبغاء هذا العصر يجرى بصفة عامة على القباب ، نظرا للتقاليد السائدة ، والمناهج المعهودة التي دخلت في حكم القيم الاخلاقية والمثل الاجتماعية والمعايير التي يقاس بها الادراك والنبوغ .

القباب بالبلاط المريني

يبدو أن القباب كان مرتبطا بالبلاط المريني أيما ارتباط ، اكان ذلك لعلمه وتقواه وصلاحه أم كان لامر نجعله لحد الآن ؟ ان كل ما نعلمه أنه فاسي الاصل والنشأة ، وانه من البيوت التي اشتهرت بالعلم في فاس منذ القديم . أ يكون قريبا من أسرة بنى مرين أو من القبائل الزناتية التي استعربت في القرن العاشر ، لما

نعلمه من النزعة القبلية وأثرها في تقرب الافراد وابعادهم ، رغم كون ملوك بني مرين ، كما رأينا ، لم يكونوا عادة يراعون في تعيين موظفيهم سوى صفاء العقيدة الاسلامية والاخلاص للدولة وحمل راية العلم غير مباينين بمبدأ الجنسية كما هو الشأن اليوم . قد يكون هذا أو ذاك وقد تكون هناك عوامل أخرى خفيت علينا وراء هذا التقرب الذي جعل صاحبنا يضطلع بمسؤوليات ضخمة ويكلف من طرف السلطان أبي سالم بمهام سرية في بعض الاحيان ، ولا أدل على ذلك من كونه أسند اليه سفارة بغرناطة ثم أرسله الى سلا في مهمة وصفها ابن الخطيب(I) بكونها تدخل في اطار «اختبار واستطلاع الاحوال السلطانية» فما قاله ابن الخطيب عنه وهو مقيم حينئذ بسلا يتجسس الاخبار ويسعى في اكتناه الامور للاطلاع على صغيرها وكبيرها ، ما قاله عنه يدل على كون القباب من الخواص أو من حاشية البلاط المريني .

ومع ذلك فلسنا ندرى ماذا كان مصيره بعد وفاة السلطان أبي سالم أي ما بين سنة 766هـ وسنة 799هـ التي توفي فيها القباب .

ابن بطوطة

لمع في عصر بني مرين اسم آخر ، كان له أثر بليغ في الاوساط المغربية وغيرها من بلدان العالم ، ذلك الاسم هو ابن بطوطة المغربي الذي طبقت شهرته الآفاق وطار صيته في كل محفل ومقام حتى أصبح ، حسب لغة العصر ، من الشخصيات الدولية التي يقام لها ويقعد في كل المناسبات . عرف العصر المريني ميلاد هذه الشخصية بل عرف بها ، فكانت دليلا عليه وعلامة من علامات ازدهاره ورفي حضارته .

لذلك كان لا مفر لنا ، ونحن نحاول التعرف على مشاهير رجاله ، من التعرض لشخصية ابن بطوطة لابرار معالمها وتوضيح آثارها . لم تختلف المصادر التي ترجمت له لا في اسمه ولا في نسبه كما حدث في ترجمة كثير من الاعلام المغاربة ، فكان الاجماع على أن مترجمنا هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتي أصلا والطنجي نشأة ، المشهور بابن بطوطة ، فهو اذن من أصل بربري من قبيلة لواته التي استقرت بالمغرب الأقصى منذ زمن بعيد ، ولا يستبعد أن تكون من القبائل التي اضطرتها الظروف السياسية والاجتماعية الى الهجرة فاخترت المغرب مقرا لها ، فكان منها ابن بطوطة كما كان منها غيره من الشخصيات التي اشتهرت بعلمها أو بصلاحها . كان مسقط رأسه بطنجة حيث ولد سنة 705هـ وكانت نشأته بها في ظل والديه الى أن بلغ سن الرشد بل ظل فيها حتى أكمل نضجه وقويت شخصيته وألحت عليه الرغبة

(1) الاطاحة المجلد الاول صفحة 192 (مطبعة مصر بدون تاريخ)

في مغادرتها استجابة لنادى الفريضة المقدسة التي كان عليه أن يؤديها كما أداها غيره من المغاربة الذين فارقوا أوطانهم وأهلهم مستسلمين الصعاب ومتحملين المشاق والاهوال ليحجوا الى بيت الله . انها أمنية غالية ودافع قوى وملح يحرك النفوس في كل لحظة وفي كل حين ، يخلق فيها تحرقا وتشوقا فلا تعرف اطمئنانا ولا راحة الا بعد بلوغ الهدف المنشود .

الا أن ابن بطوطة ، كما سنرى من بعد ، لم يكن على موعد مع هذه الرحلات القصيرة التي قام بها كثير من معاصريه والتي لا تتجاوز سنتين أو ثلاث : لقد تجاوز الحد المعروف وتعدى النطاق المألوف فقام بأكبر رحلة في هذا العصر ، وجال في مختلف عواصم العالم وحقق بذلك في ميدان الرحلات نصرا عظيما وسجل تفوقا كبيرا على من سبقه في هذا الميدان ، اذ طالت غيبته في مجموعها وبلغت 28 سنة تقريبا . لسنا ندري هل كان يدور بخلد أن يتغيب هذه المدة الطويلة أم استهوته الاسفار فكانت غيبته من باب الصدف والعفوية لا يخضع لتصميم مرسوم وخطة مجبوكة عزم على تحقيقها قبل سفره الطويل ؟ ان ما يستفاد من رحلته لا يدل على مشروخ حضر من قبل وقام صاحبه بتنفيذه وأثناء رحلته . فيقطع النظر عن نية الحج التي كانت تساوره قبل سفره ، نرى ابن بطوطة من خلال رحلته برمي بعض التجوال هنا وهناك بقصد الزيادة والاطلاع ، وكثيرا ما ينساق وراء مناظر استهوته بجملها أو بغرابة أمرها أو شيء كان يسمعه عنها من قبل ، فأقدم على أماكن بعيدة وخطيرة فتجول في مناطق ما كان ينوى الوصول اليها .

وسواء كانت هذه الرحلة الطويلة عن قصد أو غير قصد فالذي يهمننا هنا هو أنه قبل مغادرته طنجة سنة 725هـ كان قد تلقى تربية اسلامية متينة وثقافة فقهية واسعة الافق الشيء الذي مكنه من أن يتبوا منصبا للقضاء في جهات مختلفة بدلهي أو غيرها من الاماكن التي كان يقصدها وهو في طريقه لاداء فريضة الحج أو لتحقيق أسفاره . فتوليه هذا المنصب العالي يدل على ثقافته الفقهية . وتشير بعض المصادر التي عنيت برحلته الى أن طنجة في عصره كانت من المدن الحافلة بالنشاط الفكري والثقافي بصفة عامة ، نظرا لموقعها الجغرافي القريب من العدوتين كما تفيد أن بيته كان من البيوتات العلمية المشهورة بالتقوى والصلاح .

لذلك كان طبيعيا أن ينهل من هذا المورد الغزير ويتكون هذا التكوين الذي أهله لمناصب سامية في المغرب أو خارج المغرب .

كما أن هذه التربية الاسلامية التي نشأ عليها في بيته جعلت منه رجلا ورعا عابدا اينما حل وارتحل فكان بذلك السلوك الروحي يمتاز عن المراققين له في سفره ناصحا مرشدا ، متجنبيا للمعاصي التي كثيرا ما يقع فيها المسافر في تنقلاته وحلوله بأماكن أجنبية من ذلك أنه كان «اجتنبنا للزنى ، يتزوج كلما نزل ببلاد يطول فيها مقامه فيطمئن الى عمله المشروع ويستقر بالبلاد التي نزل بها الى أن يتركها لبلاد

أخرى فيتزوج بها كما سبق له أن فعل وهكذا إلى أن وصل إلى طنجة ، وبالإضافة إلى ذلك نراه في رحلته شديد الرغبة في الاتصال برجال الخير والصلاح باحثا عنهم . مقتنيا آثارهم وكان لا يمر ببلاد إلا وسأل عن صلحائها وأولياؤها ليأخذ عنهم ويستفيد منهم . مما يؤكد تمكن هذه الروح الإسلامية من نفسه .

ثقافته اللغوية

لقد شك كثير ممن عنوا بدراسة رحلة ابن بطوطة في كفاءته اللغوية فوصفوه بالتقصير وعدم تمكنه من اللغة نظرا لما تضمنته هذه الرحلة من أغلاط نحوية وهفوات أخرى . ونحن ، وإن كنا لا ننكر وجود مثل هذه الأغلاط في الرحلة التي اشتملت على ألفاظ عامية ، إلا أننا نستبعد أن يكون ابن بطوطة ارتكبها عن جهل إذ المعروف عنه أنه درس اللغة العربية وتمكن منها حتى أصبح ينتقد على خطيب البصرة وقوعه في أغلاط كثيرة ، وإذا كان ابن بطوطة قد لاحظ على خطيب هذه المدينة المشهورة بزعامتها في النحو وبقدمها في علوم اللغة عموما فمعنى ذلك أنه كان يعي ما يقول ، كان شديد الثقة بنفسه . إن ما جاء في الرحلة من أغلاط لا يستبعد أن يكون عن نسيان وقع فيه ابن بطوطة نفسه أو إهمال منه لعدم مراجعة انشائه واهتمامه بتقاييده اثر رجوعه من بلاد إفريقية ؛ وقد يكون السبب في ذلك ابن جزى نفسه الذي كلف من طرف السلطان أبي عنان لجمع اجزاء الرحلة وتنقيحها وإخراجها في حلة لائقة بها . إلا يكون ابن جزى ، رغم نبوغه وكفاءته ، قد وقع عن غير قصد في بعض الهفوات التي ألصقت بمنشئ الرحلة نفسه ؟ إن الظروف المحيطة بالرجلين تحملنا على الاعتقاد باحتمال الأمرين . وإذا صرفنا النظر عن هذه الهفوات ورجعنا إلى مؤلف الرحلة نفسه فلا بسعنا إلا أن نؤمن بمقدرته وجدارته في اللغة وغيرها . ألم ينظم ابن بطوطة قصيدة في مدح ملك الهند ؟ أفلا يكون في نظم هذه الأبيات وتوجيهها إلى ملك الهند حجة أخرى تدل على تكوينه اللغوي ؟ إن قرض الشعر ليس في متناول كل أحد !

وإذا كان ابن بطوطة لم يترك لنا إلا قليلا من شعره فليس بعيدا ، إن تكون هناك عوامل اجتماعية أو نفسية حالت بينه وبين ذلك !

ابن بطوطة والبلاط المريني

ليس من الغريب أن يتصل ابن بطوطة بالبلاط المريني بل كان طبيعيا أن ينجذب إليه وإن يلج عتباته لما عرف عن ملوك بني مرين من تقريب لكل ذي فضل وعلم ، واحاطته بعنايتهم الخاصة ، وهم الذين كانوا أشد الناس حرصا على أن يضم

بلاطهم النخبة المثقفة من المغاربة وغيرهم ، فكانوا يتنافسون في جلب رجال العلم والفكر ، بل كانوا ، ان صح التعبير ، يتصيدون كل من أحسوا فيه نبوغا وتفرسوا فيه نباهة وذكاء ، فكانت لا تسمع بشخصية سامية الا ووجدتها ببلاطهم تشتغل بالكتابة أو بالحجابه أو بمهام أخرى سامية ، فما بالك برجل مغربي أصبح العالم يتحدث عنه لما قام به من رحلات وما وصفه من مناظر ومشاهدات وأماكن وعادات . فكانوا اذن أولى الناس به وأسبقهم الى الاستفادة من شهرته ومجده . وما أن انتهى من رحلته حتى هب أبو عنان وبعث اليه وهو لا يزال في بلاد افريقية فقفل راجعا منفذا أوامر ملكه ، مطيعا ، ممتثلا . فكانت الغاية هي الاهتمام بتدوين الرحلة وبتنظيمها كي لا تضيع فائدتها . فأعطيت الاوامر لابن جزى وكلف بالسهر على هذا الانتاج حتى تحقق الغاية المرجوة منه .

أبو العباس أحمد زروق

نسير متتبعين لآحوال البيئة المغربية في عصر بني مرين فنجد من المشاهير من تتمثل فيهم هذه البيئة المغربية خير تمثيل ، ذلك لانهم عاشوا في هذه البيئة منذ حداثة سنهم وتكيفوا مع جوها المادي والمعنوي والروحي ، فنشأوا فيها وهم مرآة تنعكس عليها آحوال المجتمع المغربي وقيمه ومثله ؛ ومن بين هذه الشخصيات التي نشير اليها هنا يجدر بنا أن نتعرض لأبي العباس أحمد زروق ، نظرا لما له من أثر على هذه البيئة وسمعة في كتب الآداب والتاريخ المغربية وغيرها . ولعله كان أكبر حظ من غيره في هذه المصادر التي تعرضت له ، رغم اغفالها لجوانب كثيرة من شخصيته وحياته . والسر في ذلك ، على ما نظن ، راجع الى ما كان صاحبنا يتمتع به من شهرة بل من استجابة لروح العصر وللتيار الجارف آنذاك في عصر بني مرين حيث أقبل الشعب المغربي في آخر هذا العصر على تربية روحية نظرا لما حل به من أزمات وعواصف هزت أركانه وألحقت به ضربات أصابته في الصميم . فكان مترجمنا في مستوى الاحداث بل كان قائدا من القادة الذين انسجموا بكل قواهم وامكانياتهم مع النخبة المثقفة والجماهير الشعبية التي وجدت فيهم ضالتها المنشودة كما أن صاحبنا ساعد على هذا التعريف بنفسه بما تركه من آثار بقي جلها محفوظا الى اليوم ، ذلك أنه لم يبخل بمجهود في هذا الباب ، فكان غزير المادة وافر المعلومات ، أفنى عمره تقريبا في التصنيف والتأليف ، مما أدى الى تخليد اسمه ، وتقوية أثره في الأوساط المثقفة والشعبية على السواء .

يكفى بابن العباس ويسمى ، حسبما ورد في عدة مصادر ، أحمد ابن أحمد ابن محمد المشهور بزروق ولد بفاس سنة 946هـ ، الا أن ولادته ونشأته بفاس لا تعنيان أنه كان من أهل فاس ، عزيق النسب فيه . فقد سكنت فاس عدة قبائل بربرية

انتقلت اليه من نواحي مختلفة لاسباب اجتماعية أو اقتصادية أو علمية . وكذلك كان زروق يرجع في أصله الى قبيلة بربرية ، قبيلة البرانس المشهورة في المغرب . نشأ يتيما ، فقيرا ، ليس له من يكفله سوى اقاربه أو بعض أصدقاء أبيه ، مما زاد في شقائه وبؤسه وخلق في نفسه عقدا كان لها أكبر الاثر في حياته المستقبلية وفي توجيه سلوكه الاجتماعي والخلقي . الا أن الحرمان حسب حقائق علم النفس قد يكون في بعض الاحيان حافزا للفرد يدفعه الى تعويض النقص ، وذلك ببذل أقصى ما يمكن من الجهود لتدارك ما فات ، ولتكميل ما نقص ، ثم للعمل على البروز والتظاهر بمظهر القوة والغلبة في مواطن الضعف والميادين التي تكون محور الحديث وقبلة الانظار . ولعل هذه العوامل هي التي حفزت همة مترجمنا وقوت عزيمته وصلبت ارادته وربطته منذ حداثة سنه بآبواب المعرفة ، فولجها بكل شوق ورغبة ، وأقبل عليها اقبال المتعطش على العين ، يرد منها لما فيها من خلاص ووسيلة الى تحقيق مبتغاه ، اقتداء بعلماء عصره ونبغاء بيئته . فكان رغم كبر سنه ، يكبد ويجتهد ، ويواصل ليله بنهاره وهو نادم على ما فاتته وعامل على قطع المراحل التي لا بد من اجتيازها في عصره . فحفظ القرآن ثم درس أمهات اللغة والفقه فشرع في التفسير وقراءة الحديث أخذاً عن مشايخ الفقهاء والعلماء وكبار المحدثين بفاس حتى حصل له من ذلك ما جعله يطمئن الى نفسه ويشعر بقوة باعه في هذه العلوم التي درسها . الا أن الظاهرة التي تميزت بها ثقافته الاولى هي أنه كان الى جانب ذلك يعني بدراسة التصوف عناية خاصة . آكان ذلك ميلا منه أم عنصرا ايجابيا من العناصر التي تشكل الثقافة في ذلك العصر ؟ لسنا ندرى . كل ما نعلمه في الموضوع هو أنه كان يدرس من بين العلوم علم التصوف الذي أخذ فيه عن كبار أئمة أمثال العتوري والمجدولي ... ويظهر أن المناهج تغيرت بعض الشيء في آخر عصر بني مرين بحيث أصبحت تشتمل على دراسة في التصوف بعدما كان هذا الفرع من المعرفة كما أسلفنا في الفصول السابقة لا يتجاوز أنواعا من سلوك عملي خاص يقتصر على ذكر أوراد أو القيام بحركات مختلفة معينة ، ومهما يكن من أمر ، ومهما كانت العوامل ، فاحمد زروق درس التصوف دراسة نظرية كما درس الفقه وعلوم أخرى وسعت مداركه وحددت اتجاهه منذ البداية رغم تبخره في علوم أخرى ، فكانت النتيجة ، وهي حتمية ، ان أصبح أحمد زروق في عصره من كبار الفقهاء وأئمة المتصوفة في نفس الوقت ؛ ولقد غلب عليه هذا الاتجاه العلمي وعرف به حتى طغى على ما له من مشاركة في علوم اللغة والادب والبيان ، فأصبح مترجموه لا يذكرونه الا مع الفقهاء والمتصوفة ناسين حظه في اللغة وفي الشعر والفصاحة والبيان وتلك ظاهرة نلمسها عند عدد كبير من المؤرخين أو الادباء الذين عنوا بدراسة التراجم فأغفلوا عن قصد أو غير قصد جوانب متعددة من شخصية مترجمهم بحكم الضغط أو التأثير والانسياق وراء الاقتداء والتقليد الذي ضللمهم وأنساهم التعرض لجوانب خفية ، قليلة الاهمية في نظرهم . ولكنها في نظرنا تعود بفوائد كبرى على الباحث المتتبع لحالات الفرد النفسية والانفعالية والفنية . أما نحن فنرى أن مترجمنا كان أدبيا لا يقل مستواه عن مستوى

أدباء عرفوا بهذه الصفة واشتهروا بها وسنورد له في محلها أبياتا وقطعا نثرية يتجلى فيها ذوقه الفني وصناعته الادبية .

أخلاقه وسلوكه العملي

لا ينتظر من شخص تكون تربيته هذه الا أن يسلك سلوكا يتفق ومبادئ الاسلام وتعاليمه ، واسسه المتينة ، لان النشأة كانت في أساسها ومنذ بدايتها مبنية على هذه الروح الاسلامية وهذا الاتجاه الروحي المتغلغل في أعماق النفس ، فنشأ زروق متشبعا بهذه الروح الخالصة صادرا عنها في حركاته وسكناته ، في أفكاره وعواطفه ، وفي سلوكه نحو ربه ، نحو نفسه ، ونحو غيره . وإذا كان بعض الفقهاء رغم تضلعهم في العلوم التي درسوها ظلوا نظريين ومثاليين ، فزروق على العكس منهم كان نظريا وعمليا في نفس الوقت . لم تقعد به ثقافته النظرية عن خوض المعركة في ميدان السلوك العلمي ، ولم يكتف بشرح نظرياته وأفكاره وإنما كان ، علاوة على ذلك ، من هؤلاء العلماء الذين يتخذون للمواقف الصريحة ويعطون من أنفسهم القدرة العملية فيغيرون المنكر ويوقفون الضلال ويهدون الى الرشاد لا ينصحهم فقط ، بل بسلوكهم ، وأعمالهم ، وتصرفاتهم ، وردود أفعالهم مطبقين ما درسوه من أفكار وحقائق ، منفذين أوامر الشرع الاسلامي ، معارضين ومصطدمين . ان زروق كان ذا مروءة وخصال حميدة ، رجلا عفيفا ، زاهدا ، ناسكا ، لاهيا بهذه الحياة ؛ لقد أعرض عنها وسعى في التخلص منها ، الا أنه لم يعرض عنها بانسحابه وسليبيته وانمحاء شخصيته . كلا ! لقد فرض شخصيته القوية فنزل الى الميدان وخاض المعركة بنفسه لاصلاح أمته وتقويم اعوجاج بني وطنه ؛ فكان أمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، لاحظا ومنتقدا ، رادعا ومصلحا ، مما تسبب له في حملات مناوئة من طرف بعض معارضيه الذين يرون في تدخلاته قضاء على مصالحهم واستخفافا بسلطتهم ونفوذهم المعنوي ؛ فكان ذلك سببا لبعض الانتقادات الموجهة اليه في زمنه أو في عصور أخرى .

عاش الشيخ زروق في المغرب عيشة متواضعة عرفنا نوعها واطلعنا على أوجه نشاطه فيها متفاعلا مع بيئته ومؤثرا ككل كائن حي ، فلم يعرف عنه أنه اتصل بأمير أو بوزير أو بنى جاه دنيوى يتقرب منه لينال من خبره ويستفيد من نعمته ، ولم يسجل له التاريخ أنه اتصل بالبلط المريني أو ببلاط آخر في العدو الاندلسية أو في اقريقيا . ان الظروف كانت يومئذ حالحة ، والضربات تتوالى على المغرب من النصارى ومن غير النصارى ، فقويت العاصفة ، واشتدت الفتن وزحزحت القواعد ، وتخلخل النظام ، وسادت الفتن والاضطرابات ، واكفهر الجو ، وسيطر التشاؤم والخوف على الناس ؛ ومع ذلك كان يتحرك ويقف من الاحداث مواقفه المعروفة ويسمع

صوته فى غير ما وجل ولا خوف . استطاع رغم هذه الظروف القاسية أن ينتقل من المغرب الى المشرق ، فأدى فريضة الحج ثم مكث مدة فى مصر فرجع الى وطنه ولكنه ما لبث أن فارقه الى طرابلس حيث اشتهر .

آثاره

من المؤكد أن الشيخ احمد زروق ترك بعد وفاته تراثا أدبيا غزير المادة ومتنوع الفروع لما عرف عنه فى حياته من انكباب على الدرس والتدريس ، والشرح والتأليف ، وانشغال عن أمور الدنيا وما تستلزمه من نشاط يبذل فى هذا الميدان أو ذاك ؛ فكانت حياته كلها حافلة بأعمال الخير والتقوى وبالكتابة والتصنيف ؛ فكان من ذلك الانتاج الضخم عدة المريد وشرح الحزب الكبير لآبى الحسن الشاذلى ، وكتاب القواعد فى التصوف وشرح مختصر خليل ، وغير ذلك من المؤلفات المجيدة ، مما يدل على سعة أفقه وغزارة مادته ومواهبه العقلية الخلاقة .

ابن وشيق

نجد فى هذا العصر الذى نؤرخ له شخصية أخرى ورد ذكرها فى بعض المصادر وأشير إليها بالبراعة والنبوغ . وقد رأينا أن نتعرض لها لما كان لها من أثر فى البيئة المغربية وفى الحياة الأدبية على الخصوص ، يتعلق الامر بآبى على الحسين ابن عتيق بن الحسن بن رشيق التغلبى المرسى أصلا والسبتى نشأة واستيعانا ، ليس من المستبعد أن يكون انتقاله الى المغرب جرى مع الاسر التى هاجرت مواطنها من الاندلس اثر سقوط القواعد الاسلامية فى يد الاسبان ، لاسيما ونحن نعلم أن أسباب الهجرة قد تعددت فى هذا العصر وان المواطنين الاندلسيين انتقلوا بكثرة الى العدو المغربية نظرا لما كانوا يجدون فيها من اطمئنان وارتقاء وسلامة خصوصا فى عصر بنى مرين الزاهر حيث أصبح الحكم قويا وحيث كانت المعارك تجرى بالمغرب الاوسط وبالمغرب الادنى لضمهما الى السلطة المغربية المركزية الراجبة فى استرجاع الامبراطورية الموحدية . الا أننا نرجح أن انتقال ابن رشيق الى المغرب قد تم فى مقتبل عمره وأنه صرف نشاطا كبيرا فى سبته حيث برز كما قال ابن الخطيب فى احاطته وحيث كان كاتباً لاميرها آبى القاسم العزفى . ولقد حملنا على هذا الاعتقاد ما وجدناه من أثر لصاحبنا فى بعض المراجع وما استنتجناه من هذا الاثر رغم قلته وتناثره هنا وهناك . ان ما وجدناه قد يدل على أنه قليل الصلة بالبيئة الاندلسية ولكن ليس معنى هذا أنه لم يتأثر بالبيئة الاندلسية التى قضى فيها جزءاً من عمره

وأنه لم يحمل معه أى شىء منها يتعلق بعبادات أهلها وتقاليدهم الاجتماعية . ذلك ما لا ندعيه ، وما لا تسمح به حقائق علم النفس وعلم الاجتماع ان التأثير ببيئة ما لا يقاس دائما بالزمن الذى قضاه الفرد فى تلك البيئة لان المسألة ليست مسألة كم فقط بل هى كم وكيف فى نفس الوقت . قد يتفق أن يتأثر الفرد تأثرا قويا بمجتمع لم يقض فيه الا أياما معدودة بينما لا يتأثر بمجتمع آخر أو يتأثر به قليلا رغم كونه عاش فيه زمنا طويلا ، لان ذلك راجع الى عوامل نفسية واجتماعية قد تساعد وقد لا تساعد على التأثير والتأثير ؛ لذلك لا يمكن أن نجزم هنا ونؤكد أن صاحبنا ترك أثرا كبيرا يتعلق بالاندلس وبنشاطه فيها ، كما لا يمكن أن نؤكد أن المصادر التاريخية أو الأدبية لم تحتفظ لنا بهذا الاثر انها نقطة استفهام تبقى موضوعة الى أن نتاح لنا الفرصة للاجابة عنها بكل دقة وموضوعية .

أما فيما يرجع لتطور حياة ابن رشيق ونوع تكوينه والدور الذى يمكن أن يكون لعبه فى المغرب ، فلقد وجدنا فى هذين النصين اللذين سنوردهما قصدا ، معلومات تساعدنا على الالمام بعناصر ايجابية فى الموضوع ، وقد تنير لنا السبيل لاستجلاء جوانب قد تكون موضع خلاف أو شك . لقد جاء فى «بلغة الامنية ومقصد اللبيب فى من كان بسببة من مدرس وأستاذ وطبيب (I) مانصه : (أبو على بن رشيق التغلبى ، مرسى ، عالم ، مصنف بارع الخط شاعر المرية ، كتب لاميرها من بنى الاحمر الرئيس أبى الحسن على بن يوسف ابن نصر ولاخيه أبى عبد الله محمد ثم انتقل عنها الى سببة فولى قضاءها لابی القاسم العزفى وتوفى فى تازة من بلاد المغرب ودفن يوم الاربعاء 9 محرم 696هـ وهو فى وفد يقصد لقاء السلطان أبى سعيد ابن يوسف ...) هذا النص الذى أوردها لمؤلف معاصر لابن رشيق ظل مجهول الاسم الى اليوم ، رغم التخمينات التى نسجت حوله وهو منقول عن مخطوط وجده الناشر بخزانة مغربية ووجد فى بعض أوراقه تاريخ الاستساخ وهو سنة 824هـ فهو يعتبر من الوثائق المهمة فى الموضوع .

وللمقارنة والتحقيق نورد كذلك نصا آخر لا يقل أهمية عن ما ورد فى بلغة الامنية وهو لابن الخطيب (2) (يكنى أبا العباس مرسى الاصل سبتي الاستيطان كان فريد دهره اتقاناً ومعرفة ومشاركة فى كثير من الفنون اللسانية متبحرا فى التاريخ ريانا من الادب شاعرا مقلعا عجيب الاستنباط قادرا على اختراع الاوضاع ، جهم المحيا ، موخش الشكل ... تحرف بالعدالة وبرز بمدينة سببة وكتب عن أميرها وجرت بينه وبين الاديب ابن المرحل من الملاحظات والمهارات أشد ما يجرى بين

(1) نشر الأستاذ محمد بن تاويت ، مجلة تطوان منشورات الجامعة المغربية كلية الاداب عدد 9 سنة 1964 صفحة 178

(2) الإحاطة بتحقيق عبد الله عنان ج الاول (دار المعارف بمصر) ص 481-482 .

متناقضين) الى أن قال : «واستدعاه أمير المغرب السلطان أبو يعقوب فاستكتبه .. ودخل الاندلس وحط بها بالمرية وقد أصيب بأسر عياله فتوسل الى واليها من قرابة السلطان ولحق بفرنطة ومدح السلطان بها»

ومن هذين النصين يمكن أن نستفيد استفادة كبيرة تساعدنا على تفهم شخصية ابن رشيق وكذلك أوضاعه وأحواله ، أما الملاحظة الاولى فهي خلافا لما جاء في مخطوط بلغة الامنية ، ان السلطان الذي كان متربعا على عرش المغرب في السنة التي توفي فيها ابن رشيق مع الوفد الذي كان متوجها الى السلطان سنة 696هـ هو أبو يعقوب يوسف لا السلطان أبو سعيد كما ورد في المخطوط ان السلطان أبا سعيد عثمان لم يتول الملك الا في سنة 710هـ . ونظن أن ذلك خطأ ناتج عن نسيان أو غلط ارتكب في الاستنساخ . ويستفاد كذلك مما سبق ذكره أن ابن رشيق تنقل بين العدوتين الاندلسية والمغربية ، الا أن هذا التنقل يكتنفه بعض الغموض لاسيما فيما يرجع لتاريخه وتربيته . هل كان ابن رشيق في الاندلس ثم استقر نهائيا في المغرب الى أن مات ؟ ذلك ما رواه صاحب بلغة الامنية الذي اخبرنا أنه ولي قضاء سبتة . وتوفي بتازة ودفن يوم الاربعاء 9 محرم سنة 696هـ أما ابن الخطيب فلا يذكر أن وفاته كانت بالمغرب بل يستنتج من كلامه على العكس أنه ارتحل الى الاندلس بعدما قضى أعواما في المغرب رغم كونه يتفق مع النص الاول في كون مترجما كان بالمرية ونشط فيها كما نشط بسبتة .

مهما يكن من اختلاف بين ابن الخطيب وبين مؤلف بلغة الامنية ، فالشيء الذي يكاد يكون من المتفق عليه هو أن ابن رشيق نشط في مدينة سبتة حتى أصبح فيها كاتباً وقاضياً لاميرها أبي القاسم العزفي ، وكاتباً كذلك لابي يعقوب يوسف . وناهيك بهذه المناصب السامية في عصر بني مرين ، ولاسيما في بلاطهم ، فقد رأينا أن هذه الوظائف لا تسند الا لمن كان من النبغاء والفضلاء وذوى المكانة السامية والشهرة الواسعة في العلم والادب ، ومن ثم اذا كان صاحبنا تقلد هذه المناصب كلها وتقلب فيها من كاتب الى قاض وبالعكس ، فمعنى ذلك بكل وضوح أنه كان من النخبة المثقفة ومن العناصر التي يتوفر فيها الاستحقاق والجدارة . فقد سبق أن رأينا ونحن نترجم لبعض مشاهير هذا العصر ما كان يتوفر عليه هؤلاء من استعداد فكري، ومواهب عقلية ، ونبوغ وعلم غزير ، ومعرفة واسعة في شتى الميادين . فلا نظيل إذن الكلام ولا نستمر في الشرح والتعليل للدلالة على كفاءة وثقافة ابن رشيق الذي كان الى ذلك (وكما شهد له به ابن الخطيب) ذا مشاركة في الفنون اللسانية ومتبحرا في التاريخ وريانا في الادب . فهذه الصفات كلها اذا جمعت في شخص واحد كانت برهانا قاطعا ودليلا على معلوماته الواسعة كما تدل على تخصصه في فروع مختلفة من العلوم ، فكان أديبا وفقها ، مؤرخا وشاعرا عالما لغويا .

أما فيما يرجع لاخلاقه ومميزات شخصيته فأثاره الادبية وما قاله فيه ابن الخطيب ، وتصرفاته الخاصة والعامة ، سواء في المغرب أو خارجه ، كل ذلك يعطينا

فكرة عن جوانب كثيرة من شخصيته ويطلعنا على مواطن قوته وضعفه ؛ ذلك أن الفرد في المجتمع له سلوكان يختلفان ويتناقضان في كثير من الاحيان حسب الظروف والعادات المحيطة به ، والقيود التي تحد من حريته وانطلاقه . قد يرغب شخص في شيء ويومن بشيء يختلف تماما عن ما ياني به من أفعال في بيئته وأمام رؤسائه ورفقائه وأهله . فالواقع النفسى لا يعرف على حقيقته الا اذا ألم الباحث بجميع العوامل التي تحرك الفرد ، ما خفى منها وما ظهر ، خصوصا تلك العوامل المتعلقة بالتلقائية والافعال الصادرة بصفة عفوية ولا شعورية ونتيجة لذلك وجدنا في مترحمنا ونحن نحاول تحليل شخصيته ظواهر نفسية خاصة . كان يتوفر على طاقة انفعالية كبيرة تبحث لنفسها عن متنفس لتنصب على الاشياء والاشخاص ، تلك الطاقة التي كثيرا ما جعلت ابن رشيق يسلط لسانه وجام غضبه على الغير ، فينال من عرض الناس وكرامتهم ومروؤتهم وأخلاقهم قصدا وعن غير قصد أو حسب اصطلاح علم النفس شعوريا ولا شعوريا ان ردود فعله كانت قوية الى درجة العدوان والتهميم ، والتاريخ شاهد على ما نقول ومحافظ في سجله على هذه الظاهرة النفسية التي صبغت سلوك ابن رشيق نحو نفسه ونحو غيره لقد تصدى لمالك ابن المرحل وهما معا في سببة فوجه اليه سهام نقده اللاذع ، بل الفاحش المفرض الذي لا يترك لا كبيرة ولا صغيرة الا أبرزها وشخصها وجسمها وصورها أشنع تصوير وأقبحه ، مما يذكرنا بما كان يدور من هجاء مقذع ومن سباب بين جرير والفرزدق والاخلط . ان التاريخ لا يزال يحتفظ بتلك القصيدة التي نظمها صاحبنا في ابن المرحل وهو يومئذ شيخ طاعن في السن يصرف نشاطه كله في عبادة الله وفي أعمال البر والاحسان ؛ ان ابن رشيق لم يراع هذه الاعتبارات ولم يحترم لا السن ولا مستوى الاخلاق العامة فصب كلامه البذيء وسخطه المتفجر على شيخنا مالك ، مما ينم عن طبع غير سليم ويكشف عن سريرة غير عادية . ولقد أدى بنا الامر ونحن نلاحظ مظاهر هذه الظاهرة النفسية الى التساؤل عن البواعث أو الدوافع التي عملت على خلقها أو انماؤها في مترجمنا : أليكون الدافع نفسيا محضا أو اجتماعيا محضا أو هما معا ؟ أليكون ذلك من قبيل الوراثة أو من قبيل البيئة المضطربة التي عاش فيها ابن رشيق ؟ واذا كان من الصعب في مثل هذه الاحوال القطع فان من الممكن أن تكون البيئة بالنسبة لصاحبنا من العوامل التي شجعت فيه هذا الخلق الشاذ وهذا السلوك العدائي الذي كان الهجاء الفاحش مظهرا من مظاهره . ان البيئة المغربية كانت يومئذ مضطربة تصصف بها الحوادث والفتن من كل جانب ، وتهز أركانها الدسائس السياسية والاطماع الشخصية والاحقاد والظفائن التي تفتشت في البيوتات المترفة وفي البلاطات الملكية وحول كل ذى نعمة وجاه . وما بالك بالاندلس حيث توالى عليها الضربات القاسية من طرف الاسبان وحيث فقد الناس ثقتهم بالرؤساء نظرا لخدائهم وتقلباتهم الكثيرة وتحالفهم مع العدو ضد بنى مرين ، غلبت عليهم المصالح الشخصية ، ففتت في عضدهم ومالت بهم الاغراض ، فكانوا مراوغين متظاهرين بالمحبة والاخلاص لغزاة بنى مرين . ألا تكون هذه الاحداث الاجتماعية وهذه المعن السياسية مصدر تشاؤم

كبير وانقباض في النفوس ويأس من الحياة كلها قد نجد في مكان آخر ما قد يعلل هذا الاتجاه النفسي ويفسر هذه الظاهرة التي طغت على طبع ابن رشيق حتى كان منه ما كان . ان هذا العامل الذي نبحث عنه نجده كامنا في نفسه مرتبطا به لقد سبق لابن الخطيب أن وصفه قائلا : (جهم المحيا ، موحش الشكل) . وابن الخطيب في وصفه هذا كان شاهد عيان ، لانه رأى صاحبنا ولاحظ حياته وأحواله والصفات الغالبة عليه ، ان هذه الصفات تتناول المظهر الخارجى قبل كل شيء أى ما يعبر عنه الوجه : سماته وأساريره وملامحه القارة ان «موحش الشكل» صفة توحى بالغرابة وبالخلقة التي تخالف ما هو عادى ومتداول . أليس في هذه الصفات الجسمية ما يؤكد تلك الظاهرة اننى لمسناها في شخصية مترجمنا ؟

ما تقدم نستطيع أن نقول ان ابن رشيق كان من الناحية العقلية يتوفر على ذكاء ثاقب ، واستعداد فكري ، ملحوظ ، ومواهب أخرى من المرجح أنها كانت نتيجة وراثية أكثر منها بيئية ، وان ما كان يتوفر عليه من دقة احساس وشدة انتباه وقوة ملاحظة يدل على ملكات فطرية أكثر مما يدل على عمليات تكون من نتائج التربية وقد ذكر ابن الخطيب (I) (أنه كان عجيب الاستنباط قادرا على الاختراع والاضاع) . ان الاختراع والاستنباط علامتان من علامات الذكاء والنبوغ وسعة الخيال وبعد النظر ، الشيء الذي لا يتوفر لذوى العقول البسيطة والامكانيات الذهنية المحدودة .

آثاره

ترك لنا ابن رشيق حسب ما في الجدوة (2) علاوة على قصائد وأبيات متناثرة هنا وهناك الكتاب الكبير في التاريخ والتلخيص المسمى بميزان العمل . الا أن هذه المؤلفات والقصائد لم يصفها المؤرخون ولا الادباء ولم يولوها عنايتهم الخاصة ؛ فقد يكون ترك أكثر من ذلك لانه كان مصيره الضياع أو نتيجة الإهمال والنكبات التي توالى على أهل المغرب والاندلس معا في آخر عهد بنى مرين .

أبو عبد الله محمد العبدري

يتعلق الامر هنا بشخصية كان لها حظ في تنمية الحركة الثقافية والادبية بصفة عامة . وأول ما يلفت النظر هنا هو ذلك الخلاف الذى وقع فيه من ترجموا لهذه الشخصية أو حاولوا اعطاء فكرة عنها ، والحقيقة أن المصادر القديمة لم تهتم بحياة مترجمنا باستثناء جدوة الاقتباس لابی القاضى الذى أفادنا قليلا عما رواه عن ابن المرحل،

1، الإحاطة صفحة 221 .

2، ابن القاضى ، جدوة الاقتباس صفحة I92 (الطبعة الحجرية بفاس بدون تاريخ) .

أما نقطة الخلاف التي أشرنا إليها فهي تتلخص في أمرين اثنين : أولا كنية العبدري ،
ثانيا نسبه .

فكنيته عند البعض هي أبو عبد الله وعند البعض الآخر هي أبو محمد ، بقي
هذا الخلاف قائما الى اليوم ولم نعثر بعد على وثيقة تاريخية أو مصدر من نوع آخر
بحسم هذا الخلاف ويثبت الواقع رغم ما كتب من أبحاث ومقالات عن العبدري . ورغم
التحقيق الذي قام به أخيرا الاستاذ احمد بن جدو (1) حول الرحلة التي خلفها صاحبنا !
فلقد أفادنا في هذا التحقيق ان الاستاذ ابن أبي شنب يكنى العبدري بأبي محمد بينما
يحمل مخطوط بلده أبا عبد الله ويعتبر الاستاذ ابن جدو هذه الكنية الاخيرة غلطا ،
لانها كما قال ، كنية ابن الحاج صاحب المدخل ؛ وفي الوقت نفسه نجد الاستاذ
محمد الفاسي يخالف هذا الرأي ويؤكد (2) أن كنية العبدري هي أبو عبد الله ؛ فإين
اذن الحقيقة من بين هذا وذاك . أما نحن فنرى أن الاستاذ ابن جدو الذي قام بالتحقيق
لم يطلع ، رغم تحرياته ، على نسخ كثيرة للرحلة باعتراف منه ، وذلك نظرا للظروف
السياسية التي كانت تجتازها الجزائر والتي حالت بينه وبين الاطلاع على نسخ
أخرى موجودة بالرباط وتونس وفاس والاسكوريال . فهو «لم ينتفع بمطالعته ومنازلته»
ولهذا السبب نرى أنه كان من الممكن أن يغير الاستاذ المحقق رأيه بعد الاطلاع على
أكبر عدد ممكن من النسخ الموجودة في المغرب على الخصوص ؛ ولذلك وجدنا قول
الاستاذ محمد الفاسي يتفق مع كثير من الروايات ولا غرابة في ذلك نظرا لاطلاعه
الواسع وتوفره على امكانيات وفرص متعددة لم تكن من حظ صاحب التحقيق .

أما وجه الخلاف الثاني فهو يتناول كما أشرنا نسب العبدري . فالامر هنا
ذو أهمية وخطورة لما له من تأثير وانعكاسات على الموضوع كله . والخلاف في هذه
النقطة راجع ، كما سبق أن رأينا ، الى أن كثيرا من المغاربة غادروا ، لسبب من
الاسباب ، بلادهم كما أن عددا كثيرا من الاندلسيين هاجروا بلادهم خوفا من العدوان
أو رغبة في الحصول على امتيازات في البلاط المريني أو لاسباب لا مجال لتفصيلها
هنا . وسبب ثان لهذا الخلاف المتعلق بنسب العبدري هو أن القدماء درجوا على
اعتبار المهاجر من أهل البلاد اذا مات فيها ولو لم يقض فيها سوى بضعة شهور
لذلك وقع الارتباك والالتباس في رد الافراد الى أصلهم ، وذلك شيء سبق أن أثرنا
الانتباه اليه . وعلى كل حال فالعبدري أصبح في نظر كثير من المؤرخين كابن أبي شنب
وبروكلمان وجورجي زيدان من أهل الاندلس بل من بلنسية ويذهب بعضهم الى أنه
انتقل الى المغرب مع أسرته كسائر الاسر المهاجرة وهو صغير السن ، الشيء الذي

(1) الاستاذ ابن جدو قام بتحقيق ونشر الرحلة (كلية الاداب الجزائرية) لكنه نشرها مبتودة
وناقصة .

(2) مجلة دموه الحق بحث للاستاذ رئيس الجامعة المغربية سنة 1957 عدد 4 صفحة 67 .
قام الاستاذ محمد الفاسي بتحقيق ونشر رحلة العبدري تحقيقا ونشرا علميين .

لم يقبله الاستاذ محمد الفاسي الذي جزم بمغربيته الاصلية بمسقط رأسه ببلاد حاحة . وسعيا وراء التحقيق ، وبما أن المصادر لم تحفل بهذا الجانب عمدنا الى رحلة المؤلف علنا نجد فيها ما يفيدنا من قريب أو من بعيد في الموضوع ، وبعد قراءتها وامعان النظر فيها اتضح لنا أن صاحب الرحلة سبق له أن زام الاندلس واطلع على معالم بعض مدنها لانه يصنفها وصف عيان في ثنايا الرحلة الا أن هذا الوصف لا يعنى أنه عاش فيها أو ارتبط بأسرها ، أو بعض أوساطها ، لان رحلته خالية من كل عاطفة أو شعور نحوها كالحنين اليها أو التحدث عن أهله فيها أو أى شيء من هذا القبيل . فالكلام عن الاندلس في الرحلة كلام عابر شكلي لا علاقة له بعاطفة وطنية أو «بأرض الاجداد» ، وعلى هذا فيكاد يكون من المحقق ان العبدري مغربي بالمعنى العصري للكلمة وان ما ادعاه بعض المؤرخين يكون من قبيل الالتباس والتأثير المحض ، ذلك أن كثيرا من الاندلسيين ينسبون الى بنى عبد الدار كما لاحظته الاستاذ الفاسي في بحثه .

ونستنتج من هذا كله أن مترجمنا هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن مسعود الحيحي أو الحاحي نسبة الى حاحا الكائنة قرب مدينة الصويرة ، وهي قبيلة بربرية لا تزال الى اليوم تحمل نفس الاسم وتكتسى صبغة بربرية أيضا ، وبناء على ذلك فالعبدري بربرى أصلا ونشأة ، وله المام باللهجة البربرية كما يستفاد من رحلته . أما عن حياته أو ولادته أو وفاته فلا نجد لذلك ذكرا في المصادر التي وقفنا عليها لحد الآن . لذلك كانت وسيلتنا للتعويض عن هذا النقص ، هي دراسة الرحلة وتقصى ما ورد فيها لاستنباط منها ما عساه ينير السبيل ، ويفيد القارئ الراغب في الاطلاع على جانب حياة هذا الرجل الذي خلد اسمه بنفسه عن طريق رحلته . وليس الامر بسيط كما قد يتبادر الى الذهن ، لان كل ما ورد في الرحلة لا يمكن أن يعد من الامور المسلم بها لاسيما ونحن نعلم أن صاحبها ألفها في ظروف خاصة ، ظروف الاسى والحزن والاضطراب والفوضى ، ظروف كما قال بنفسه «أصبح فيها المسافر عندما يخرج من أقطار مدينة فاس لا يزال الى الاسكندرية في خوض ظلماء وخبث عشواء لا يامن على ماله ولا على نفسه» (I) هذا بالإضافة الى كون انتاج مؤلف ما كثيرا ما يتصف بالذاتية ويتدخل فيه عنصر الشخصية الذي يخضعه لتحكم العواطف والانفعالات والحالات النفسية الموقته التي تفسد الحكم وتشوه الحقيقة . فما يقوله الاديبي في شعره ، أو في نثره ، أو في قصته ، أو في رحلته ، لا يجب أن يعتمد عليه الا بعد التحري ، وبعد المقارنة ، والالمام بجميع العوامل التي تتداخل في تكوين الواقع النفسي الذي تنبثق عنه ردود الفعل في مختلف أنواع السلوك التي تكون وراء الافكار والاحكام .

والذي يتضح للباحث في الرحلة أن العبدري غادر قبيلة حاحا سنة 688هـ في الخامس والعشرين من ذي القعدة كما أكده هو نفسه ؛ وعليه فسفره ياتي بعد

(1) انظر رحلته ورقة 17 .

مبايعة السلطان أبي يعقوب يوسف الذي تربع على العرش سنة 685هـ وهي السنة التي بدأ فيها القيام بحملاته ضد بني عبد الواد بتلمسان ، اذ قصر نشاطه السياسي والعسكري على هذه الناحية لاختضاعها لحكمه ثم لتوسيع نطاق مملكته نحو افريقيا ؛ فلا غرابة اذن أن يصفى العبدري تلك الاحوال فى هذه الناحية بتلك الاوصاف المهولة وان يعطى عنها صورة قاتمة نظرا للاضرابات والفتن والمعارك التي كانت تجرى آنذاك فى تلك البقع . نعم لقد غادر قبيلته تاركا ابنه فيها قصد أداء فريضة الحج والاخذ عن العلماء والفقهاء والاتصال بأهل الفضل والخير .

شخصيته

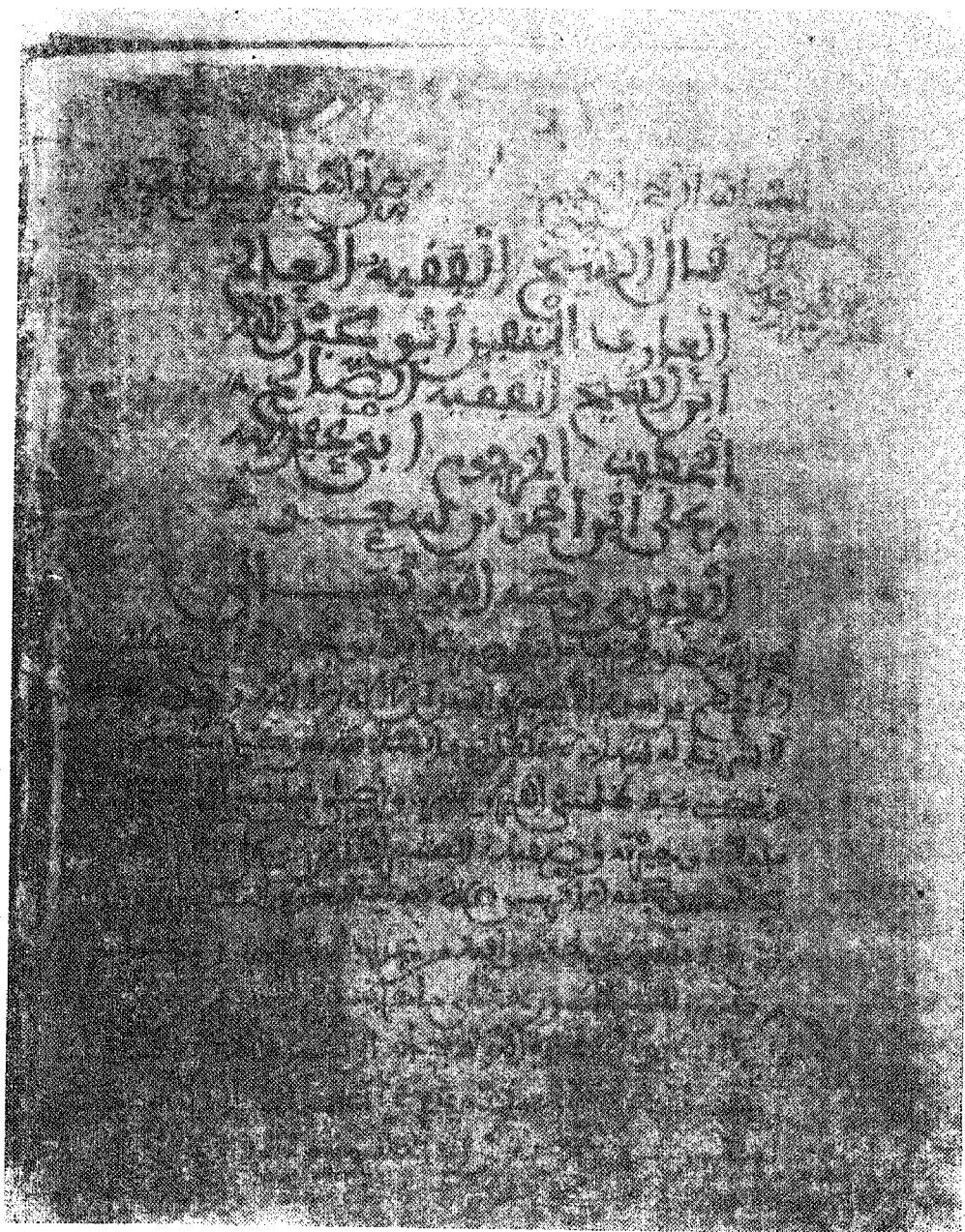
تظهر شخصية العبدري فى رحلته قوية عنيفة حادة ، ذات صلابة ومناعة ، يتوفر على ارادة حديدية تجعله يقطع القفار ويقترحم المشاق بل الاخطار متحملا كل عناء وكل خوف وتهديد للوصول الى الغاية المنشودة ؛ وهو فى ذلك واصل وبالغ مراده مهما كلفه الامر من ثمن . ونحن فى أبرار هذه المميزات الشخصية لم نعتد على ما قاله أو حكاه فقط ، بل على ما صدر منه من سلوك ، أو ردود فعل تلقائية على الخصوص . تساعد الباحث على سبر غوره وتحليل نفسيته للاطلاع على العوامل الخفية والظاهرة التي تخلق تلك الشخصية بتفاعلها وتكاملها أو تناقضها . لقد كان العبدري أثناء رحلته فى ثورة دائمة ، لا يطمئن له بال ، ولا يستقر له حال ، قليل الاقتناع ، صعب الارضاء ، بعيد الهدف ، كثيرا ما ينفعل ويقلق ويفضب لادنى اصطدام أو مثير بسيط صادر عن البيئة المادية أو الاجتماعية . فهو اذن من النفوس الصعبة ، المعقدة ، الشديدة الانفعال والاحساس ، الشيء الذى جعله يكثر من النقد بل من الهجوم ، وتتبع العيوب والعورات وابراز السوآت ، مهتما بالناحية السلبية على الخصوص ، سواء آكان الامر يتعلق بالاشياء أم بالاشخاص ، الا أن هذا الانفعال السريع وهذه الحساسية الشديدة فى شخصية العبدري لم يكونا من ذلك النوع الذى يقعد بالفرد وينزل به الى مستوى الوجدان المجرد وميدان العواطف البسيطة التي تذيب شخصية صاحبها وتقضى على نزوعه وتفكيره ، فيصبح مستسلما ، خاضعا راضيا بالواقع ، مكتفيا بالموجود ، كلا ! ان العبدري لم يكن من هذا النوع السلبي لا فى سلوكه النفسى ولا فى سلوكه الاجتماعى ، لقد كان بطبعه من النفوس المنغلقة التي يعيش فيها «الانا الداخلى» حسب اصطلاح علم النفس ، عيشة قوية تطفى على الانا الخارجى أو «الانا الاجتماعى» كما يقول علماء النفس التحليلي . لذلك نراه كثير الانقباض ، شديد السخط ، حتى اذا ما اتصل بغيره أو بمعطيات بيئته رأيناه يصطدم بسرعة اصطداما ذهنيا وانفعاليا واجتماعيا ، فينفجر سخطا . لكن هذا الانقباض وهذا الانفعال كانا لمترجمنا بمثابة دافع خلاق لردود فعل قوية ، ونزعات شديدة ، سرعان ما تتحول الى رغبة ، أو فكرة بناة أو نشاط دائم ، وقد كنا نرغب فى الالمام

بمعطيات البيئة التي عاش فيها لمعرفة العوامل الخفية التي كانت وراء هذا النوع من السلوك النفسى ، الا أننا مع الاسف لم نظفر بقليل. أو بكثير لتحقيق هذه الرغبة، بل كل ما هنالك أن قبيلة حاحا التي عاش فيها العبدري لم تكن فى ذلك العصر من القبائل التي كان لها نشاط اجتماعى أو ثقافى ملحوظ ؛ فهي تقع بالقرب من مدينة الصويرة ، وتشكل ضاحية من ضواحيها المعروفة بتغلغلها فى الحياة البدوية المنزوية ، ايكون ذلك عاملا من العوامل التي كونت شخصية العبدري ؟ ذلك ما لا نستطيع الآن الاجابة عنه رغم كون التجارب وحقائق علم النفس التحليلي تثبت أن الانقباض النفسى والتشاؤم المستمر هما نتيجة لحياة فردية ضيقة ، طابعها الانعزال ، وأساسها التمسك بالتقاليد والعادات القديمة .

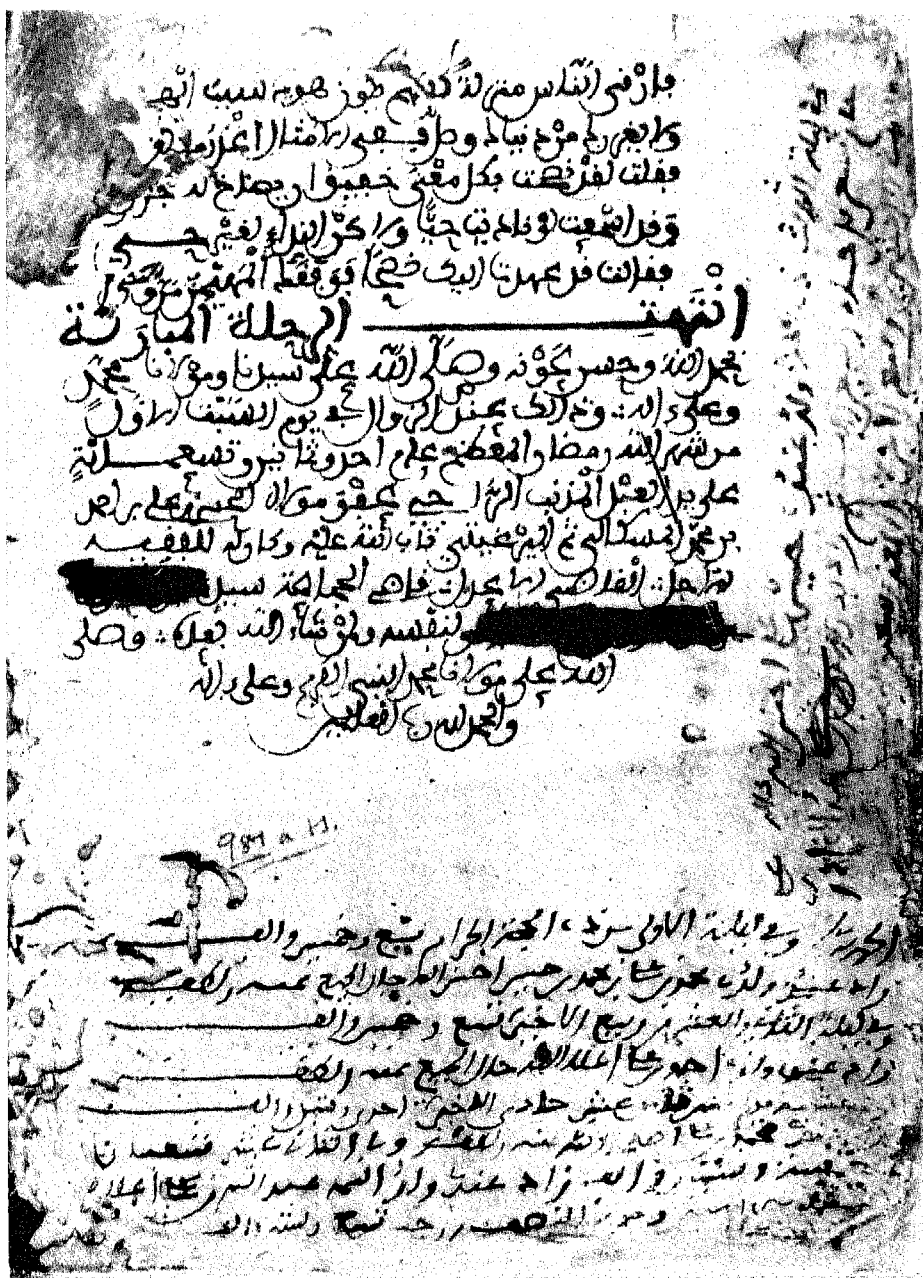
ثقافة العبدري

ليس من الصعب أن تقف هنا على نوع الثقافة التي تلقاها العبدري ، وليس بعسير أن نبين فروعها ما دام صاحب الرحلة نفسه يبرهن فى مؤلفه عن جذارته وكفاءته العلمية وسعة اطلاعه وخبرته الادبية ، فهو يكثر من ذكر الآيات القرآنية ويستشهد بأحاديث نبوية تدل على اطلاع واسع ورواية متينة وسند قوى فى علم الحديث . فاذا نزل بمكان ما بادر الى البحث عن ثقافته وشيوخه وفقهائه لياخذ عنهم أو يحقق فى سندهم أو فيما روى عنهم ؛ فهو فى كل هذا شديد الرغبة فى التحصيل وتوسيع معلوماته ، جاد فى الادراك ، صابر عازم ، متواضع أمام الشيوخ ، غير متساهل فيما يعرض له من اخبار أو روايات ، شديد الثقة بنفسه وثقافته ، وبسلطته الروحية والمعنوية ؛ يجادل ويناقش وينتقد كثيرا ، الشيء الذى يدل على ثقافة واسعة شاملة وامكانيات غزيرة ومواهب فكرية ملحوظة . يتدخل فى المسائل الفقهية فيشرحها ويبين وجهات النظر المختلفة فيها سواء عند القدماء أو عند معاصريه ثم لا يفوته أن يبين موقفه من كل ذلك معارضا أم مؤيدا ؛ أما الفن الادبى فهو الميدان الذى يصل فيه ويجول ، ملم بأسسه وفروعه ، عالم بقديمه وحديثه ، حافظ لكثير منه ، متضلّع فى علم البلاغة ، متقن لاقسامها ، يقرض الشعر بسهولة ، وينتقد الشعراء مبينا ما لهم وما عليهم ، ناصحا لهم باتباع أحسن الطرق لاجادة النظم . كل ذلك واضح فى رحلته ولا يتسع له المجال هنا للاستشهاد به .

تلك هى شخصية أبى عبد الله العبدري وذلك هو تكوينه : مغربى متأثر ببيئته مسلم محافظ على عقيدته ، فقيه أديب وعالم لغوى



الصفحة الاولى من «الرحلة المغربية» للعبدى . مخطوط الخزنة العامة بالرباط
رقم د 1012 .



الصفحة الاخيرة من الرحلة المغربية للعبدي رقم د 1012 .

آثاره

لا نعرف للعبدري لحد الآن اثرا سوى رحلته المعروفة باسم «الرحلة المغربية» التي توجد منها نسخ كثيرة في مختلف الخزانات العربية وغيرها والتي بقيت مخطوطة الى أن من الله عليها بيد الاستاذ احمد بن جدو الذي اخرجها من طسى المخطوطات فحقها واعد بها كلية الآداب الجزائرية التي نشرتها بواسطة مطبعة البعث بقسنطينة (بدون ذكر تاريخ النشر) . الا ان هذا التحقيق بقي ناقصا اذ الرحلة اطول مما يظنه الاستاذ المحقق ومن المؤكد انه لم يعثر الا على جزء منها نظرا لكون الرحلة في تحقيقه لم تصل الى الديار المقدسة ولم تتناول كماداتها هذه الديار بالوصف والخبر . ولقد علمنا ونحن نتصفح اوراق مخطوطها بالخزانة العامة بالرباط ان الاستاذ محمد الفاسي يستعد لنشرها كاملة في اقرب الايام وليس من شك في انها ستسد هذا النقص وتكمل مشروع ابن جدو . (1)

ابن رشيد

عرف العصر المريني ، من بين العلماء والفقهاء والادباء ، شخصية اخرى لامعة طار صيتها في المشرق وفي المغرب وخلدت شهرتها الى اليوم . لذلك كان لا بد من الاهتمام بها والتعريف بها نظرا لما تركته في البيئة المغربية من اثر وما سجلته في الميدان الادبي والثقافي على العموم من نتائج كان لها نصيبها الاوفر في تشجيع الحركة العلمية آنذاك ، واعنى بها ابن رشيد الذي تحدث عنه بعض المصادر بشيء غير قليل من التبجيل والتعظيم . ولقد ورد اسمه في هذه المصادر بدون التباس او تضارب آراء خلافا لما رأيناه في تراجع الشخصيات الاخرى . فهو باتفاق الجميع ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن ادريس ابن سعيد بن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر الفهري السبتي . كانت ولادته سنة 657هـ بمدينة سبتة تلك المدينة التي أشرنا فيما قبل الى ما كانت عليه من حضارة وخير وصلاح ، تلك المدينة التي انجبت من الفقهاء والعلماء والادباء ما لم تنجبه الا كبريات المدن المغربية وبعض البيوتات العلمية التي لا يتسع المجال لذكرها هنا . والمهم في الامر ان صاحبنا ولد ونشأ بهذه المدينة وتربى في تياراتها الفكرية وموجاتها العلمية والادبية . فكان من الطبيعي بل حتميا ان ينال منها وتقال منه بالتفاعل والتكيف المادي والاجتماعي . وبالفعل أخذ مترجما كعادة اهل بلاده وزمانه يحفظ القرآن وامهات النحو واللغة والادب والفقه والحديث .

[1] لقد انجز الاستاذ محمد الفاسي هذا المشروع الثمين الذي افاد كثيرا من المتطشيين للرحلة المغربية .

فتضلع من كل ذلك وتشبع خصوصا بروح الاسلام وعقيدته الخالصة من كل بدعة او تحريف او زيف ، ولم يزل على ذلك الى ان بلغ من السن رشده ، ومن الثقافة حظا وافرا ، فجلبه التيار الاجتماعى الذى كان سائدا فى عصره الى أن يقتدى بمن سنوا السنة ، وشرعوا الطريقة للوصول الى الهدف الاسمى ، والحصول على القيم والمثل الاجتماعية السائدة ، ذلك ان فريضة الحج اصبحت مقرونة برغبة اخرى قد تكون هي الوسيلة او الغاية عند جماعة يتسابق افرادها نحو اداء الواجب الدينى ونيل المعرفة والاحتكاك بأهلها والاستفادة من مصادرها الاصلية ردا للامور الى نصابها وضبطا لاحكام والسنة والرواية .

بهذا المحصول العلمى المتين سافر ابن رشيد سنة 683هـ الى البقاع المقدسة سالكا الطريق التى تفيدته ، ومعرجا على الاماكن التى تعجبه وتشتهد اليها رغبته ، فاتصل بكبار العلماء ومشاهير الفقهاء والمحدثين مجالسا ، مناظرا ، آخذا او معطيا الى أن اشفى غليله ، ثم قفل راجعا الى وطنه ومسقط رأسه سبته بعد تغيبه عنها نحو ثلاث سنوات (680) فكانت هذه الرحلة من أهم الاحداث وأخطرها فى حياته ، اذ زادت شهرته ونبوغا ، ووضحت انجاهاته الفكرية والروحية ، وأبرزت ميوله ، وأفسحت المجال لمواهبه واستعداداته ، وقوت مكانته فى الشرق والغرب ، وبعبارة أوجز عملت على تكوين شخصيته وتثبيت معالمها وتركيز اسمها وتحديد مصيرها ، الشيء الذى جعل ابن الخطيب يحكم له بما نصه (I) : «كان فريد دهره عدالة ، وجلالة حفظا وادبا وسمتا وهديا ، واسع السمعة ، عالى الاسناد ، صحيح النقل ، أصيل الضبط ، تام العناية بصناعة الحديث قيما عليها بصيرا بها محكما فيها ، ذاكرا للرجال ، جماعة للكتب ، محافظا على الطريقة مضطلعا بغيرها من العربية واللغة والعروض ، فقيها ، أصيل النظر ، ذاكرا للتفسير ريانا من الادب ، حافظا للاخبار والتواريخ مشاركا فى الاصلين ، عارفا بالقرآن عظيم الوقار والنسكينة بارع الخط ، حسن الخلق ، كثير التواضع» تلك هي شهادة ابن الخطيب فى ابن رشيد وهي شهادة كافية للدلالة على نوع ثقافته وكميتها ، اذ يبدو فيها محيطا بانواع كثيرة من العلوم والفنون وكانه دائرة معارف ، وبناء على ذلك فهو أديب ، وفقه ، ولغوى ، ونحوى ، ومحدث ، ومؤرخ وراوية ومقرئ ، ورجل خير وصلاح . وتلك امكانيات وصفات لا تتوفر الا لمن كان ذا حظ وافر من المواهب العقلية والاستعدادات الخلقية ، فهو من الناحية العقلية ذكى ، لان الالمام بتلك العلوم والتفوق فيها ليس فى متناول عقل متوسط ، ومن الناحية الخلقية قوى الارادة ، شديد الرغبة ، عامل على تحقيقها ، جاد فى تنفيذ اهدافه ومشاريعه مهما كانت العنسات والاهوال المحن . اما من الناحية النفسية فلقد كان منشرحا ، منبسطا ، كثير الاتصال بغيره ، مقبلا على الاجتماعات والمجالس ، ميالا الى المؤانسة والتعاطف

والتعاشي ، كما شهد بذلك ابن الخطيب حيث يقول في احاطته (I) : «... كثير التواضع ، رقيق الوجه ، متحملا كلف الخاصة والعامة ، مبذول الجاه والشفاعة ، وأما من الناحية الدينية الصرفة فالمعروف عنه أنه كان كثير العبادة ، شديد التقوى . بل زاهدا ومنصرفا عن ملذات الحياة ونعيمها ، متمسكا بظاهر الحديث والسنة الى درجة جعلت البعض يشك في اخلاصه لمذهب مالك ويتهمة باعتناق المذهب الظاهري .

ذلك هو ابن رشيد كما يتجلى في آثاره ، وتلك ثقافته وأخلاقه ، وتربيته بصفة عامة . اعتمدنا في تحليلها على ما رواه عنه معاصروه او من ترجموا له ، كما رجعنا في ذلك الى آثاره وخصوصا رحلته التي سجل فيها نزوعه وميوله واتجاهاته وسلوكه عن قصد او غير قصد ، وكذا انفعالاته وردود فعله التلقائية التي كثيرا ما تعبر عن ما يختلج في نفسه من مشاعر وعواطف واحاسيس قد لا تتاح لها الفرصة للتعبير عن نفسها داخل الاطار الاجتماعي المقنن بالقيود الاخلاقية والمثل العليا المجتمعية التي تكون حجر عثرة في التعرف على السواقع النفسية واكتشاف السريرة واكتناه ما تخفيه الصدور وتحجبه طبقات اللاشعور .

وكانت تلك الثقافة الواسعة ، وتلك الشهرة الذائعة من اهم اسباب تطور حياته الاجتماعية واقباله على مراحل حاسمة بل خطيرة في بعض الاحيان ، ذلك انه سرعان ما انتقل ، بعد مدة قصيرة قضاها في سبتة بعد رجوعه من رحلته الى العدو الاندلسية ، ملبيا بذلك دعوة صديق حميم له ، الوزير أبي عبد الله ابن الحكيم الذي زين له المقام وجبب له الهجرة ومهد له الجو ، وهيا له اسباب السلطة والجاه والمكانة المرموقة في الحضارة الغرناطية حيث أصبح اماما وخطيبا بمسجدها الاعظم ثم قاضيا من قضاتها . لقد ظل يتحمل اعباء هذه المسؤوليات الضخمة ويتمتع بهذه المكانة السامية الى ان انقلبت الاحوال في تلك الظروف وفي تلك البيئات ففاجأته بمصيبة اصابته في شخص سيده وولي نعمته الوزير ابن الحكيم الذي ربط مصيره بمصيره ، فاضطر لمغادرة العدو الاندلسية خوفا من أن يذهب ضحية اغتيال كصديقه ، ففر راجعا الى وطنه سنة 708هـ ولم ينج بنفسه الا بمعجزة .

ابن رشيد في البلاط المريني

اقبل ابن رشيد بعد هذه الفاجعة على مرحلة اخرى من مراحل حياته الطافحة بالاحداث والمسؤوليات على الصعيد الاجتماعي وعلى الصعيد الرسمي ، فكانت ثقافته وتكوينه مرة اخرى سببا لرقبه ورفع شأنه ، اذ سرعان ما تلقفته ايدي ملوك بني مرين ، وقربته منها باذلة له كل السهولات وخصته بعطفها وكرمها حتى نال

من العز والسؤدد في وطنه ما كان له خارج وطنه وكان ذلك على أيدي السلطان
أبي الربيع ثم على أيدي السلطان أبي سعيد بصفة خاصة وظل مقربا ، معزز الجانب،
موفور الكرامة سواء أثناء مقامه بمراكش (I) أو بعد رجوعه منها إلى أن توفي سنة
721هـ و «دفن خارج باب الفتوح بمطرح الجنة»

آثاره

ترك لنا ابن رشيد مؤلفات كثيرة منها قصائد وإبيات متناثرة في طيات
الكتب الادبية والتاريخية ، نذكر من هذه المؤلفات :

- (1) المجامعة بين البخاري ومسلم
- (2) ايضاح المذاهب فيمن يطلق عليه اسم صاحب
- (3) السند الابن في السنن المعنعن
- (4) ايراد المريع لرائد التشجيع والترصيع
- (5) احكام التأسيس في احكام التجنيس
- (6) وصل القوام بالخوافي في ذكر أمثلة القوافي
- (7) جزء في مختصر في العروض
- (8) تقييد على كتاب سيبويه

الا ان اهم ما خلفه لنا ابن رشيد هو رحلته « ملء العيبة فيما جمع بطسول
الغبية في الوجهتين الكريمتين مكة وطيبة »

ولقد اجمع المؤرخون والادباء على أن هذه الرحلة هي اعظم رحلة مغربية الفت
في هذا العصر ، نظرا لقيمتها العلمية وما انطوت عليه من فوائد جملة لا يمكن
معرفة الا بعد الاطلاع عليها والقيام بتحليلها .

ابن داود السلوى

ليس من شك في أن كثيرا من المشاهير المغاربة قاموا في ميدان العلم والمعرفة
بخدمات جليلة ادوها سبابتين ، راضين ، مطمئنين ، غير مباينين بامتيازات مادية أو

(1) يذكر آبن القاضي في الجدوة صفحة 192 انه بعد فراره من الاندلس ورجوعه الى المغرب
اختار ان ينتقل الى مراكش فتولى بها الخطابة والامامة وذلك بعد موافقة السلطان أبي الربيع المريني
على هذا الاختيار .

عطايا مالية كانت تغدق على كثير ممن خدموا البلاطات وتقربوا من الملوك والرؤساء وذوى الجاه والنفوذ طمعا فى مالهم ، او فى وظائفهم ، او فى هدايا مختلفة تعود عليهم بالمال او بالنفوذ . ولعل صاحبنا هذا كان من هذا النوع البشرى الذى يحب العمل فى الخفاء ويسلك سبيل الانزواء والانطواء ، ويفضل التستر على الجهر ، والظهور بمظهر الرئاسة ، وكثيرون هم الذين سلكوا هذا السلوك واخفوا به نبوغهم وعبقريتهم ، فلم يهتم بأرائهم او ابحاثهم احد ، لانهم جنوا على انفسهم بهذا الانزواء والانقباض . ولقد سبق ان رأينا ونحن نتعرض لبعض الشخصيات المغربية ان كثيرا منهم من اهمل نفسه ، وقبع فى زاوية اجتنابا لكل اتصال ، وكل احتكاك وظهور . من هؤلاء ابو العباس القتياب الذى ، رغم غزارة علمه ، وطول باعه فى الادب والشعر ، كان يتستر وراء حجب كثيفة وكاد اسمه ينمحي لولا جهود الباحثين المنقبين عن آثار الاجداد ، وكذلك كان الامر بالنسبة لعبد العزيز الملزوزى ، فقد ظل هو الآخر مجهولا مغمورا رغم ما نقله بعض المؤرخين وكتاب التراجم من ابيات ارجوزته استشهدوا بها عند الحاجة

على أن السبب فى هذا الانزواء وهذا الاختفاء اذا كان راجعا الى الفرد نفسه ، الى طبيعته ، الى ميوله ووجدانه ومزاجه ، فان الظروف الاجتماعية كثيرا ما تغطي على الفرد وتسلبه فعاليته وايجابيته ، وتقعده به الى الدرك الاسفل جاعلة منه شخصا منسجبا ، منسلبا ، قابعا وراء سلسلة من الحوادث ، رغم ارادته القوية ، وقدرته على الخلق والابداع ، وخوض المعارك جنبا الى جنب مع الفطاحلة والعباقرة .

ثم ان هناك ظاهرة اخرى لا يجب ان نغفلها لما لها من خطورة على تاريخ الحضارة العربية بوجه عام والحضارة المغربية بوجه خاص ، ذلك ان جل المتقنين الذين تعرضت لهم المصادر التاريخية بقليل او بكثير من التفاصيل كانوا فى أغلبهم من ملازمى الملوك او من المقربين اليهم ، اما غيرهم فقد ظلوا مهجورين مغمورين رغم ثقافتهم الغزيرة وتضلوعهم فى العلوم العقلية والعقلية . هذه ظاهرة اجتماعية يجب أن يقيم لها وزنها نظرا لما تتركه من تأثير فى ذهن المؤرخين والادباء ومن ضبط غير مباشر يجعل الباحث ينساق وراء احكام مخالفة للحقيقة وللواقع .

لذلك يجب على الباحث ان يتزود بكثير من التحرى والاحتياط كي لا تنبئ احكامه على الدعاية الناشئة عن كثرة ترديد القول والحديث عن شخصية ما . ان هذه الاعتبارات هى التى تجعلنا نرجح ان الادب المغربى ، لاسيما فى «القرون الوسطى» ، أدب استقراطى وبرجوازى فى نفس الوقت .

ومهما يكن من أمر ، وسواء كان السبب راجعا الى عوامل نفسية او اجتماعية فمترجمنا ظل مغمورا مجهولا ، لم تشر اليه المصادر التاريخية او الادبية ولو اشارة خفيفة ، بل لم تذكر حتى اسمه فضلا عن ان تتعرض لحياته او لآثاره . ولذلك يمكننا ان ندعى اننا اول من يتناول الحديث عنه واول من يتعرض لآثاره للتعريف بها واطلاع القراء عليها تكميلا للفائدة ، واحياء لتراثنا الادبى الذى ظل فى مجمله

غير معروف ، رغم ما نشر منه من مقالات أو أبحاث وكتب تعتبرها كلها نسبة ضئيلة من ذلك التراث الضخم الذى خلفه اجدادنا المثقفون .

وبعد فبينما كنا نبحث (I) فى المصادر التى تهم بحثنا هذا اذا بننا نجد فى قسم المخطوطات من الخزانة العامة بالرباط ، مخطوطا تحت رقم ح ك 360 يحمل العنوان الآتى : «نوادير النظام فى شرف سيدى الانام» . وبعد تصفحنا لاوراقنا ادركنا أن مؤلفه كان معاصرا للدولة المرينية وان من المحتمل أن يكون كاتبه هو مؤلفه نفسه . ذلك ان الصفحة الاخيرة منه كما يتضح فى الصورة المقابلة تنص على أن وقت الفراغ من كتابته كان أواسط شوال سنة 812 هجرية .

فمن هو اذن ابن داود السلوى ؟

نظرا للاسباب التى ذكرناها آنفا ، لقد تعذر علينا الوقوف على معلومات تتعلق بحياته او بتربيته او بثقافته وتكوينه . كل ما استطعنا ان تقصوم به هو اننا ، تعويضا لهذا النقص ، لجأنا الى مؤلفه علنا نعثر على شيء يفيد فى الموضوع . الا أننا مع الاسف لم نظهر بشيء لان المؤلف نفسه لم يتعرض لاي جانب من جوانب حياته ، خلافا لما فعله بعض الادباء والمؤرخين الذين تحدثوا فى ثنايا كتبهم بصفة مباشرة او غير مباشرة عن الظروف التى عاشوا فيها والاحداث التى مروا بها . قرأنا بامعان هذا المخطوط الذى نحن بصدده ومع ذلك فلم نجد مع الاسف اشارة خفيفة او كلمة عابرة تثير السبيل او تلقى بعض الضوء على جانب من جوانب حياة المؤلف لقد ذكر ، كما يرى فى الصورة التى اثبتناها هنا . اسمه واصله حيث يقول فى الصفحة الثانية : «يقول العبد الفقير الى رحمة ربه من كل جهاته المتوكل عليه فى حركاته وسكناته معتمد بن قاسم ابن داود السلوى .» اما كنيته فهى ابو عبد الله كما يستفاد من عنوان المخطوط . ذلك كل ما وقفنا عليه فيما يرجع لاسمه ونسبه وحياته .

أما فيما يتعلق بثقافته وتربيته فللباحث أن يرجع الى مؤلفه «نوادير النظام فى شرف سيدى الانام» ليجد فيه أن مترجمنا كان متشعبا بروح الاسلام وبتعاليمه ، محافظا على الاخلاق النبيلة ، مناجيا ربه فى كل وقت وحين كى «يعفو عنه ويطهر روحه» مما قد يكون أصابها من دنس وخساسة فى هذه الحياة . وهنا تظهر بكيفية واضحة نزعة الروحية الخالصة بل نزعة الصوفية التى غلبت على شعره حتى جعلته فى بعض المواقف مغاليا متطرفا فى المناجاة والاستسلام تقانيا فى حب الله وسعيا وراء الالتحاق به كى «يخلص نفسه ويطهرها» وهو ان مدح النبى فى منظومته مدحا خالصا نابعا من أعماق القلب ، فان مدحه هذا كان وسيلة اتخذها لتحقيق مأربه . ولا

(I) يرجع الفضل ايضا الى الاستاذ سيدى ابراهيم الكتانى الذى لم يبخل علينا بنصائحه فى هذا الباب .

غربة في كون ابن داود السلوى ينزع هذه النزعة الصوفية في حياته اذا تذكرنا أن البيئة المغربية في عهده كانت بيئة خصبة للزهد والتصوف ومجالا فسيحا وجد فيه المتصوفة عوامل كثيرة شجعتهم على المضي قدما في طريقهم محققين أغراضهم الروحية ، عاملين على كسب ثقة الجماهير الشعبية كي تنضم الى صفوفهم وتتبع طرقهم . وبالفعل تحققت هذه الاغراض وعمت البلاد موجة عميقة من الروحانية والتصوف ، تلك الموجة التي كان لها ما بعدها فيما يرجع لسياسة المغرب الخارجية

والى جانب هذا نرى مترجمنا من خلال شعره فقيها عالما بالاصول راويا للحدوث متمكنا من العلوم العربية ، متضلعا في علم البلاغة والبيان .

والآن ما هي «نوادير النظام في شرف سيدى الانام»

منظومة تقع في 185 صفحة وتشتمل على 960 بيتا . كتبت بخط مغربي جميل ، في ورق متوسط الحجم ، لم تنل الرطوبة منه الا في بعض صفحاته ؛ (10 - 18 - 75 - 82) وهي كلها ، كما يدل عليها عنوانها ، في مدح النبي واطهار فضله على البرية ، وابرار مزاياه الخفية ، وخلقه الكريم وصفاته الحميدة ، وخصوصا المعجزات التي حققها عندما نزل عليه الوحي الى آخر لحظة من حياته يعدد المؤلف هذه الصفات وهذه المعجزات في كثير من الابداع والتصوير والتجسيم وضرب الامثلة المحسوسة وغير المحسوسة ، دون أن يعتريه ضجر أو ملل ، لان عاطفته صادقة واحساسه قوى ووجه للنبي خالص كما يتجلى ذلك في مقدمته التي تقتبس منها هذه العبارات : «وبعد فاني لما تملكني في الجنب انبوى شامخ الغرام ، وتعبدني الشغف في محاسنه المفردة ، واسترقني الهيام ، استسقيت من سحائب مننه الشامخ بواسطة أمداحه الشريفة صيب الغمام ، واستوعبت من طرف المقال في ثنائه الفاخر أعذب الكلام وسميت ذلك بنوادير النظام في شرف سيدى الانام ، ورفعته للذي أبرأ بلمسه السقام» .

تشمل هذه المنظومة على 101 نادرة وكل نادرة تتضمن ما بين 30 و 45 بيتا ، وتختلف القوافي باختلاف النواذر ؛ فالنادرة الاولى دالية والثانية ميمية والثالثة رائية وهكذا بدون ترتيب القبائي . كل نادرة تدور حول معنى رئيسي من معاني الحب والاخلاص يشفعه الناظم ببعض التفاصيل والامثلة الدالة على معجزات الرسول وعلى أخلاقه النادرة التي امتاز بها عن سائر المخلوقات وابن داود في هذا كله لا يسأم ولا يمل ، بل على العكس نراه يطلق لعاطفته ولخياله العنان حتى انه وقع في كثير من التكرار اللفظي والمعنوي ، والاستطرادات التي تخرج به في بعض الاحيان عن الحدود التي رسمها لموضوعه . وهكذا جاء في النادرة التسعين ما جاء تقريبا في النادرة 14 والنادرة 70 . أما اذا غضضنا الطرف عن هذه الملاحظات أمكننا أن نقول ان المنظومة حافظت على وحدتها الموضوعية وعلى انسجام العناصر المتألفة منها وهي الى ذلك غنية بالكلمات والمعاني الدينية والمتراقات اللغوية والتراكيب المتينة والتعابير السليمة .

صاغها صاحبها بلغة سهلة خالية من التعقيد ووحشى الكلام ومن الاسجاع المتكلفة التى تقضى على المعنى وتفنيه لما كان يتوفر عليه من قدرة على نظم الكلام وعلى تنسيقه وتنقيحه واختيار اعذبه وأسلسه ، مما يتناسب والهدف الذى نشده ، والمقام الذى رفع اليه مديحه ، ولاعطاء فكرة عن ما قلناه نورد فى ما يلى بعض الايات من هذه المنظومة نتخذها كنموذج .

النادرة الاولى

نور الوجود وسر معنى الجود	لاحا لاجل محمد المحمود
فالكائنات جليها وخفيها	فى كلها معناه بالمشهود
اى الطريق سوى طريق محمد	للبيض طلب مسيرها والسود
اى الثناء سوى ثناء محمد	قد صار فى الملكوت ذا تخليد

وبالجملة فان هذه المنظومة عمل ادبى ضخم ، بذل فيه ابن داود السلوى مجهودا كبيرا وعناية فائقة من حيث الشكل ومن حيث المضمون . لذلك نعتبرها من المؤلفات النفسية التى جادت بها القرائح المغربية فى عصر بنى مرين ؛ وهى جديرة بالتحقيق والنشر نظرا لقيمتها هذه ونظرا لكونها لا تزال الى يومنا هذا غير معروفة . واننا نأمل أن تتاح لنا الفرصة فى اقرب وقت لتحقيق هذا المشروع احياء للتراث الادبى المغربى ومساهمة منا فى خدمة الحضارة العربية بصفة عامة .

ابن عبد الملك المراكشى

يظل الباحث عن هذه الشخصية المغربية ينقب فى ثنايا الكتب لمعرفة حياة ابن عبد الملك أو الاطلاع على جانب من جوانبها أو الوقوف على شئ ينير له الطريق ، ويستدل به على هذه الظاهرة أو تلك ، لكن تلك المساعي كثيرا ما تبوء بالفشل لاصطدامها بعقبات وعرة ومسالك غامضة لا تجدى نفعا فى الغرض المنشود . ومع ذلك فابن عبد الملك المراكشى من الشخصيات البارزة فى هذا العصر ، ومن الاعلام الذين كان من المنتظر أن يسجل لهم التاريخ بعض المواقف السياسية والاجتماعية أمام الاحداث التى اجتازتها البيئة المغربية فى هذا العصر . كان من المنتظر أن يقف ابن عبد الملك من تلك الاحداث موقفا معينا ، له اثره وعواقبه على هذه البيئة . لان رجلا كهذا ما كان له أن يقف منفصلا ، سلبيا ، لا يؤثر ولا يقوم بردود فعل تتجسم فى بعض الحالات أو بعض الاعمال . ذلك ما كنا نتوقه عندما شرعنا فى تصفح المصادر المختلفة التى تعرضت لابن عبد الملك وأمثاله . الا أننا لم نظفر بمعلومات كافية أو باشارات تكون نواة لتكوين فكرة عن مترجمنا . ذلك ما

جعلنا نتساءل عن هذا السكوت وعن اسبابه . ولعل ابن عبد الملك لم يكن في هذا العصر هو الوحيد الذى منى بهذا الاجحاف . كثيرون هم الذين وقعوا فى نفس الظاهرة ولم تنصفهم بيئتهم لا بقليل ولا بكثير ، بل لم ينصفوا أنفسهم لانهم ظلوا يعملون فى الخفاء ، منزوين ، مجتنبين الظهور والبروز لاسباب راجعة الى جسمهم أو نفسيتهم ، أو تكويتهم التربوى ، أو عوامل أخرى تحول دون ظهورهم على مسرح الاحداث الجارية فى مجتمعهم . ان الامثلة لكثيرة . يكفى أن نشير الى أن العبدى كان هو الآخر مغمورا مهجورا ، لا ذكر له فى ما تتوفر عليه من مصادر الا بصفة عابرة . وعندى أن العبدى شبيه الى حد بعيد بابن عبد الملك المراكشى فى كثير من الصفات والحالات النفسية والظروف التى لا يست حياتهما . فكلاهما من الجنوب ، وكلاهما رحل عن بلاده لاسباب معينة . فابن عبد الملك ، كما يستفاد من آثاره ، ومن المصادر انثى أشارت اليه ، من مواليد مراكش (634) ؛ ومراكش هذه أصبحت فى عصر بنى مرين مدينة تكاد تكون مهجورة من الناحية الثقافية اذا استثنينا وجود شخصية ابن البناء الذى كان بمثابة نور يشع فى ظلام حالك . اننا لا ننسى أن هذه المدينة هى عاصمة الدولة الموحدية المنهارة ، حيث جرت المعارك الطاحنة ، ونهبت الاموال والامتعة ، وخربت الدور والمنازل الفاخرة ؛ فكانت بها الضربة القاسية التى قضت على سلطة بنى عبد المومن . هذه الحوادث جعلت أبناءها الافذاذ يهجرونها خوفا من السوء والاذى ، أو طمعا فى جاه ومال الدولة المنتصرة . ان المصادر التاريخية تحدثنا أن ابن عبد الملك بقى وحيدا فى هذه المدينة باستثناء بعض الافراد المثقفين ، (على رأسهم ابن البناء) زد على ذلك أن مراكش عاصمة المرابطين ، ثم عاصمة بنى عبد المومن مدينة طغت عليها الصبغة البربرية وأصبحت بحكم ذلك وبحكم العصبية القبلية معقلا من معاقل البربر المناوئين لسلطة بنى مرين ، فكانت المعارضة قوية والهزيمة حديثة ، والجروح «طرية» . واذا عملنا أن ابن عبد الملك يرجع فى نسبه الى أصل عربى ، أدركنا مدى بعد الشقة بينه وبين مجتمعه الصغير . ألا يكون ذلك عاملا من العوامل التى كانت وراء اختفائه أو اخفائه ، وطمس معالمه ورقيه ؟ أكان ابن عبد الملك يحس بغربة أو يشعر بضغط مباشر أو غير مباشر ؟ ان مراكش ، بحكم موقعها الجغرافى ، بقربها من الجبال وبعدها عن الشاطئ لم يكن يقصدها من العدو الاندلسية الا عدد قليل من المهاجرين ، اذا نظرنا الى ما كانت عليه فاس من حركة دائبة وتعايش بين الاسر الاندلسية المهاجرة وبين السكان الاهليين . ما كان أبعد مراكش عن هذه الحركة الهجرية التى عاشها المغرب فى عهد بنى مرين ! ومع ذلك فابن عبد الملك كان قاضيا كبيرا فى عهد السلطان أبى يعقوب يوسف ثم تركها وارتحل الى تلمسان حيث توفى سنة 703 هـ .

الا يدل ذلك كله ، من الناحية النفسية ، على شخصية منقبضة شديدة الحساسية ... فائرة على الاوضاع ، نزاعة الى اجتناب المحافل والمجالس الرسمية التى يكثر فيها الجلوس والندماء والراغبون فى الخطوة والجاه ؟ قد يكون ذلك وقد

لا يكون ؛ وانما الثابت عن صاحبنا أنه كان حاد الطبع ، قوى المزاج ، شديد اللهجة ، لاذع النقد ، كثيره ، سريع الانفعال غزير ردود الفعل . تلك ظاهرة واضحة في مؤلفه حيث وقف من المؤرخين والادباء الذين ترجم لهم مواقف خاصة ، تقريبا عدائية ؛ وتلك سمات خلقية راجعة الى الوراثة كما يكون السبب فيها البيئة التي عاش فيها الفرد ونما . وفي البيئة التي عاش فيها صاحبنا ما يكفي لخلق هذه الحدة ، وهذه القوة الانفعالية التي تجعل من «الفرد عنصرا قوى ردود الفعل ، وبالتالي كثير الاصطدام ، الشيء الذي يعتبره الناس نقدا جارحا ، أو تهجما ، أو تحاملا على الغير . ذلك ما امتاز به مترجمنا كما يستدل به بعض من تحدثوا عنه أو كما يستنتج من آثاره . وهو يلتقى مرة أخرى في هذه الصفات وفي هذا النوع من الشخصية مع صديقه وأستاذه العبدري صاحب الرحلة المغربية ؛ فكلاهما اشتهر بالنقد اللاذع وبتتبع سوآت الادباء وعيوب المؤرخين ، مع هذا الفرق وهو أن العبدري كان يصب غضبه على الانسان وعلى الاشياء بينما كان ابن عبد الملك يسلط لسانه خصوصا على مترجميه . لقد عاشا جميعا منزويين ، في بيئة أقرب الى البداوة منها الى الحضارة بالنسبة لما كانت عليه فاس من رقي ، وازدهار عمراني ، ونشاط فكري وعلمي في هذا العصر الذي نؤرخ له .

الا يكون ذلك «الاندفاع ، وتلك الفعالية ، وتلك القوة التعبيرية المتجسمة في النقد الصريح وفي اظهار مواطن الضعف والقوة ، وتمييز القبيح من الخبيث ، وفي البحث عن الجيد ، الا يكون ذلك علامة من علامات الذكاء والنبوغ ؟ ان روح النقد لا تتأني عادة الا لمن يتوفر على مواهب عقلية خاصة تجعله يفتن لما خفى من الامور ، ولا يتأثر بالمظاهر السطحية البراقة التي تخفى وراءها الضعف والفشل ، كما تجعله حساسا بأدنى فلتات اللسان وأبسط الزلات . ان روح النقد دليل على دقة الملاحظة ، وشدة الانتباه ، وقوة الادراك ؛ كما أنها تجعل الفرد قليل التساهل ، بعيد النظر ، من الصعب ارضاءه وكذلك كان ابن عبد الملك بشهادة معاصريه أو بعض من ترجموا له أو كما يستفاد من آثاره .

ثقافته

علمنا أن ابن عبد الملك المراكشي كان قاضيا ، بل قاضي الجماعة بمراكش وفي ذلك دليل على نوع ثقافته وتكوينه . ان هذه الخطة الرفيعة كانت لا تسند الا لمن كان له باع طويل في الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك من العلوم الشرعية . لان المفروض في قاضي الجماعة ان يحدث في أمور دينية محضة وفي مسائل ونوازل فقهية قد تستعصى على الفقهاء والعلماء ؛ كما يكون قاضي الجماعة ، حسب التقاليد المرعية آنذاك ، اماما وخطيبا يحدث الناس ويفقههم في أمور دينهم ، ويشرح لهم ما صعب عليهم من قضايا وأحكام . فهذه الخطة وحدها كفيلة بأن تجعل من يتولاها في

المستوى المطلوب ، لاسيما في زمن بنى مرين حيث كانت المقاييس صعبة ، والشروط كثيرة وحيث كثر التنافس والتسابق على مثل هذه الوظائف وغيرها ، نظرا لكون المغرب فتح أبوابه على مصراعيها لابتناء العدو الاندلسية ، ولغيرهم من الجزائريين والتونسيين ، مما يؤدي الى رفع المستوى وعدم التساهل في الحصول على الوظائف الرسمية . على أن ابن عبد الملك كان الى جانب ذلك ، كما ذكره صاحب صلة الصلة (1)، أديبا وشاعرا ومتضلعا في علوم اللغة . له المام كبير بالتاريخ وبالحديث ، مما يدل على ثقافة اسلامية واسعة ، متينة الاسس ومتشعبة الفروع . أخذ هذه العلوم عن عدة أساتذة وشيوخ نذكر منهم مالك ابن المرحل وأبا جعفر بن الزبير ، وأبا اسحاق الغشاس وأبا الحسن الرعيني وأبا عبد الله بن خميس والعبدي (2)

آثاره

ترك ابن عبد الملك المراكشي شعرا ونثرا ، فكان حظ الاول النسيان أو الإهمال ، أو فقدان ، لان ما وقفنا عليه منه يعد شيئا قليلا بالنسبة لما أشار اليه نفسه أو مؤرخوه . أما فيما يرجع لانتاجه في النثر فقد خلف مؤلفا ضخما عظيما كان السبب في تخليد اسمه وتركيز شهرته ؛ ذلك المؤلف العظيم هو : «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» اختلف المؤرخون في عدة اجزائه الا أنها في الغالب تقع في تسعة مجلدات . وقد بذل ابن عبد الملك فيه جهودا جبارة وعناية خاصة تجلت في التراجم الوافية التي أتى بها في كتابه ، والتي لم يسبقه اليها أحد من مؤلفي كتب السير والتراجم . ويبرهن في كتابه هذا عن مقدرة علمية فائقة ، وعن تصرف في اللغة تصرفا مطلقا جعله في بعض الاحيان يتلاعب بالمفردات ، ويسخرها بكل حرية وطلاقة لتأدية معانيه ؛ وهو وان لم يكثر من السجع ، فان جملة وعباراته لا تكاد تخلو من تعقيد نظرا لما يطفئ عليها من جناس وطباق وصور مختلفة تتجلى في الاستعارات التي كثيرا ما يلجأ اليها ، مما يدل على تكوينه الادبي المتين وعلى شاعريته التي تظهر متفتحة في غير هذا الكتاب .

(1) انظر ابن الزبير ، صلة الصلة (نشر ليفي بروفنسال الرباط 1938) صفحة 95 .

(2) انظر في هذا الموضوع بحثا مفصلا للبحثة محمد العابد الفاسي الفهري مجلة دعوة الحق السنة الثانية ع 4 و 5 و 6 .

ابن البناء المراكشي

كان القرن السابع هـ على موعد مع ميلاد أعظم شخصية مغربية عرفها العصر المريني فيما يرجع للعلوم العقلية وبالأخص منها علوم الهيئة والكيمياء والرياضيات ؛ بل لم يسبق للمغرب أن عرف مثل هذه الشخصية النادرة ، الفذة ، العبقريّة ، الخارقة للعادة بذكائها الوقاد ، بذهنها الثاقب ، وبمواهبها الفطرية التي أدهشت المغرب والمشرق بقدرتها على الخلق والابتكار ، وبافتحتها لأنواع شتى من العلوم النقلية والعقلية ، تستوعبها كلها وتهضمها بدون ما ضجر وفي أقصر مدة ممكنة .

إنها شخصية ابن البناء المراكشي ، ذلك الاسم الذي كان بمثابة نور ساطع ، ظل يلمع في هذا العصر وفي العصور التالية التي انتفتحت بأشعاعه وبأشراقه . فكان مقخرة لدولة بنى مرين وللبيئة المغربية ، وللعالم العربي كله . ملأ الدنيا بسمعته ، وشغل الأفكار ، وجلب اليه الانظار من كل ناحية ، فتصدت اليه أقلام لتتعرف عليه وتعرف به ، ولتبحث تراثه وتحلله وترجمه الى لغات أجنبية مختلفة ، نظرا لقيّمته النفسية ولآثاره البعيدة المدى في التفكير الانساني بأجمعه .

تحدث عن ابن البناء معاصروه وغير معاصريه من المتقدمين والمتأخرين ؛ وتعرض له جهابذة الفكر ، وأعلام الثقافة في المشرق والمغرب ، ورواد الفلسفة والسياسة ، ومشاهير المؤرخين والادباء فتناولوه كلهم بالثناء ، والتعظيم ، والتبجيل ، واعترفوا له بالفضل الكبير . يكفيك أن ابن خلدون (وناهيك به) ذكره في مقدمته وعلق على انتاجه بكثير من التقدير والاعجاب ؛ فلنسمعه يقول في الفصل الذي عقده للحديث عن العلوم العددية : «ومن أحسن التآليف المبسولة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ، ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ، ضابط لقوانين أعماله ، مفيد ثم شرحه بكتاب سماه : (رفع الحجاب) وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني ، وهو كتاب جليل القدر ، أدركنا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك» (I) ذلك ما قاله عنه ابن خلدون . نكتفي به إذ ليس من الممكن أن نأتي بأقوال جميع من نوهوا به واعترفوا بجدارته واستحقاقه ، ذلك لأنهم كثيرون ، وأحكامهم تكاد تكون كلها واحدة ، مجمعة على شيء واحد وهو التقدير والاعجاب .

مولده

ولد أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي ، الملقب بابن البناء بمراكش سنة 654 هـ . لم يقع أي اختلاف بين المؤرخين في هذا التاريخ كما جرى بالنسبة لعدد كبير من أعلام هذا العصر ، إلا أن هؤلاء المؤرخين كانوا متضاربين متناقضين عند ما تحدثوا عن تاريخ وقاته . ومع ذلك فالرأي السائد

(I) المقدمة (الطبعة البهية المصرية بدون تاريخ) ص. 421-422 .

هو أن هذه الوفاة كانت سنة 721هـ أما مكان ازدياده فقد كان بحى قاعة بناهض ، وهو حى من الاحياء المراكشية العتيقة المشهورة بحضارتها ورقى مستوى سكانها ، وهو قريب ايضا من جامعة ابن يوسف المشهورة ، تلك الجامعة التى ظلت على مر الزمن منبع الثقافة والحضارة الاسلامية فى العاصمة الجنوبية كما كان الشأن بجامعة القرويين بفاس . اما منزله الخاص فالغالب على الظن انه كان بهذا الحى الذى عرف به ، ولقد حملنا على هذا الظن ما استنتجناه من مشاهدتنا لبعض الآثار القديمة ومن الاتصالات المختلفة التى اجريناها مع بعض الشخصيات وبعض سكان أهل مراكش من ذوى الخبرة فى هذا الميدان والتجربة المبنية على طول العمر والاهتمام بالآثار . وهذا ما يخالف ما رواه ابن قنفذ الذى ذهب الى كون مترجمنا كان «يسكن دارا بفنائها أشجار ، بناها قرب باب أغمات» (I) .

اخلاقه وتربيته

كان ابن البناء ، فيما يرجع للاخلاق والتربية ، متشبعا بروح الاسلام وتقاليده ، ويحكى عنه معاصروه انه كان متواضعا منبسطا ، مقبلا على الاجتماع ، محبا للخير ، متفتحا للغير ، مستعدا فى كل مناسبة وظرف لافادة الطلبة ، متفانيا فى خدمة العلم ، سالكا سبل التقوى والعبادة .

اتصاله بالبلاط المرينى

هل اتصل ابن البناء بالبلاط المرينى ؟

لا نظن ان ابن البناء كان له اتصال وثيق بالملوك المرينيين كما اتصل بهم الفقهاء والشعراء فى عهده . ولسنا نعلم بالضبط هل كان هو الراغب عنهم ام كانوا هم الذين ينفرون منه كما كانوا ينفرون من الفلاسفة ومن هذا حذوهم . الا أننا يمكننا ان نستنتج من الظروف التى كان المغرب يعيشها آنذاك ان الاوضاع والتقاليد الاجتماعية لم تكن تسمح له باقامة علاقة متينة بينه وبين البلاط المرينى رغم كون كثير من المصادر التى تعرضت له ذكرت انه كان يتمتع بسمعة كبيرة وبتقدير وحظوة عظيمة لدى هؤلاء الملوك ، ويحكى ابن قنفذ فى هذا الصدد انه رأى عند احفاد ابن البناء بمراكش رسالة بخط احد الامراء ينشده فيها بكل الجاح ويرجو منه على

(1) انظر فى مجلة هيسبريس (مجلد 25 سنة 1938 الرباط صفحة 141) بحثا للدكتور رينو تحت عنوان ابن البناء المراكشى الصوفى والعديد .

سبيل الصداقة ان يقدم لزيارته (I) كما تؤكد بعض المصادر انه كان كثير التنقل الى فاس بقصد زيارة هؤلاء الملوك . نعم ، لقد تنقل كثيرا الى فاس لكن ذلك التنقل كان لغاية علمية اذ من المعلوم ان ابن البناء كان يدرس في جامعة القرويين وفي بعض المدارس التي أسست في هذا العهد .

ابن البناء الصوفي

كان ابن البناء صوفيا مخلصا لمبادئ التصوف ، عاملا على تطهير نفسه ، سالكا سبيل التقرب من ربه ، منشغلا ، منصرفا عن أمور الدنيا كارهاا ملذاتها ، متفانيا في التقوى والعبادة . وكان شيخه في هذا الميدان الصوفي الشهير ، القطب ، صاحب الكرامات ، ابو زيد عبد الرحمن الهزمرى ، رئيس الطائفة الهزمرية باغمات . اخذ عنه ابن البناء طريقته الصوفية كما أخذ عنه علوما كثيرة ، وفوق ذلك كانت تربطهما علاقات ودية خاصة جعلت ابن البناء (كلما اعترضته مشكلة يركب بغلته ويغادر مراكش قاصدا شيخه ليستفتيه في المسائل المستعصية عليه ، ثم يرجع الى منزله راضيا مطمئنا مقتنعا بنصائح شيخه الوقور) (2) .

ومن انتاج ابن البناء في هذا الباب كتاب سماه «مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليفة» وهو مخطوط توجد منه نسخة تحت رقم 72 ن بخزانة وزان ، اطلعنا عليها فوجدناها مبتورة مكتوبة بخط صعب القسراءة ، متلاشية الاجزاء ، الشيء الذي جعلنا نلجأ الى قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط حيث وجدنا صورة لهذا المخطوط (ميكروفلم) فأخذنا عنه فكرة كافية تتلخص في كون ابن البناء في هذا المؤلف لم يات بشيء جديد وانما اكتفى بالتحدث عن التصوف وعن مبادئه والوسائل التي ينبغي اللجوء اليها لتطهير النفس وتخليصها مما قد لحقها من دنس في هذه الدار ، وتلك مبادئ عامة معروفة عند الصوفيين تكتسى صبغة عملية اكثر منها نظرية . اما الشرح الذي اتى به في هذه النسخة فهو موجز كاف لتفسير ما قصده . وله ايضا مختصر احياء علوم الدين لابى حامد الغزالي .

ابن البناء الفقيه المحدث

خاض ابن البناء كذلك غمار علوم الدين والفقه ، فكان اماما فيها ، عارفا بمقاصدها ، ملما بأصولها وفروعها ، مطلعا على جزئياتها ، قدرسها في مراكش أولا

(1) م. ن. صفحة 142 .

(2) رينو ابن البناء المراكشي ، مجلة مسبريس 1938-25 ص 142 .

ثم بفاس ، كما عقد جلسات خاصة ، وعامة لاعطاء رأيه في بعض ما اشكل على اهل عصره ، لانه كان يستفتى في النوازل والاحكام ويرشد العامة في المساجد ، ويفقههم في أمور دينهم .

وقد ذكر ابن حجر «انه كان فاضلا عاقلا ، نبيا ، انتفع به جماعة في التعليم ، وكان يشغل من بعد صلاة الصبح الى قرب الزوال » (I) وقد برهن ابن البناء عن قدرته الكبيرة في هذه العلوم بتأليفه عدة كتب منها :

تفسير سورة الكوثر ، تفسير سورة العصر ، تفسير الباء في البسطة ، كتاب تسمية الحروف وخاصة وجودها في أوائل السور ، حاشية على الكشف ، التشابه اللفظ في القرآن ، عواطف المعارف ، الفصول في الفرائض ، عمل الفرائض رسالة في أسماء الله الحسنى ، مقالة في الاقرار والانكار . جل هذه الكتب مفقود ، وهي كلها نفيسة رغم كون صاحبها لم يتعد فيها الشرح والتعليق والجمع والاختصار . والتحليل في بعض الاحيان والغريب أن ابن البناء لم يتأثر فيها بفكره الرياضي لا من حيث الاسلوب ولا من حيث الافكار التي شرحها او حلها . فهي اذن في الجملة شبيهة بالمصنفات الكبيرة التي الفت في ميدان العلوم الدينية في هذا العصر .

ابن البناء الرياضي الكبير

نصل هنا الى الميدان الذي صال فيه ابن البناء وجال واصبح موضوعا تتناوله الالسنة والاقلام . لقد مر بنا في موضع غير هذا ان ابن البناء كان استاذ الرياضيات بل كان الاستاذ الوحيد الذي أخذ عنه كثير من علماء عصره كما راينا أن جل الرياضيين كانوا من تلامذته . فلنكتف اذن بما قلناه سابقا اجتنابا للاطالة والملل ولننتقل الى مؤلفاته في هذا الميدان . بدأت شهرة ابن البناء عند ما لخص كتاب الحصار(2) ثم شرحه وهذا التلخيص عبارة عن كتيب وجيز المحتوى لا تتعدى صفحاته 16 من الحجم الصغير ، توجد منه نسخة مخطوطة تحمل رقم ج 1149 يقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط وقد بداها بقوله : «القرض في هذا الكتاب تلخيص اعمال الحساب ، وتقريب ابوابه ومعانيه وضبط قواعده ومبانيه وهو يشتمل على جزأين : الاول في اعمال العد المعلوم ، والثاني في القواعد التي يمكن بها الوصول الى معرفة المجهول المطلوب من المعلوم المفروض

(1) الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة (حيدر اباد 1950) ج 2 صفحة 147 .

(2) ابن خلدون المقدمة ، صفحة 423 .

إذا كانت بينها صلة تقتضى ذلك (1) ، وهو فى الحقيقة كتاب مفيد لكنه صعب الفهم بالنسبة للمبتدئ على الخصوص نظرا لكونه جاء مركزا مختصرا خاليا من الامثلة المحسوسة الكثيرة التى تساعد الطالب على فهم الحقائق المجردة التى تحتاج فى تبسيطها الى كثير من الجهود لجعلها فى متناول العقول . ولعل السبب فى هذا التعقيد وهذه الصعوبة التى يصطبغ بها هذا الكتيب راجع الى كون ابن البناء بالغ فى اختصار كتابه هذا كما فعل بالنسبة للكتب الاخرى التى ألفها فى الرياضيات وغير الرياضيات ولا عجب فى هذا لان العصر ، كما راينا ، عصر المختصرات والشروح ، واختصار المختصرات ، وشرح الشروح ، والتعليق عليها ، ولان ابن البناء اتخذها عادة لا تكاد تفارقه فى انتاجه . السم يعتذر عن ذلك بقوله : (2)

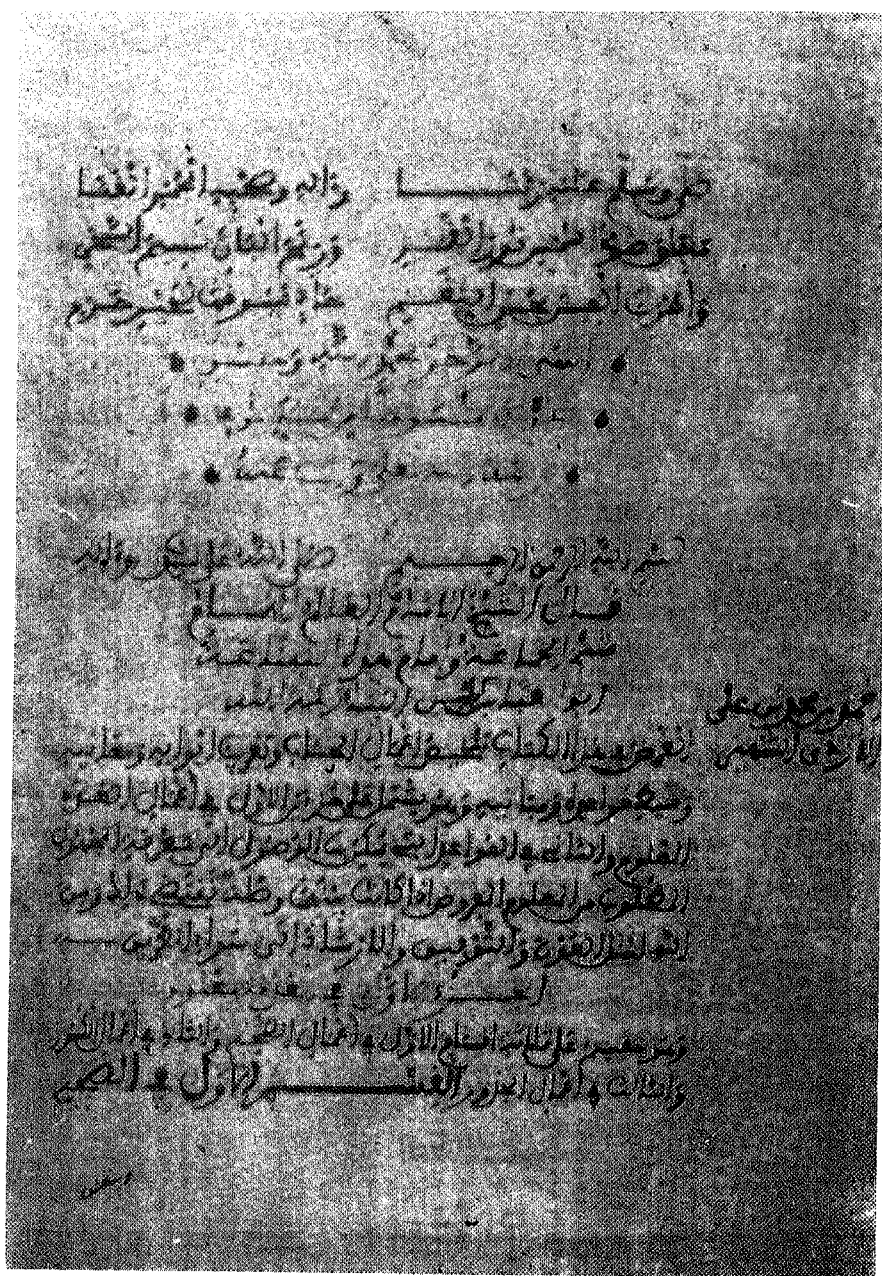
قصدت الى الوجازة فى كلامى	لعلمى بالصواب والاختصار
ولم احذر فهو ما دون فهمى	ولكن خفت ازراء الكبار
فشأن فحولة العلماء شأنى	وشأن البسيط تفهيم الصغار

وابن خلدون نفسه سبق ان لاحظ هذه الصعوبة بقوله : « وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني . وانما جاءه هذا الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم » (3) . على أن ابن البناء ، تلافيا لكل هذا ، وتداركا لما فات ، رجع الى مؤلفه الملخص فشرحه شرحا كافيا سماه : « رفع الحجاب » .

مؤلفات ابن البناء فى الرياضيات والتنجيم والعلوم المرتبطة بها

سبق ان رأينا ان ابن البناء كان استادا فى الرياضيات وفى العلوم التى ترتبط بها . فكان اماما ، وحيد عصره لا يضاهيه احد فى ذلك ولقد لاحظنا بالفعل ، عند ما كنا نبحث عن الشخصيات المغربية البارزة فى هذا الميدان ، ان جل المثقفين فى هذه العلوم كانوا من تلامذته بمراكش أو بفاس . هذه حقيقة تاريخية لا يمكن التغاضى عنها (4) فلا عجب اذن أن يترك لنا ابن البناء مؤلفات قيمة فى الرياضيات ، وفى التنجيم ، وفى التوقيت ، وما يتبع ذلك من فنون ترتكز على الحساب والهندسة . اهم هذه الكتب :

- (1) ٢٠ ن . صفحة 1 .
- (2) ابن البناء ، منهاج الطالب فى تعديل الكواكب . مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 325 صفحة I
- (3) المقدمة صفحة 483 .
- (4) انظر الباب الثانى من هذا البحث .



الصفحة الاولى والثانية من تلخيص اعمال الحساب «لابن البناء المراكشي»
مخطوط الخزانة العامة رقم ج 1149 .

كتاب اعمال الفرائض ، كتاب الفصول فى الفرائض ، مقدمة كتاب اقليدوس ، المقدمة الاربعة فى العدد والحساب ، الاصول فى المقدمات فى الجبر والمقابلة ، القوانين فى العدد ، المستطيل ، التأليف فى احكام النجوم ، مقالة فى علم الاسطرلاب ، جزء فى الانواع فيه صور الكواكب ، رسالة فى ذكر الجهات وبيان القبلة ، اختصار فى الفلاحة ، قانون فى ترحيل الشمس ، قانون فى معرفة الوقت بالحساب ، قانون فى فصول السنة ، قانون فى ترحيل الشمس ، المناخ فى تعديل الكواكب ، المناخ فى رؤية الاهلة ، المداخل الثلاثة الى صناعة الاحكام النجومية .

على أن اهم كتاب بالنسبة للطلبة لا سيما اولئك الذين لم يتقدم لهم أن مارسوا هذا الفن هو : «منهاج الطالب فى تعديل الكواكب» توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط - قسم المخطوطات رقم 325 . وهى ، رغم تلاشى بعض أجزائها ، لا تزال محتفظة بطابعها المغربى ، لم تزل منها الرطوبة والارضة الا فى بعض صفحاتها التى يبلغ عددها 96 من الحجم الكبير .

قسم ابن البناء كتابه هذا تقسيما واضحا ، وبوبه تبويبا يسهل على طالب التوقيت كثيرا من الصعوبات التى تعترضه فى تتبع سير الكواكب والنظام التى تخضع له فى تنقلها وتغيرها . يتضمن الكتاب أربعة وعشرين بابا ، خصص المؤلف الباب الاول منها لمعرفة التواريخ وأوائل الشهور ثم تحدث عن القواعد الحسابية المتبعة فى هذا الشأن ، ثم أتى بجداول مضبوطة خاصة بالتطبيق والتمارين التى يجب على الطالب أن يقوم بها كى يتأكد من معلوماته النظرية ، وهى طريقة لا تخلو من فوائد تربوية ، لها تأثير كبير فى تكوين شخصية الطالب ، وهى أيضا من الطرق البدياجوجية التى يدعو اليها علم النفس الحديث . وقد بدأ ابن البناء مؤلفه هذا ، كما يتضح فى الصورة التى اخذنا عنه ، بقوله : «الحمد لله الذى خلق الافلاك الدائرة ، وزينها بالنجوم السائرة ، وصلى الله على سيدنا محمد سيدى الامم السالفة والغابرة ، وعلى آله وسلم كثيرا» (I) : مقدمة خالية من التعقيد ، لا اطناب فيها ولا استطراد ، وان كان صاحبنا يغلّب عليه السجع الذى طبع سبائر مؤلفات هذا العصر ، الا ان هذا السجع خفيف ومقبول لا تكلف فيه ولا افتعال .

ابن البناء الساحر

اشتغل ابن البناء بالسحر ، وبالكهانة ، وبالطلسمة لكونه رياضيا كبيرا ولكون هذه الفنون مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم الهيئة والفلك والتنجيم ، فليس اذن فى الامر غرابة ما دام صاحبنا يلم بذلك كله ، ويتقن فيه تفننا خاصا . وكان

(I) منهاج الطالب فى تعديل الكواكب صفحة 1

[illegible]

وَأَمَّا الْقَائِمُ فَلَمْ يَلِدْ

107

منهاج الكواكب في تعديل الكواكب للامام العلامة النعمان ابي العباس
سنة ١٠٠٠ هـ

اربعين سنة من تولى
في اكثر من مائة سنة

يوم السبت الثاني

من ربيع عام احدى

وعشرين من وبعدها

بلكان من مائة

سنة وستون سنة

325

في
ولا يشترط في طبعها ان يكون في ربيع
كتب في سنة ١٠٠٠ هـ في طبعها
بلكان من مائة سنة
باربعين سنة من تولى
في اكثر من مائة سنة

في
ومما فائدة الامام ابن البنا معتزلة في الاعتناء بالاعتناء في كتبه
في صنف في الامام ابن البنا معتزلة في الاعتناء بالاعتناء في كتبه
في صنف في الامام ابن البنا معتزلة في الاعتناء بالاعتناء في كتبه
في صنف في الامام ابن البنا معتزلة في الاعتناء بالاعتناء في كتبه

في
ومما قيل في مسألة التي هي ايضا
في مسألة التي هي ايضا
في مسألة التي هي ايضا
في مسألة التي هي ايضا

في
في
في

اشتغاله بهذه العلوم التي ذكرناها اشتغالا نظريا وعمليا في نفس الوقت . ألف فيها كتباً سناتى على ذكرها من بعد كما مارسها عمليا واستغلها لغاية مادية محضة . يحكى صاحب نيل الابتهاج (I) أن رجلاً قصد ابن البناء طالباً منه أن يدلّه على مكان كنز بمنزله . وحكى عنه كذلك مؤلف الدرر الكامنة «انه امتنع عن أكل كل ما فيه روح . وصار يكشف كل داخل عليه بما هو فيه ، ويخبره ببعض المغيبات ، ويستعمل الاشكال الهندسية والحساب في أمور غريبة ، ومنها انه استعمل احد الاشكال الهندسية ضد شرطى ظلم بعض خدمه فلم يتم كتابته حتى خر الشرطى صريعاً » (2) . ويحكى عنه ايضاً (3) ان السلطان ابا سعيد عثمان المرينى استدعا يوماً ليسأله عن اجله ، فأخبره ابن البناء انه سيموت بتأزّة وهو مشرف على اشغال بنائية . فكان الامر كذلك .

اما مؤلفاته في هذا الميدان فهي :

كلام على العزائم والرمي ، كلام على الطلسمات ، كلام على السزجر والغال والكهانة ، كلام على خط الرمل ، رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاثة : المعجزة والكرامة والسحر ، عنوان الدليل في رسم خط التنزيل .

ذلك هو ابن البناء المراكشى ، وتلك شخصيته العلمية المتعددة الجوانب ، الغنية بمعارفها العقلية والعقلية ، استطاع ان يحقق هذه المعجزة العلمية في أقل من 67 سنة ، وهي مدة وجيزة بالنسبة لنشاطه الثقافى وما خلقه من آثار تجلت معالمها في هذه المؤلفات الضخمة الكثيرة التي ذكرنا منها ما استطعنا الوقوف عليه ، وهكذا قضى حياته منذ حداثة سنه الى أن وافاه الاجل سنة 721هـ . بمراكش حيث دفن بباب ايلان بحى جنان بوسكرى على حد قول عدد كبير من المراكشيين الذين يعرفون الى اليوم مكان قبره وينهب بعضهم الى زيارته (4)

شخصيات مشتركة

نريد هنا التعرض لثالث عظيم ، طبع البيئة المغربية بطابع خاص ، تجلت آثاره في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية ، ويتكون هذا الثالث من عناصر قوية ، متينة الاسس ، متشابهة في كثير من معالمها ومظاهرها ، يتكون من اندلسى .

- (1) احمد بابا السودانى : نيل الابتهاج بتكميل اللدياج (طبعة مصر 1351) صفحة 143 .
- (2) ابن حجر (الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة) صفحة 73 .
- (3) انظر ريتو ابن البناء العدوى والصوفى مجلة هيسبريس مجلد 25 سنة 1938 صفحة 242 .
- (4) خالف مؤلف «السادة الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية» (طبعة قاس 1336 صفحة 69) هذا الراى ويؤكد ان قبر ابن البناء مجهول رغم كون عدد كبير من أهل مراكش يعتقدون انه لا زال موجوداً بباب ايلان .

لسان الدين ابن الخطيب السلماني (713-776 هـ) ومن تونسى ، عبد الرحمان ابن خلدون (732-808) ومن جزائرى ، الخطيب ابن مرزوق (710-781) . هؤلاء الثلاثة بل هؤلاء الاعلام كانوا كلهم أعظم وأبرز الشخصيات التى عرفها القرن الثامن الهجرى ، بل لم يكن أعظم منهم وأقوى وأكثر ايجابية فى ميدان العلم والسياسة ، وفى ميدان الاجتماع والثقافة ، لعبوا فى هذه الميادين كلها دورا فعلا كان له تأثير على البيئة المغربية فى عهد بنى مرين ، فكانوا دهاء هذا العصر ، وأفذاذ ، وزعماء ، وصناديده وعباقرته ، كانوا كذلك بغزارة علمهم ، وبتعدد أنواع معرفتهم ، وبقوة شخصيتهم ، وبذكائهم المفرط ، وبارادتهم الجبارة ، وبطبهم القوى ، وبسرعة تكيفهم مع الاحداث والظروف الاجتماعية والسياسية ، كما كانوا ، الى جانب ذلك ، من اصحاب الحيل والدسائس ، والمغامرات ، والمناورات ، ميالين بطبيعتهم الى الظهور واكتساب النفوذ ، يطمعون فى الجاه والمال ، ولا يتورعون عن اتخاذ انواع شتى من الوسائل والحيل للتسلط على المناصب السامية ، والاستئثار بالزعامة ، ولو ادى بهم الامر الى ما ادى من قلب ونفاق ، وتزلف واسفاف فى بعض الاحيان . تعايشوا كلهم (أحيانا) فى المغرب واتصلوا اتصالا مباشرا وغير مباشر برجاله ، وتلاقوا فى بلاط بنى مرين ، واحتك بعضهم ببعض ، فكانوا يتبادلون المساجلات والمراسلات ، متوادين احيانا ومتنافرين احيانا أخرى ، يسلكون تقريبا نفس السلوك من حيث السياسة ومن حيث الاخلاق ، ويتنافسون ويتسابقون نحو الزعامة الفكرية ، والرئاسة الزمنية ، فطبعوا الحياة المغربية بطابعهم ، وأثروا فى سياستها قصد ا او عن غير قصد ، وكانت لهم مشاركة فى نهضتها الادبية .

هؤلاء الاعلام ، ترجمتهم معروفة ، غنية عن البيان ، موجودة فى المصادر العربية وغير العربية ، اذ كان ، وما زال ، صيتهم بعيد المدى ، وشهرتهم واسعة الانتشار بحيث تعدت حدود المغرب والمشرق الى دول أخرى أجنبية ، وأوروبية وأمريكية وغيرها من بلدان العالم . تصدت لهم الاقلام فى كل زمن وفى كل مكان ، فتحدثت عنهم فى الصحف والمجلات ، وخلدت آثارهم فى امهات الكتب كما عقدت ، ولا تزال تعقد المؤتمرات لدراسة شخصيتهم المتعددة الجوانب ، ومؤلفاتهم القيمة الوافرة العدد .

لذلك لن نتعرض لهم ، فيما يرجع لهذه الناحية ، الا بشيء من الايجاز لان موضوعنا لا يتسع لاكثر مما له ارتباط بالحدود التى رسمناها له ، وهى البيئة المغربية كما عرفها التاريخ فى زمن بنى مرين ، تلك البيئة التى فتحت ابوابها لهذه الشخصيات (I) التى نحن بصدها ، فاستظلوا بظلالها ، ونعموا بخيراتها ، وتقبلوا فى مناصبها السامية ، وحظوا لدى ملوكها بمنزلة عالية ، واتصلوا بكبار رجالها ، وعلمائها ، ومثقفها ، وأدبائها وشعرائها واحتكوا بهم احتكاكا اثر فيهم ، فقاموا بردود فعل نفسية وفكرية .

(I) وانسيراها .



الصفحة الاولى من كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول ، ابن الخطيب
السلماي مخطوط الخزنة العامة رقم 85 .

فهم اذن مدينون لهذه البيئة ماديا ومعنويا وفكريا ، وهذه الناحية الاخيرة هي التي تهمننا الآن .

ابن الخطيب

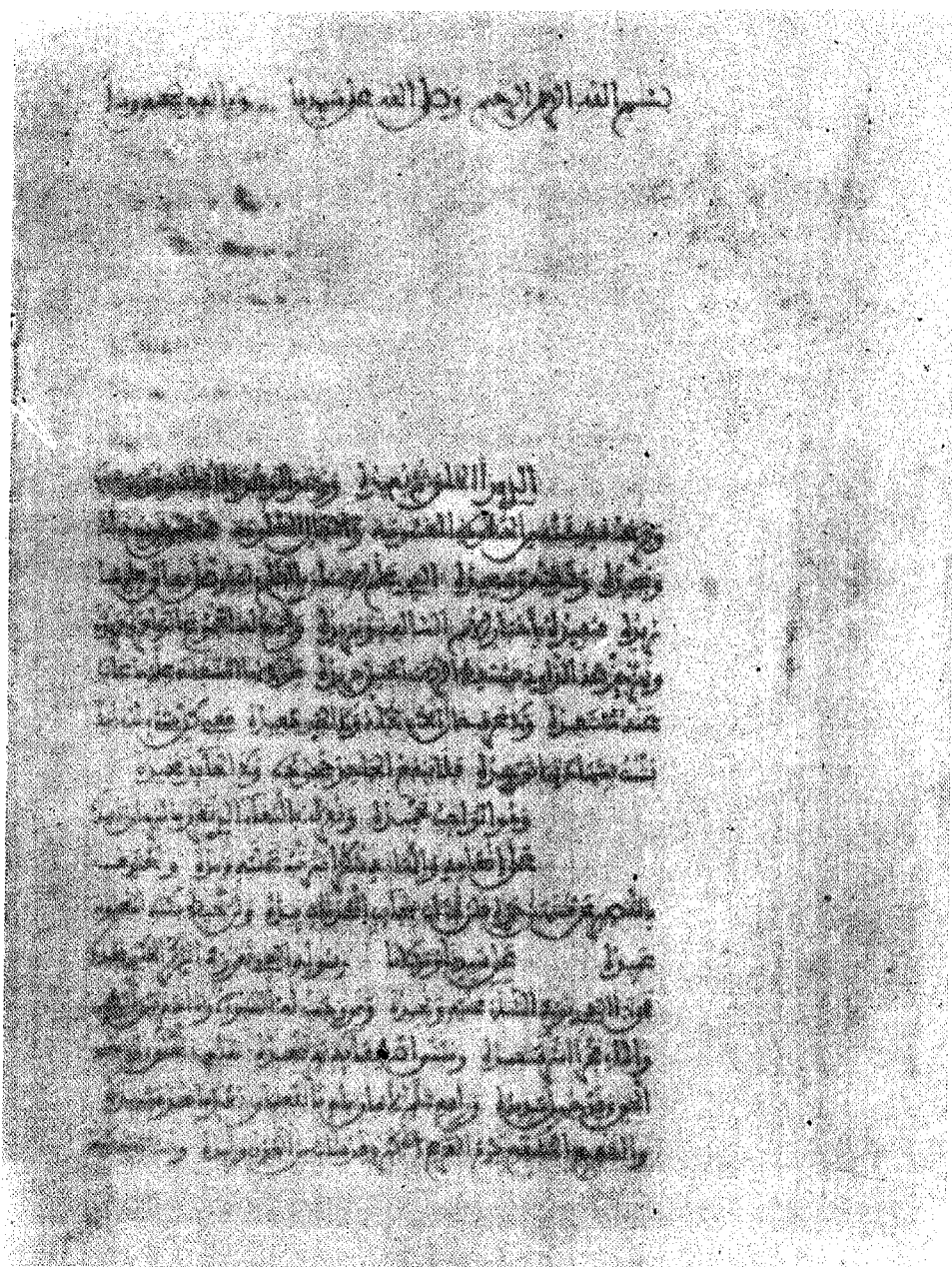
ولد ابن الخطيب ، كما هو معلوم ، ببلاد الاندلس ، بمدينة لوشة سنة 713 هـ. وتلقى دراسته بقرنطة ، فظهرت عليه منذ حداثة سنه معالم النبوغ والذكاء الشيء الذي جعله يقبل على علوم شتى ، عقلية وعقلية ، درسها كلها وتفوق فيها تفوق الامام الاستاذ . فكان فقيها ، واديبا ، وشاعرا ، وفيلسوبا ، وطبيبيا ومؤرخا ، ومتصوفا ، ووزيرا لبني الاحمر في مملكة قرنطة .

بهذا المحصول العلمي الوافر ، وبهذا الوزن الثقيل ، انتقل ابن الخطيب للمرة الاولى الى المغرب كسفير اوقده السلطان يوسف ابن الاحمر سنة 748 هـ. على ابي عنان المريني لتقديم تعازيه اليه اثر وفاة ابيه ابي الحسن . وفي سنة 755 هـ. جاء الى المغرب بنفس الصفة مبعوثا من قبل محمد بن يوسف الغني بالله ، الذي كان في حاجة ماسة الى عون بني مرين . فاستنجد بهم بواسطة سفيره ابن الخطيب ، فتحقق الغرض المنشود ، واستجاب ابو عنان لطلب ابن الاحمر ، ورجع السفير مظفرا ، معزز الجانب لانه نجح في مهمته .

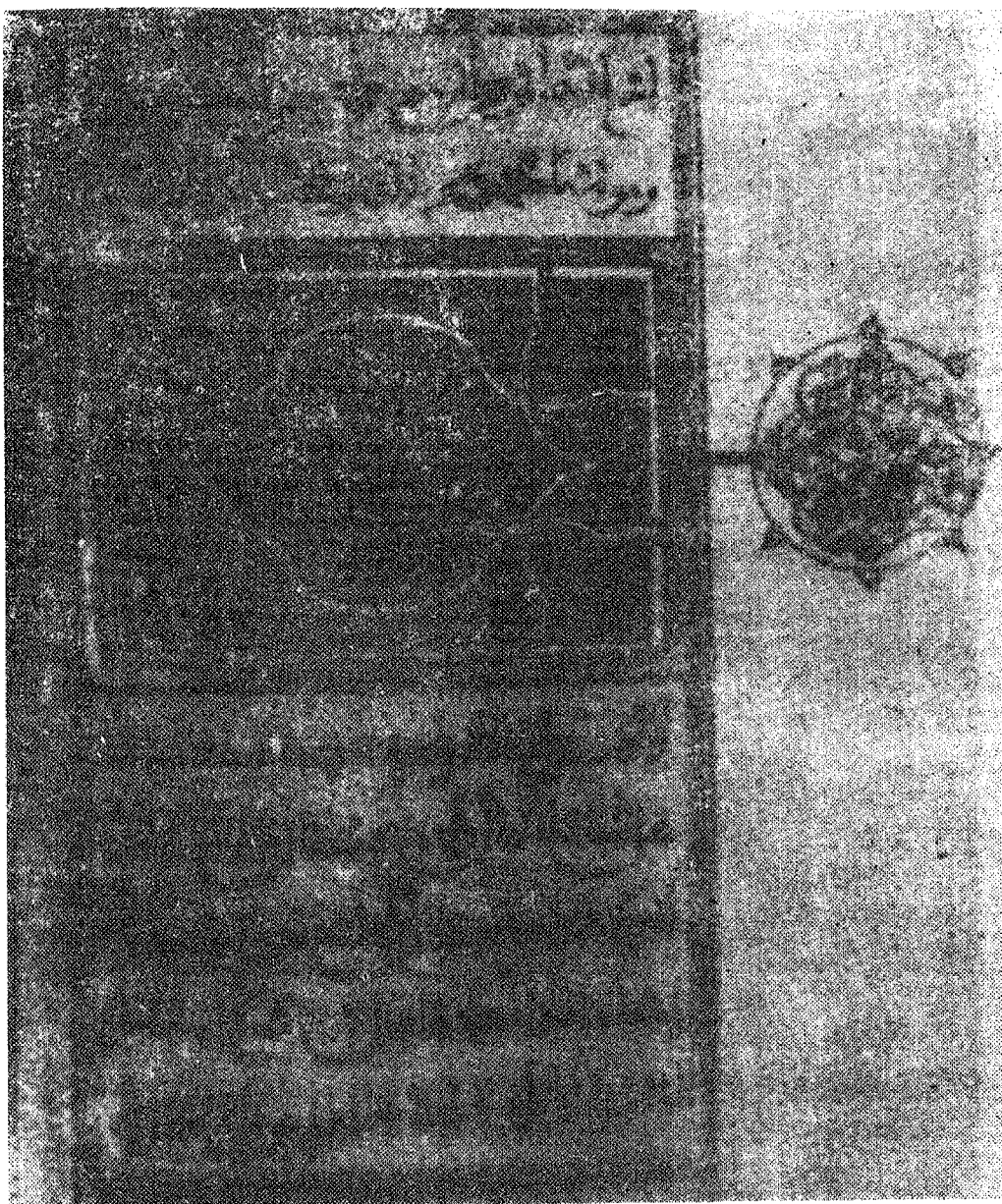
الا ان الظروف سرعان ما تغيرت ، فانقلبت الاحوال على سفيرنا ، واضطر لمغادرة بلاده سنة 761 هـ ووفد على المغرب هو وسلطانة المخلوع محمد الغني بالله . فوجدا في ابي سالم المريني خير نصير واكبر مواسي . فاستقبلهما استقبالا خاصا ، ووفر لهما ما كانا في حاجة اليه . فانتهاز ابن الخطيب اللاجيء هذه الفرصة ورمى بنفسه في احضان البيئة المغربية ، يتنقل بين مدنها وقراها ، متصلا بكبار شخصياتها ، جاعلا من نفسه في بعض الاحيان رجلا متواضعا ، ناسكا ، قاصدا الاولياء وذوي الكرامات ، وفي احيان اخرى شخصا حاقدا ، ناقما ، يصب جام غضبه على الاشخاص والاشياء ، فكان تجاوبه في هذه الفترة التي استغرقت ثلاث سنوات مع البيئة المغربية تجاوبا متكاملا ، سجل صداه هو نفسه فيما حرره من رسائل وما ألفه من كتب اثناء اقامته منفيا بالمغرب .

ومن المفيد أن نتعرف على هذا الانتاج الذي خلفه ابن الخطيب والذي كان في الواقع ، ثمرة تفاعله مع البيئة المغربية المادية والاجتماعية .

من مؤلفاته التي كتبها في هذه المدة التي قضاها منفيا بالمغرب كتاب في الطب سماه : «عمل من طب لمن حب» توجد منه نسخة محفوظة بخزانة القرويين تحت رقم 3657 . وقفنا عليها بهذه الخزانة واطلعنا على محتوياتها ، فوجدناها مفيدة للغاية بما تضمنته من معلومات طبية ، وقواعد صحية ، وطرق العلاج والوقاية



الصفحة الاولى من «الاعلام فيمن بويح قبل الاحتلام» لسان الدين ابن الخطيب
مخطوط الخزنة العامة رقم د 1552 .



الصفحة الاولى من «معيان الاختيار في ذكر المعاهد والديار» لابن الخطيب
السلماىى مخطوط الخزانة العامة رقم 1092 .

المختلفة . تحمل في أول صفحة منها هذه الديباجة : « الحمد لله الذى خلق الانسان من نطفة امشاج » يذكر فيها ابن الخطيب ، بعد مدح طويل للسلطان ابي سالم المرينى ، انه لم ير فى خدمته احسن من الطب والكتاب يتضمن جزأين : الجزء الاول خاص بتعديد ووصف الامراض من الرأس الى القدم ، والثانى يعدد الامراض التى تعترى الجسم كله . اما اسلوبه فى طريقة العرض فهو واضح ، وان كان فيه اطناب وشرح طويل يبعث فى بعض الاحيان على الملل والرجوع الى القواعد الاساسية لتتبع انواع العلاج والوقاية . الا ان الطريقة المتبعة فى عرض المرض وشرحه وبيان طرق علاجه تعوض هذا النقص نظرا لانطباعها بطابع منطقى وطبيعى فى نفس الوقت . ذلك ان المؤلف يبدأ أولا بذكر المرض ويسميه باسمائه المعروفة ، ثم يعرف به ، ثم يشرح علاماته والاعوجاج التى تنتج عنه ، ثم يذكر انواع العلاج ، ثم يأتى اخيرا بالادوية المناسبة ، ويحللها ويذكر مكان وجودها . وينصح ابن الخطيب باتباع الحمية واتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة فيما يرجع للاغذية . ويلج على الوقاية قبل ان يصاب المريض بمرض ربما تعذر علاجه . والواقع ان هذا الكتاب مفيد جدا لما تضمنه من معلومات نظرية وقواعد عملية من السهل تطبيقها على بعض الامراض «البسيطة» «معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار» .

هذا كتاب آخر ألفه ابن الخطيب عند ما كان منفيا بالمغرب . توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط عثرنا عليها وتصفحناها ورقة ورقة ، فوجدناها مكتوبة بخط مغربى جميل مذهب ، تحمل رقم د 1092 ، لا تتعدى صفحاتها 122 صفحة . تكلم بروكلمان عن هذا المؤلف فى ملحقة ج : 2 صفحة 372 وسريكس فى معجمه صفحة 1591 واعتنى الاستاذ مولير بنشر نبذة منه فى مونيه سنة 1866 . وأخيرا نشره الدكتور احمد مختار العبادى بالقاهرة سنة 1958 تحت عنوان : « مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب فى بلاد المغرب والاندلس » نشر كلية الآداب ، مطبعة جامعة الاسكندرية . وهذا الكتاب يتضمن بالاضافة الى «معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار» رحلات أخرى قام بها ابن الخطيب فى المغرب وفى الاندلس .

اما موضوع الكتاب فهو عبارة عن مقامات وضعت على لسان مدن الاندلس والمغرب ، كما يتضمن بعض التراجم الاندلسية ، وفيما يرجع للمغرب تحدث ابن الخطيب فيه عن فاس بكثرة ثم عن تازة ثم مكناس . ثم مراکش ثم اغمات وسجلماسة الى غيرها من المراكز المغربية الرئيسية فى عصره .

أما الاسلوب فهو كله سجع . فيه كثير من التكلف والتصنع اللفظى الذى يغطى فى بعض الاحيان على ما يرمى اليه المؤلف من مقاصد ومعلومات جغرافية واجتماعية .

وهذه صورة عنه ، اقتبسناها من الديباجة : « الحمد لله الذى انفردت صفاته بالاشتغال على اشتتات الكمال ، والاستقلال بأعباء الجلال ، المنزه عن اختلال الاخلال ، المعتمد بالسؤال لصللة النوال ، جاعل الارض كسكانها متغايرة الاحوال ، باختلاف العروض والاطوال » .

« مثل الطريقة في ذم الوثيقة »

لقد سبق ان تحدثنا في غير هذا الموضوع عن تنقلات ابن الخطيب ومقامه بفاس وبسلا وباحتكاكه فيهما بكثير من الشخصيات ، كما سبق ان تعرضنا للنزاع الذي وقع بينه وبين ابي العباس القباب . والسبب بسيط هو ان هذا الاخير لم يلب الدعوة التي وجهها له ابن الخطيب فقام هذا الاخير وقعد وصنف رسالة تحت العنوان المذكور ، تناول أبا العباس ومن كان يحترف حرفته بكثير من النقد ، والشتم ، والوصف الشنيع . فصب ثورته الانفعالية وجام غضبه في قالب سماه «مثل الطريقة في ذم الوثيقة» وأسلوبه فيها أسلوب ساخر لا يخلو من تعقيد وتحديف وتشويه للحقيقة والواقع ، وليس الامر بغريب ما دمنا نعرف أنه كان منساقا وراء عاطفته الثائرة ، فلم يكن ينتظر منه سوى ما قال وسوى ما صاغه في هذه الرسالة من قذف وشتم . ولقد حطت هذه الرسالة الواضحة بسمعته وأبانت عن سريره ، وكشفت النقاب عما كان يمكنه لبعض علماء المغرب .

ولابن الخطيب مؤلفات أخرى غير هذه ، ولكننا ، مراعاة لمجال الموضوع ، موجود منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحمل رقم د 1552 . وهو مؤلف ضخيم يقع في 267 ورقة كتبه (I) ابن الخطيب وهو منفي بالمغرب للمرة الثانية اثر وفاة السلطان المريتني عبد العزيز وتولية ابي بكر بن غازي الوزير لولده سعيد ، ونتيجة للضجة التي ثارت حول هذا الطفل ، قام ابن الخطيب فألف هذا الكتاب تبريرا للموقف ، وتقربا من الوزير صاحب السلطة المطلقة . فكان هذا الكتاب بمثابة فتوى مستمدة من التاريخ الاسلامي الذي سجل في ثنايا صفحاته كثيرا من الاحداث الماثلة التي وقعت في مختلف الممالك الاسلامية والتي تبرر ما وقع في المغرب بمناسبة تنصيب طفل كملك للبلاد . فاختار ابن الخطيب من التاريخ الاسلامي كثيرا من الحجج قدمها بمهارة ودهاء دفاعا عن الوزير أبي بكر ولاقناع خصومه الثائرين .

ولابن الخطيب مؤلفات أخرى غير هذه ، ولكننا ، مراعاة لمجال الموضوع . اكتفينا بهذه الامثلة التي سردناها ، وهي كلها تتصل بالبيئة المغربية اتصالا مباشرا اذ انها تستمد مادتها الخام منها وتعكس مظاهر التفاعل الذي تم بين ابن الخطيب وهذه البيئة التي آوته واحتضنته برعايتها الى أن وافاه الاجل المحتسوم فلفظ نفسه الاخير بها فشاء القدر ان تحتضنه مرة أخرى لكن تحت ترابها .

1) نشر ليفي بروفنسال القسم الخاص بالشرق والاندرلس الرباط 1932 ونشر الاستاذان ابراهيم الكتاني والمختار مبادي القسم الخاص بافريقيا والمغرب الرباط 1964 .

ابن خلدون

ولد أبو زيد ولي الدين عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون بتونس سنة 732هـ وهو كما اشبرنا الى ذلك ، من الشخصيات الثلاث التي كان لها دور فعال وسلوك خاص في هذا العهد الذى نؤرخ له ، فلا حاجة بنا اذن الى التعريف به والتحدث عن شهرته الكبيرة وعواملها المختلفة . ما دمنا قد تعرضنا لذلك فى بداية هذا الفصل والبتزمتنا بترك هذا الجانب الذى طرقه عدد كبير من المؤرخين والادباء والمفكرين لنهتتم بالخصوص بما له صلة بموضوعنا .

قالذى يهمننا هنا اذن هو ان ابن خلدون استكمل نشأته ودراسته بالمغرب ، وتقلب فى عدة مناصب سامية فى هذه البيئة كما كان له فيها سلوك خاص ، تجلى فى المناورات السياسية التى كان يحيكها ليل نهار ، والمغامرات والدسائس التى كان يقوم بها استغلالا للنفوذ ، وتقربا من أولى الامر فى الدولة ، لا يهيمه فى ذلك أن يخالف القوانين أو يراعيها ، هدفه الوحيد هو الوصول الى الغرض المنشود ، مهما كانت الوسائل .

والقصة معروفة فى عدد كبير من المصادر التى تعرضت له ، بل نجدها عنده ، يحكيها بنفسه ، بكل صراحة فى كتابه : «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» (I)

نشأ نشأته الاولى بتونس كما ولد بها ، فتلقى دراسته الاولى على كبار علمائها الى ان بلغ سنه الثامنة عشرة حيث اصبح يشعر بميل الى خوض شؤون الدنيا وغمار السياسة ، فكلف من طرف الوزير ابن تافكرين لاول مرة بوظيفة سامية ، هى كتابة العلامة . لكن الاحداث الاجتماعية والاضطرابات السياسية التى كانت تعصف بالمغرب (الادنى والاوسط ، والاقصى) وحب المغامرة والظهور، والانسياق وراء الاهواء والشبهوات ، كل ذلك دفع بصاحبنا الى التنقل وتبع اذيل الرئاسة والجاه ، وتحسس الاماكن الخصبة الى أن صادف السلطان أبا عنان المرينى ، وهو يومئذ يقوم بالحملات المتتالية لاختصاص الطغاة والخارجين عن سلطته بالمغربيين الادنى والاوسط ، فاستغلها ابن خلدون فرصة ثمينة ، وتقرب من السلطان المذكور وخفض له جناحه ، وتملق عواطفه بأنواع شتى من الطرق والوسائل ، فنال منه ميتهاه ، واستقدمه الى عاصمته فاس سنة 755 هـ حيث أسند اليه مهمة علمية سامية ، وهى عضوية المجلس العلمى بفاس ، وهكذا اخذ

(I) نشر محمد بن باويت الطنجى القاهرة 1951 .

يباشر هذه المهمة بكل جدارة واستحقاق ، مبرهنا عن اخلاصه في عمله ، عاملا على اثارة انتباه مخدمه اليه كى يطلع بنفسه على هذه المقدرة وعلى هذه الكفاءة ، فتحقق ابو عنان من ذلك ، وقربه اليه مرة اخرى ، ورفع من مكانته حتى اصبح بعد انصرام سنة واحدة من كتابه واصحاب علامته . وفى هذه الاثناء لم ينصرف ابن خلدون عن الدراسة والتحصيل ، لمافى ذلك من وسائل الضغط والظهور والبروز ، لا سيما فى هذا العهد الذى كثر فيه الفقهاء والعلماء ، واصبح التنافس شديدا بينهم والتسابق حادا نحو الاستئثار بمناصب الدولة وبنفوذها . فبدأ ابن خلدون يتصل بكبار فقهاء عصره كى يستكمل دراسته التى بدأها بتونس فاخذ عن عدد كبير من علماء المغرب وغيره الى أن شعر باستعداد نفسه ، وقوة ادراكه ، وتفتح ذهنه ، وتمكنه من اللغة والادب والفقه وعلوم اخرى برهن عن تضلعه فيها حينما ألف كتابه الضخم فى التاريخ ولا سيما منه المقدمة . وما ان تمكن من نفسه وتحقق من كفاءته حتى اصبح يدافع المغامرة والطموح المفرط يبحث عن منافذ اخرى عليها تبوئه مكانة اعلى وجاها اقوى . وهكذا بدأ يحيك المؤامرات ، ويدبر الدسائس ضد مخدمه ابي عنان . وكان شريكه فى هذه المرة هو الامير ابو عبد الله محمد الحفصى ، صاحب بجاية المخلوع ، الذى أسره بفاس أبو عنان نفسه . فكانت الغاية هى تحرير هذا الامير كى يسترجع ملكه ويثبت محorre ابن خلدون بتولييه وزارة او حجابة . لكن المؤامرة المدبرة لم تنجح ، فاحبطها ابو عنان فسى مهددا واسر ابن خلدون بمجرد ما بلغه الخبر ، وبقي هذا الاخير سجيناً ما يقرب من سنتين قضاها كلها فى البكاء والاستعطاف ، والتضرع والتوسل ، ولم تقف تلك الاستعطافات ولا تلك القصائد التى نظمها فى مدح ابي عنان كى يخلصه من هذا السجن ، ذلك ان ابا عنان وافاه الاجل المحتوم ، وترك اسيره فى السجن منتظرا ظروفا اخرى عليها تكون السبب فى انقاذه .

1) ابن خلدون بعد وفاة ابي عنان

مات أبو عنان وابن خلدون فى سجنه ، وكان من المنتظر أن يخلفه ابنه وولى عهده محمد ابو زيان ، لكنه ذهب ضحية احد الوزراء المستبدين بأمر الدولة ، الحسن بن عمر الفودوى الذى كان آنذاك مسيطرا على شؤون المخزن ومجرا على الملوك والامراء ، فأقصاه وقتله ، ثم عين مكانه طفلا من اطفال ابي عنان ، هو ابو بكر السعيد البالغ من العمر 10 سنين . والمهم ، بالنسبة لابن خلدون ، هو انه اطلق سراحه على يد هذا الوزير المستبد واسترجع مكانته وسابق وظائفه .

لكن الامور لم تدم طويلا نظرا لعدم استقرار الامن وكثرة الخلافات والثورات الناشئة هنا وهناك ، اذ فى هذا الوقت بالضبط قام احد احفاد يعقوب بن عبد

الحق ، منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق (I) وثار ضد الحسن بن عمر وانتزع من يده السلطة وما كاد يبدأ في مباشرة مهامه حتى انضم اليه ابن خلدون غادرا بالوزير كما غدر بابي عنان وغيره ، فعينه منصور كاتباً له .

(2) ابن خلدون والسلطان ابو سالم ابن ابي الحسن المريني

هل استقر ابن خلدون ، واخذ العبرة من هذه الاحداث والتقلبات ورجع الى نفسه كي يقوم من اعوجاجها ، ويسلك سلوكاً يتصف بالمرورة وبالاخلاق الحميدة ؟ كلا ؛ لقد تمادى في سلوكه ، متحينا الفرص ، مستغلا جميع الظروف والمناسبات كي يصعد ويسمو على حساب الغير . ذلك انه عاد الى التآمر مرة اخرى ضد السلطة القائمة لتأكده من سرعة زوالها ، وكان شريكه في هذه المرة الثانية الخطيب ابن مرزوق . تحكي المصادر التاريخية عن هذا الاخير انه اتصل بابن خلدون بصفة سرية مسلماً اياه رسالة خاصة من ابي سالم بن ابي الحسن المريني يناشده فيها بتحريض الشعب على منصور واقامة ثوره ضده كي يحتل عرش اخيه ابي عنان . فكان الامر كذلك ، واستجاب ابن خلدون لهذا المطلب الذي يرى في تحقيقه تحقيقاً لبعض مقاصده . فعمل بكل جد واخلاص مستعملاً جميع قواه وحيله لانجاح المؤامرة ، فنجحت بالفعل ، واستقر الامر ، بعد نشوب اضطرابات ، لابي سالم الذي جلس على عرش اخيه فعين ابن خلدون كاتب السر والانشاء والمراسيم السلطانية ، ثم ولاه خطة القضاء بعد ذلك ، وظل يستغل هذه الوظائف السامية ما يقرب من سنتين ، اى الى آخر سنة 762 هـ وهى السنة التي ثار فيها الشعب على ابي سالم المريني الذي قتل سنة 762 هـ . وكان قائد الثورة في هذه الظروف المضطربة الوزير عمر ابن عبد الله .

[1] انظر الناصري ، الاستقصا ج : 4 صفحة 5 اما مؤرخ الدولة المرينية ابو الوليد اسماعيل ابن الاحمر ، صاحب «روضة النسر» في دولة بنى مرين فقد ضرب صفحا عن اسمه ولم يشر اليه ولو بإشارة خفيفة . ولعل السبب في ذلك ان منصور هذا لم يستقر نهائيا في ملكه لذلك لم يتعرض لترجمته .

(3) ابن خلدون والسلطان تاشفين والوزير عمر بن عبد الله صاحب السلطة المطلقة

سعى الوزير عمر بن عبد الله في قتل السلطان ، فنجح مسعاه ، ونصب ملكا على البلاد أبا عمر تاشفين المريني الذي لم يتجاوز عهده ثلاثة أشهر ويومين (1) . لم يتردد ابن خلدون ولو ساعة في الانضمام الى صاحب السلطة الوزير عمر بن عبد الله الذي «أقره في وظائفه وزاد في اقطاعه لرزقه» (2) . لكن طموحه كان فوق هذا ، اذ كان يطمح في مناصب اعلى كما عبر عن ذلك بنفسه حيث قال : «كنت اسمو بطغيان الشباب الى أرفع مما كنت فيه » (3) .

لم ترضه هذه الوظائف رغم سموها ، وقوة نفوذها ، فقدم استقالته وطلب من مخدمه الاذن بمغادرة البلاد ، فحصل على الاذن المطلوب بعد أخذ ورد وتضرع ، وتوسل ، وبشرط ان لا يذهب الى تلمسان . فغادر المغرب سنة 763 هـ. بعد ما نعم بخيراته وتقلب في مناصبه السامية ، لكن دافع الغرور المتمكن من نفسه ، وحب الزعامة والرياسة المسيطر على وجدانه ساقاه الى بيئة اخرى ، الاندلس ، عله يظفر فيها بما كانت تصبو اليه نفسه .

وهكذا نرى الى اى حد تآثر ابن خلدون بالبيئة المغربية كما تأثرت به . لقد لعب فيها دورا رئيسيا من الناحية السياسية والاجتماعية ومن الناحية الفكرية والثقافية . الم تكن هذه الاحداث المتقلبة التي عاشها في هذه البيئة ، الم تكن هذه التأثيرات المادية والاجتماعية والمعنوية عاملا من عوامل تكوينه وتكوينه . لقد مكنته هذه الظروف من اكتساب خبرة واسعة ، وتجربة كبيرة ، وثقافة غزيرة . ففضل البيئة المغربية عليه حقيقة تاريخية لا يمكن التغافل عنها . وكنتيجة حتمية لذلك ، فهو مدين - الى حد ما - بآثاره القيمة الخالدة لهذه البيئة التي عاش في احضانها مدة حافلة بالاحداث والوقائع الاجتماعية الخطيرة .

فالى اى حد كان تأثير هذه البيئة متجليا في انتاج ابن خلدون ؟

اهم ما ترك لنا ابن خلدون هو كتابه الضخم القيم الذي يعرفه الكل : « كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » يمكننا ان نقسمه من حيث أهميته الى ثلاثة اقسام رئيسية :

(2) الدكتور عبد الواحد وافي ، ابن خلدون (مصر ، مكتبة النهضة) صفحة 30 .
(3) التمرى ص 88 .

(I) المقدمة

(2) القسم المخصص للتاريخ

(3) القسم المتعلق بترجمة ابن خلدون نفسه وهو «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» .

أما المقدمة فشهرتها لا تخفى ، وهي التي خلدت ذكر صاحبها على مر الأزمان والايال ، وهي التي برهنت على غزارة علمه وقوة ادراكه ، ودقة ملاحظاته وتوقد ذكائه ، وبذلك كانت له الزعامة الفكرية في عصره اذ اتى بشيء جديد في ميدان العلم والمعرفة ، ذلك انه التمس علما جديدا سمي فيما بعد بعلم الاجتماع . وكفى ابن خلدون فخرا هذا المجهود الذي وضعه في مقدمة مفكرى الاسلام بل في مقدمة رواد الفكر في العالم اجمع .

على أن المهم بالنسبة لموضوعنا هو ان ابن خلدون في هذه المقدمة استقى معلوماته وحججه وادلته من البيئة المغربية التي عاش فيها ، وسواء كان يتحدث عن البيئة المادية أو عن مظاهرها الاجتماعية فحديثه هذا يكاد يكون مقصورا على هذه البيئة وما تضمنته من امكانيات بشرية ومادية ، وما دار فيها من احداث وفتن كانت مسرحا لها ، وهذه الظاهرة هي التي جعلت النقاد يأخذون عليه هذا الاقتصار وهذه النظرة الضيقة التي جعلته يعمم احكامه بدون ان ينظر ، فيما يرجع للظواهر الاجتماعية ، الى البيئات الاخرى التي كانت تجاور المغرب او التي كانت بعيدة عنه . فالاحكام ، اذا كانت موضوعية ، تصدر عن فكر استطاع ان ينظر الى الاشياء والاشخاص نظرة عامة شاملة لان القوانين التي يخضع لها كل علم يجب ان تتصف بالدقة والشمولية قبل كل شيء . ذلك ان علم الاجتماع من العلوم الوضعية لا من العلوم المعيارية النسبية .

وعلى كل ، فتأثير البيئة المغربية في هذا القسم من انتاج ابن خلدون تأثير واضح لا يحتاج الى ادلة كثيرة ، فما على الباحث الا أن يتصفح المقدمة ليتبين هذه الظاهرة ، عليه ان يقرأ مثلا الفصول التي عقدها ابن خلدون عن العلوم والمناهج والاساليب التربوية .

فابن خلدون حتى في الجزئيات ياتي بأمثلة مستمدة من بيئة المغرب . وهكذا مثلا عند ما عرض للتعاليم لم يفته ان اشارة الى ابن البناء المراكشي ، بل علق عليه ونوه كثيرا بثقافته وبذكائه وبانتاجه وهو التلخيص في اعمال الحساب الذي وقف عليه ابن خلدون نفسه .

واذا تركنا جانبا المقدمة والقينا نظرة على ما كتبه ابن خلدون في التاريخ وجدناه يخصص اكبر قسط منه للتحدث عن البربر واصلهم وبطولتهم المتشعبة ، وما قاموا به من ادوار وما اتصفوا به من بطولة في المغرب . ولقد تناول على الخصوص في هذا القسم الثاني الذي هو الكتاب الثاني من مؤلفه الضخم (أو المجلدان

السادس والسابع اذا اعتبرنا المجلدان السبعة التي ضمنها تاريخه كله) قبائل صنهاجة ثم المصامدة وأخيرا زناتة التي افاض فيها القول واطنّب ، واتى بكل تفصيل وجزئية لا سيما فيما يرجع لبنى مرين . فلماذا اذن هذه العناية الخاصة التي أولاها لزنانة ولبنى مرين منهم على الخصوص ؟ ان المجلد السابع كله خاص بهذه القبائل الاخيرة التي صرف في التحدث عنها مجهودا كبيرا . ايعتبر هذا تحيزا منه أو تملقا لدولة بنى مرين القائمة في عهده ، والتي نال على يدها حظا كبيرا من الجاه والمال والنفوذ ؟ ليس ذلك من المستبعد ولا من الغريب في شيء اذا تذكرنا اخلاق ايسن خلدون ومواقفه المتقلبة التي وقفها من أمراء وملوك هذه الدولة حينما كان يشغل ببلاطهم المناصب السامية .

وعلى كل ، « فالقسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر هو بعد المقدمة انفس اقسامه ، وافرها طرافة ، واقواها عرضا وتحقيقا ، وفيه من الروايات والحقائق الغريبة عن احوال تلك الامم والقبائل البربرية ، ما لم يوفق اليه اي مؤرخ قبل ابن خلدون او بعده » (I)

واذا كان ابن خلدون ، في بداية كتابة تاريخه ، قصد الكلام عن القطر المغربي بمعناه الواسع كما صرح بذلك هو نفسه في مقدمته (2) فان كلامه هذا يكاد يكون مقصورا على بيئة المغرب الأقصى بالضبط .

أما فيما يرجع «للتعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» فهو سجل لهذه الاحداث التي عاشها ابن خلدون في المغرب في ظل بنى مرين ، تحدث فيه عن المناصب التي شغلها ، والمؤامرات التي قام بها ، والدسائس التي حيكها في ميدان السياسة والطرق التي سلكها لتحقيق أغراضه الشخصية ، والعلاقات التي كانت تربطه بالملوك والأمراء وبعض الشخصيات التي كانت تتعاون معه في المناورات التي كان يدبرها . بل نراه في هذا «التعريف» يتحدث حتى عن ثقافته الادبية ، وأسلوبه الانشائي والطرق التي أصبح يسلكها في صياغة الرسائل وقرض الشعر . ولا بأس بإيراد ما قاله في هذا الموضوع : «وكان اكثر الرسائل يصدر عني بالكلام المرسل ، لم يشاركني احد ممن ينتحل الكتابة في الاسجاع ، لضعف انتحالها ، وخفاء العالي منها على اكثر الناس ، بخلاف المرسل . فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عندهم بين أهل الصناعة ثم أخذت نفسي بالشعر تنثال علي منه بحور» (3) ونجد في التعريف ايضا قصائد شعرية ، منها القصيدة التي نظمها بمناسبة حلول عيد المولد النبوي ورفعها الى السلطان ابي سالم المريني الذي عينه كاتب السر والانشاء . نقتطف منها هذه الايات :

(I) محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون (الطبعة الثانية القاهرة 1953) صفحة 139 .

(2) انظر المقدمة صفحة 28 .

(3) ابن خلدون ، التعريف ، صفحة 88 .

اسرفن فى هجرى وفى تعذيبى
واين يوم البين موقف ساعة
لله عهد الطاعنين غادروا
غربت ركائبهم ودمعى سافح

واطن موقف عبرتى ونحيبى
لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
قلبى رهين صباة ووجيب
فشرقت بعدهم بماء قروب(I)

الى غير ذلك من القصائد التى نظمها فى مناسبات شتى والتى لا يتسع لها المجال هنا نظرا لوحدة الموضوع .

وبعد ، ذلك هو ابن خلدون فى البيئة المغربية ، وتلك آثارها فيه وفى انتاجه الضخم الذى ظل رغم مرور قرون طويلة المرجع الاساسى فى كثير من الابحاث التاريخية والعلمية والفلسفية والاجتماعية بل وحتى الاقتصادية . فهو كما قلنا مدين لهذه البيئة وهى مدينة له . اخذ منها واعطى ، وبذلك كمل التفاعل بينهما وانسجم ، وبذلك ازدهرت العلوم فى عصر بنى مرين ورقى مستواها .

ابن مرزوق

نتقل الى الشخصية الثالثة المكونة للثالث الذى اشرنا اليه فى مقدمة هذا الحديث ، وهى شخصية الخطيب ابن مرزوق الذى عاش فى كنف الدولة المرينية ، وتقلب هو الآخر فى وظائفها السامية ، ولعب دورا فى حياتها السياسية وشؤونها الثقافية . فكان مصيره تقريبا مصير معاصريه ابن الخطيب وابن خلدون ؛ لان ما عرف به من أخلاق غير مستقيمة ، ومن دسائس ومناورات سياسية ، وما عرف به من كفاءة فكرية وأدبية ونفوذ معنوى ، كل ذلك جعله يضاهى هاتين الشخصيتين المتقدمتين ويرقى الى مصافهما .

ونظرا لتعدد افراد أسرة ابن مرزوق الشهيرة بالعلم والمعرفة ، والخير والفضل ترى ضروريا هنا أن نعرض بعض الشئ لصاحبنا ، رفعا للالتباس ، وتمييزا له عن غيره ممن ينتسب الى ابن مرزوق . ذلك أن هؤلاء الافراد كانوا ، كما قلنا ، كثرهم علماء فقهاء ، تركوا صيتا ذاع فى المشرق وفى المغرب . ومؤلفات نفيسة خلدت شهرتهم الى الآن . هناك العم ، وهناك الجد ، والاب والابناء ، والاحفاد ، وحفدة الاحفاد ، كلهم رجال خير وعلم . اشتهر من بينهم على الخصوص ابن مرزوق الكفيف ، وابن مرزوق الخطيب الذى يهم موضوعنا نظرا للصلة التى كانت تربطه بالبيئة المغربية فى زمن بنى مرين .

(1) رجعنا فى نقل هذه الابيات الى محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون صفحة 32 .

ترجم له ابن خلدون في العبر ، وابن الخطيب في الاحاطة ، وابن حجر العسقلاني في الدرر ، ثم تعرض له بتفصيل المقرئ في نفح الطيب حيث خصص لترجمته الكافية ما يزيد على 22 صفحة (I) أتى فيها بأخباره وقصائد شعرية نظمها بغرناطة وبالمغرب أيضا . وقد نقل المقرئ بالحرف ما جاء في كلام ابن الخطيب وما أورده ابن خلدون في نفس الموضوع ، مع الإشارة الى بعض الفروق التي لاحظها فيما يرجع لتاريخ وفاته وبعض الاحداث التي ميزت حياته .

وعلى كل ، فمترجمنا هو الخطيب أبو عبد الله محمد بن احمد ابن محمد بن محمد ابن أبي بكر بن مرزوق الملقب بشمس الدين . ولد بتلمسان سنة 710هـ . ونشأ بها الى أن رافق أباه الى المشرق حيث أدى هذا الأخير فريضة الحج وبقي معتكفا هناك . أما الابن فقد رجع الى المغرب بعد أن أخذ عن عدد كبير من علماء المشرق، وكان رجوعه الى وطنه سنة 733هـ فصادف رجوعه هذا وجود السلطان أبي الحسن المريني الذي كان محاصرا لتلمسان . فاغتنم مترجمنا هذه الفرصة واستغلها لاغراضه الشخصية ، فتقرب من السلطان المريني الذي أولاه عطفه وتقديره نظرا لما كانت عليه أسرته من علم وثقافة ونبل ، فأسند اليه بعد وفاة عمه إمامة المسجد الذي بناه بالعباد . فأخذ ابن مرزوق في كل مناسبة يمدح مخدمه ويشيد بذكركه ، فزاده ذلك تقربا من أبي الحسن ، وارتفعت مكانته لديه وحظي بكبير ثقته . فكانت النتيجة أن أصبح من ملازميه ومن خواصه الاقربين . فقام ابن مرزوق بمهامه هذه أحسن قيام ، وأخلص لرئيسه ايماء اخلاص حيث رافقه في وقعة طريف وترأس السفارة التي تفاوضت مع ملك قشتالة الادفنس الحادى عشر لابرام معاهدة صلح . فوق سفيرنا في مهمته .

ابن مرزوق بعد وفاة السلطان أبي الحسن

ولما توفي السلطان أبو الحسن المريني قدم ابن مرزوق الى المغرب عله يسترجع لدى الملك الجديد ، أبي عنان، مقامه السابق ؛ لكن الظروف لم تكن مواتية، فقفل راجعا الى تلمسان حيث أقام بالعباد . الا أن الطموح السياسى وحب المغامرة والسيطرة على مناصب الدولة الرئيسية ، كل ذلك دفعه الى استغلال ظروف أخرى حيث اتصل ببني عبد الواد وصار في خدمتهم الى أن زجوا به فى السجن ، لخدلانه وتآمره على سلطانهم . فلبث فى السجن الى أن التحق بالعدوة الاندلسية حيث عين خطيبا بمسجد غرناطة الاعظم .

ابن مرزوق في خدمة بنى مرين مرة أخرى

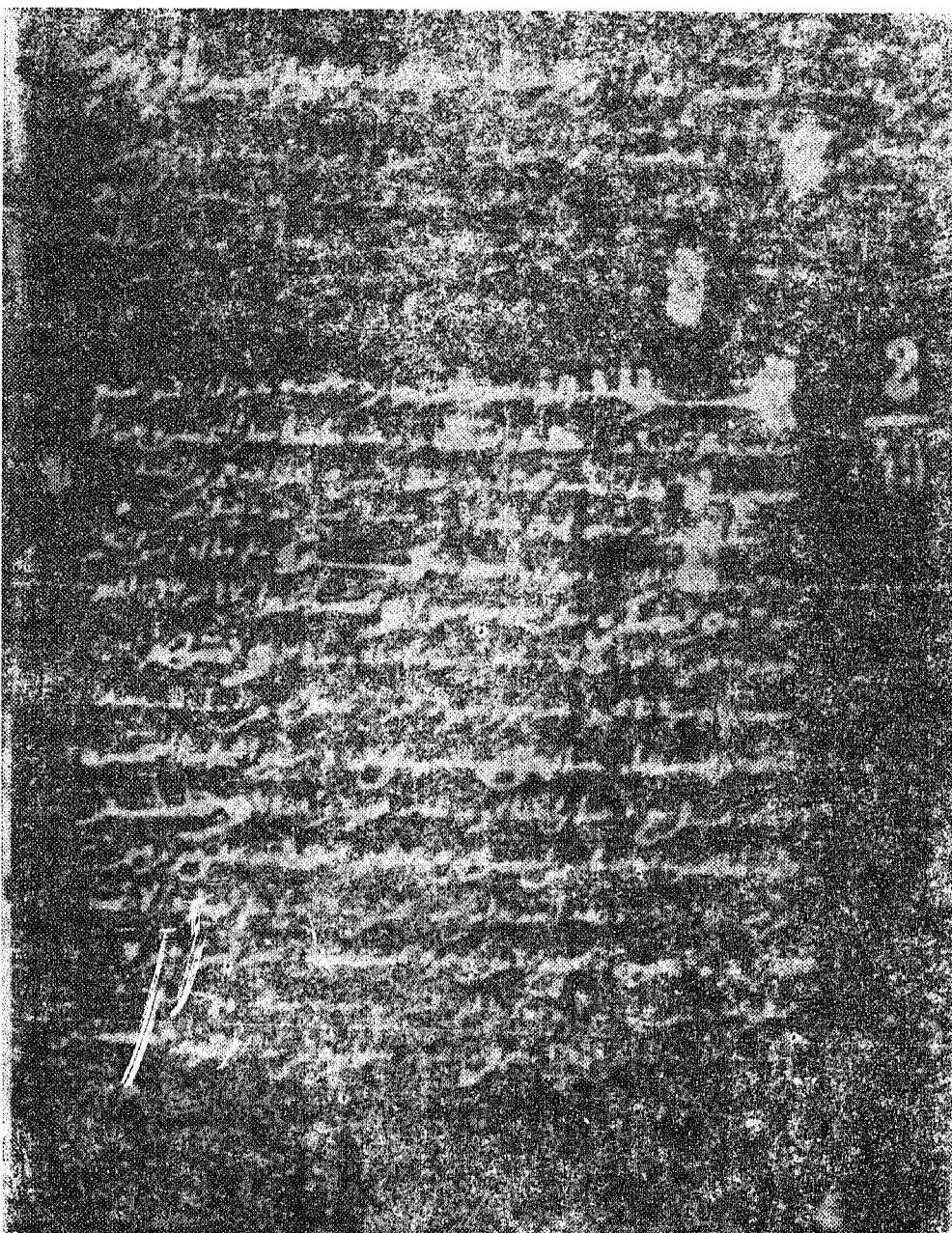
نظرا للشهرة التي اكتسبها ، ولدهائه وثقافته الواسعة ، ومهارته في خدمة الملوك ، استدعاه أبو عنان المريني سنة 754هـ بعد استرجاعه تلمسان وقربه منه ، حتى أصبح من خواصه ومن كبار أعضاء مجلسه . وبعد مدة بلغت أربع سنوات ، كلفه بمهمة شخصية عالية وهي الاتصال بالسلطان الحفصي أبي يحيى ليخطب منه ابنته التي كان أبو عنان يرغب في الزواج بها . لكنه لم يوفق في هذه المهمة الثمينة ، فرجع خائبا . وقد قيل لابي عنان ان السبب في هذا الفشل هو ابن مرزوق نفسه الذي قصر في الامر ولم يستغل نفوذه ولا الوسائل التي كان في استطاعته أن يستعملها لانجاح المهمة . فثار أبو عنان ثورة عاطفية لم يستطع معها أن يقبض على زمام أمره . فما كان منه الا أن قبض على السفير وألقى به في السجن عقابا له وانتقاما منه . فمكث فيه مدة تقرب من سنتين أطلق صراحه بعد انصرامها .

ابن مرزوق في خدمة أبي سالم

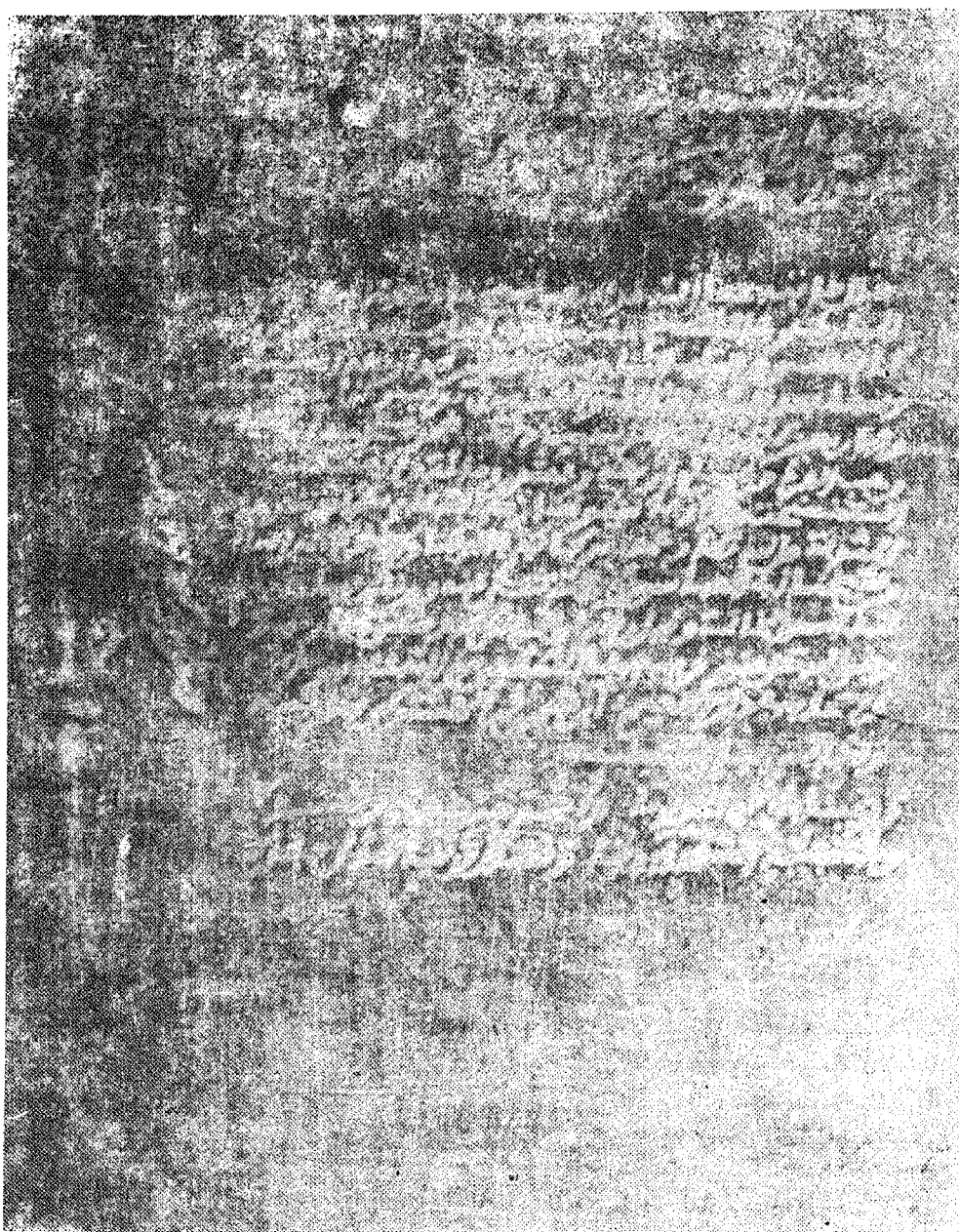
ومع ذلك فابن مرزوق ، كعادته ، وكعادة معاصريه ابن خلدون وابن الخطيب لم يعتزل السياسة ، ولم يتعظ بهذه الاحداث التي نكبته وألحقت اضرارا خطيرة بجسمه . فعاد الكرة ، واستعمل حيله ونفوذه ودهاءه ، فتقرب من أبي سالم المريني بمجرد استيلائه على عرش أجداده ، فاسترجع سابق عهده وما كان له من نفوذ أيام أبي الحسن المريني لكن الاحداث السياسية والفتن الداخلية وتلاعب الوزراء بالسلطة واستبدادهم بشؤون الدولة ، كل ذلك عكر الجو الصافي الذي كان يعيش فيه ونقص حياته وأصابه في الصميم حينما قبض عليه ورمى به في السجن مرة أخرى . ذلك أن «الوزير عبد الله استولى على الامر» (I) سنة 762هـ وخلع أبا سالم وسعى في قتله .

تلك هي الظروف التي عاشها ابن مرزوق في المغرب وهي ، كما رأينا ، ظروف خطيرة ومهمة في نفس الوقت ، احتك فيها مترجما بالملوك ، والوزراء ، وكبار الدولة ، وشخصيات المغرب الثقافية التي كانت تعمل جنبا الى جنب معه في البلاط المريني بفاس . وتلك نبذة وجيزة عن حياته في هذه البيئة ، تعمدا فيها الاختصار واختيار ما له صلة بموضوع بحثنا . فابن مرزوق ، كما تجل لنا في هذه السطور ، شخصية عظيمة لعبت دورا ثقافيا مهما حيث شغلت في المغرب مناصب سامية ، لم تكن تسند الا لمن برهن عن كفاءة ومقدرة علمية كبيرة كما لعبت ، الى جانب ذلك ، دورا خطيرا في ميدان السياسة والادارة .

(1) القرى ، استنادا الى ابن خلدون انظر ص 320 - 324 .



الصفحة الاولى من «المسند الصحيح في مآثر مولانا ابي الحسن» للخطيب
ابن مرزوق مخطوط الخزنة العامة رقم ق 111 .



الصفحة الأخيرة من «المسند الصحيح في ماثر مولانا ابي الحسن» للخطيب
ابن مرزوق مخطوط الخزنة العامة رقم ق 111 .

فما هي آثاره

ان شخصية كهذه لابد أن تترك ما يخلد ذكرها رغم اشتغالها بالسياسة وأمور الدنيا . ترك ابن مرزوق قصائد شعرية أوردتها المقرئ في نفح الطيب مع تعليقات ابن الخطيب عليها (I) وهي قصائد كلها تنم عن ثقافة أدبية واسعة وشاعرية متفتحة . أما في ميدان الفقه والحديث فقد خلف ابن مرزوق المؤلفات التالية : شرح على ابن حبيب الفرعي ، سماه «إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب» . شرح على العمدة في خمسة أسفار والعمدة كتاب في الحديث معروف ألفه الامام عبد الغني المقدسي الحنبلي المتوفى سنة 203هـ . وهذا الشرح نفيس جدا ويقع في خمسة أسفار ؛ ثم شرحه الكبير لكتاب الشفاء للقاضي عياض والمهم بالنسبة لبحثنا هو أن ابن مرزوق خلف لنا في ميدان التاريخ المغربي مؤلفا قيما نادرا سماه : «المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن» .

فما هو اذن «المسند»

نلاحظ أولا أن نسخة خطية منه توجد الآن بقسم المخطاطات بالخزانة العامة بالرباط مسجلة تحت رقم III وقفنا عليها أثناء قيامنا بهذا البحث وتصفحناها فوجدناها من حيث الشكل مكتوبة بخط مغربي غير جميل (فيه كثير من أخطاء الرسم والنحو) يتطلب من القارئ عناية كبيرة وصبرا كافيا لاتمام قراءته . وهي النسخة الوحيدة الموجودة بالمغرب . ولا نظن أحدا نشرها لحد الآن حسب ما وقفنا عليه وحسب الاتصالات التي أجريناها مع المسؤولين وذوى الاختصاص ، كل ما عثرنا عليه في هذا الموضوع هو البحث الذي قام به ليفي بروفنسال حول ابن مرزوق في مجلة هيسبريس (المجلد الخامس سنة 1925) التي نشر بها الباب الذي خصصه ابن مرزوق من مؤلفه الضخم للحديث عن أبي الحسن المريني وذلك تحت عنوان : «منتخب جديد في تاريخ الدولة المرينية» .

يتضمن المسند زيادة على الديباجة خمسة وخمسين بابا كلها تدور حول أصل وتاريخ الدولة المرينية ، ورغم كون الكتاب ألف من أجل أبي الحسن كما يدل عليه عنوانه ، فإن المؤلف شمل دولة بني مرين كلها بالعطف والتقدير وأثنى عليها بمزيد الإعجاب والاحترام ، وإذا كان أبو الحسن المريني هو المعنى بالامر وهو محور الحديث فإن ابن مرزوق خصص قسما كبيرا من مؤلفه هذا للحديث عن السلطان أبي يحيى والسلطان أبي يعقوب يوسف بينما لا يتناول أبا عنان وأبا سالم الا بشيء

من الإيجاز رغم كون الأول يعتبر من أعظم ملوك الدولة المرينية ومن أكثرهم إيجابية وفعالية في ميدان السياسة والاقتصاد والفنون ، فلماذا إذن لم يحظ أبو عنان بعناية ابن مرزوق كما حظي بها أبو الحسن وأبو يعقوب يوسف ؟ لماذا هذا التفاضل وهذا الإجحاف من ابن مرزوق ؟ لعل الجواب يكمن فيما لقيه ابن مرزوق على يد أبي عنان ، على الخصوص ، من تعذيب ومحن .

وهكذا لم يبرهن ابن مرزوق حتى في ميدان التفكير والتاريخ عن الاستقامة الضرورية والنزاهة التي يجب أن يتصف بها كل باحث ومدقق كي لا تشوه أحكامه ولا تحرف أقواله .

ومع ذلك «فالمسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن» رغم ما اتصف به من تحيز سافر في بعض المواضيع ورغم التصاقه بالملوك والرؤساء ، وخلوه من معلومات اجتماعية تتناول الطبقات الشعبية وعلاقاتها بهؤلاء الملوك من حيث الاقتصاد والاجتماع ، رغم ذلك كله ، يعتبر من المصادر التاريخية التي لا يمكن الاستغناء عنها لاسيما فيما يرجع لهذا العهد الذي تؤرخ له

ذلك من حيث الموضوع ، أما من حيث الأسلوب فقد برهن ابن مرزوق في هذا المؤلف عن مقدرة كبيرة في التنظيم والتنسيق وربط الأحداث وحسن التخلص من باب إلى باب . لا تعقيد في ذلك ولا تكليف ، ولا صناعة لفظية طاغية على الأفكار والمعاني كما هو الشأن بالنسبة لمعاصره ابن الخطيب . فقد جاءت تراكيبه وجمله سهلة ، في مجملها خالية من الزخرف والتنميق والسجع المقيت المتكلف . وذلك ما يناسب الموضوع الذي تناوله ، لأن الأمر يتعلق ببسط أفكاره وعرض حوادث ، معينة ، وشرحها ، وتبيين عواملها الظاهرة والخفية . فلا مجال إذن للعاطفة وجموح الخيال .

الباب الثالث

الحياة الادبية في عصر بنى مريـن

- 1 - النهضة الادبية الفنية
- 2 - مكانة الشعر بالنسبة للنثر
- 3 - النزعة الروحية فى الادب المغربى
- 4 - نتائج هذه النزعة بالنسبة للاغراض الاخرى
- 5 - فن الرحلة .

هل كانت هناك نهضة أدبية فنية

ان الذين كتبوا عن هذا العصر ، سواء من الناحية التاريخية ، وذلك هو الغالب ، أو من نواحي أخرى ، لم يفتهم أن أشاروا الى أن المغرب في عهد بنى مرين عرف ازدهارا ملحوظا بل هناك منهم من أكد أن هذا العصر امتاز على الخصوص بنهضة أدبية كبرى لم يسبق للمغرب أن عرفها من قبل ، أى فى أى عصر من عصوره الزاهرة ، والدليل على ذلك فى نظر هؤلاء هو بروز عدد كبير من الشخصيات العلمية أو الادبية ووجود انتاج فكرى ضخم ، ما كان للمغرب به عهد فيما مضى ؛ بل كثيرا ما وجدنا فى هذه المصادر التى تتعرض لتاريخ المغرب فى هذه الحقبة عبارات مثل «ازدهار ثقافى» «ونشاط علمى» «وحركة فكرية» «ونبوغ أدبى» وغير ذلك من الاوصاف التى يقصد منها بيان الكم والفعالية ولا يستفاد منها ما يدل على التخصيص والتمييز . لذلك نرى من الضروري أن نقف هنا ولو قليلا للتعرف على نوع هذا النشاط وتحديد وجهة نظرنا فيه . وأول ملاحظة تواجهنا هنا هى ذلك الخلط الذى وقع فى التعريف بهذا النشاط ، فى تحديد أفقه وأبعاده ، فكانت النتيجة أن أصبح البعض يسميه مرة ازدهارا ثقافيا وأخرى نشاطا علميا ، كما اعتبره البعض الآخر نهضة أدبية وازدهارا ثقافيا ، وهكذا أصبحت هذه الاوصاف كلها تطلق ، وبدون تمييز ، على كل انتاج أدبى أو تاريخى أو تأليف فى الفقه أو الحديث أو التفسير . فإين نحن اذن من الادب وفنونه ؟ أين نحن من البلاغة والبيان ؟ أين نحن من المعانى والافكار والمخيلة والعاطفة والموسيقى ...؟ أيعتبر ذلك كله انتاجا أدبيا حتى ما دخل منه فى باب الوعظ والارشاد ؟

ان السبب فى هذا الخلط وهذا الابهام يرجع فى نظرنا الى التطور الذى طرأ على الكلمات المستعملة للدلالة على هذا المعنى أو ذاك ، فبحكم هذا التطور تعنى هذه الكلمات أكثر أو أقل مما كانت تعنيه من قبل حسب الظروف والملابسات ، يتسع مدلولها أحيانا ثم يضيق أحيانا أخرى حتى لا تكاد تجد له استقرارا ؛ ومجالا معيناً ، ونتيجة لذلك يقع الاختلاف بل الخلاف وبالتالى الغموض والالتباس . ولا أدل على ذلك ، مثلا من كلمة ثقافة التى ظل مفهومها بين مد وجزر عبر العصور الى أن وصل ما عليه اليوم من شمول واحاطة ، بل ما زلنا الى اليوم نرى استعمالها يختلف من بيئة الى أخرى حسب الطقوس الدينية والمذاهب السياسية والمعتقدات الايديولوجية . ان فى ذلك لتبريرا لهذه المواقف المختلفة التى اتخذها أدباؤنا أو مؤرخو حضارتنا من انتاجنا الفكرى فى عصر بنى مرين كما نجد فيه ما يعلل هذا الخلاف وهذا الالتباس اللذين طبعا مواقفهم وأحكامهم الظاهرة فى شأنه . ان النشاط الثقافى لعصر من العصور أصبح يعنى فى نظر علماء الاجتماع ، على اختلاف مذاهبهم وتباين مدارسهم ، كل ازدهار فكرى وكل رقى حضارى ، يجمع بين المعنويات والماديات والروحيات ، يدخل فيه العلم والتاريخ والادب والفلسفة وغير ذلك من فروع المعرفة والانتاج

المادى ، فالإنسان هو المحور ، وهو المحرك ، وهو المنتج لكن مع تفاعله مع معطيات بيئته المادية والاجتماعية . فانتاجه اذن عسارة أو حصيلة لهذا التفاعل المستمر الجارى فى زمن ومكان معينين .

ومع ذلك ، وبقطع النظر عن هذا التطور العام الذى يصنع المعطيات الكونية والاجتماعية ، اننا نجد سببا آخر لهذا الخلاف الذى وقع فى تحديد وتعريف نشاط البيئة المغربية فى ميدانى الفكر والادب . ويتعلق الامر هنا وبصفة أدق بالادب نفسه الذى ظل يتعثر بين أقلام المؤرخين والادباء أنفسهم متأثرا بميولهم الخاصة ، وبنزعاتهم الفردية ، دون أن يجد لنفسه ميدانا خاصا ومجالا واضح الابعاد والمعالم . فكان الغموض يكتنف سبيله ، والتناقض يهدد مستواه ومصيره ، وإذا كان من الطبيعى أن يخضع هو الآخر ككل كائن حى لقانون التطور العام ، فان البيئة العربية على الخصوص كان لها حظ وافر فى تطبيق أفقه وتحديد وتقليص دائرته حتى أصبح يقتصر على نوع خاص من الانتاج الفكرى دون سواه ، وحتى أصبحت فنون أخرى من القول أجنبية عنه ، وأقصيت من ميادينه لكونها لا تستجيب لهذا المقياس الذى كان يقاس به ولا يخضع لهذا المدلول الذى كان يحدد آفاقه . فكانت النتيجة الحتمية أن وقع الاضطراب والارتباك فى تاريخ الحركة الفكرية أو الادبية ، فأصبحت ترى المؤرخ فى نظر البعض أدبيا والفقيه أو المحدث فنا فى نظر البعض الآخر . وتصبح الحركة العلمية حركة أدبية والعكس بالعكس . كما أصبح الواعظ المرشد يدرج فى طبقة الشعراء المفلكين والسبب واحد رغم اختلاف مظاهره ، وهو أن هذا يريد للادب محلا ضيقا ، محدود المظاهر بينما الآخر يسمو به ويوسع أرجاءه ، ويسير به بعيدا لكن يشمل جميع أنواع النشاط الفكرى ، وتظل المعركة قائمة ويظل الخلاف مسيطرا ومستمر .

ومع ذلك فالسؤال الذى ألقيناه على أنفسنا فى بداية هذا الحديث ، ما زال ملحا ينتظر الجواب رغم هذه الاعترافات التى أوردناها ورغم هذه الملاحظات التى أبروناها لتسليط بعض الاضواء على الموضوع وتوضيح بعض جوانبه . ان الادب بمعناه الضيق وحسب المدلول التقليدى الذى منحتة اياه البيئة العربية لا يتعدى النثر والشعر ، بل حتى فى ميدانى النثر والشعر تشترط شروط دقيقة ، لا يعتبر الانتاج أدبا بدون توافرها . ليس كل ناظم بشاعر كما ليس كل من كتب أو ألف فى الفقه ، أدبيا . ان الاديب فنان قبل كل شئ ، يجب عليه أن ينتج أدبا رائعا فيه أثر للصناعة اللفظية والموسيقى الشعرية ، وفيه جمال وإبداع ، وإبتكار ، ومعانى وصور ، وتشبيهات . ومعنى ذلك أن كل انتاج حفل بالحقائق وحدها ولم يعتمد على الصناعة والخيال والماطفة لا يعتبر حسب المفهوم الذى أوردناه أدبا خالصا . ان الاصالة والتجربة الشخصية ، وتغلب العنصر الذاتى فيه ، كل ذلك يدخل فى المقاييس التى يحكم بها على كل منتج أراد أن يدخل حضيرته . اذا كان الادب هذا معناه ، وإذا القينا نظرة على ذلك التراث الفكرى الذى خلفته لنا البيئة المغربية فى عصر بنى

مرين ، اذا نظرنا الى هذا التراث بهذا المنظار الضيق مع اعتبار كميته ، صعب علينا الاعتراف بوجود نهضة أدبية فنية في هذا العصر . ليس من شك في أن هذا الانتاج الفكرى كان ضخما وواسع النطاق ومتشعب الفروع ، كما سنرى من بعد ، وليس من شك في أن هذا الانتاج كان عظيما ، الا أنه كان من النوع الذى لا يخضع للتعريف الذى أوردناه سابقا ، بمعنى أنه لم يكن فى مجموعه يحفل بالانفعالات والاحاسيس والحالات النفسية الخاصة المتولدة عن التجارب الشخصية ، كما حفل بالافكار والحقائق العلمية .

ويضاف الى ذلك ما كان ينقصه من اهتمام بعمليات الخلق والابتكار عن طريق استعمال المخيلة وتسخيرها لفائدة الابداع الفنى الذى يتجلى فى حسن التركيب واتقان التأليف ، وفى التصوير والتشبيه ، فالمجهودات التى بذلت فى هذا الميدان لم تكن كافية اذا ما نظرنا الى الجهود المبذولة فى التعبير عن الافكار المجردة واستخراج الحقائق واستنتاج القواعد ، وبعبارة أدق وأوجز كان الانتاج الفكرى عيارا عن شروح وتلخيصات وتعليقات ، وتأليف فى الفروع وفى التفسير وفى الفقه وفى الحديث وفى الاصول والبيان الى جانب ما نظم فى ميدان التاريخ والقواعد النحوية وغير ذلك مما سنتعرض له فى موضعه ، وتبعاً لذلك فلم تكن هناك نهضة أدبية فنية .

ان هذا الانتاج تغلب عليه الصبغة العلمية فى مجموعه فتبعده عن ميدان الفن الخالص الذى يعتمد قبل كل شئ على المخيلة والعاطفة ، وجمال التعبير ورشاقة الاسلوب . وبناء على ذلك وتطبيقا لما ورد ، فالنهضة التى شهدتها عصر بنى مرين كانت نهضة عملية فى جوهرها وفروعها كما يتجلى للقارئ فى فصل آخر . ورب معترض لاحظ فى هذا الحكم نوعا من التعسف واغفالا لبعض الحقائق ، مذكرا بما كان للبيئة المغربية من مشاركة كذلك فى ميدان الفن الادبى الصرف . وجوابنا هو أننا لا ننكر هذه الحقيقة ، ولا ندعى أن الحركة الفكرية فى هذا العصر خلت من كل مجهود أدبى خالص ، بل ، على العكس ، نؤكد مشاركة كثير من الادباء المغاربة فى هذا الميدان ، مساهمتهم بحظ وافى فيه بالمعنى الذى تعارف عليه النقاد العرب ، وحسب المفهوم التقليدى للادب ، هؤلاء المغاربة أدلوا بدلوهم فى الدلاء كما يقال فأنجبوا أدبا لا يقل عن أدب غيرهم ، الا أننا كما أسلفنا ننظر الى هذا الانتاج نظرة شاملة ، ترمى الى معرفة مجموعه ، وتقدير كميته فى الجملة ، وتحديد نسبته الفنية . لذلك كان حكمنا حكما عاما ونسبيا فى انتظار ما ستكشف عند دراستنا المقبلة لهذا الانتاج ، وما سنستخلصه من نتائج فى تقييم وتحديد نوعه واتجاهاته على ضوء المفاهيم التى تحكمته الى درجة ما فى تطوره .

على أننا رغم كل ما سبق ، اذا ما نظرنا الى هذه النهضة بتجاوز وعلى ضوء المفاهيم المستحدثة ، أمكننا أن نغير رأينا بعض الشئ ، وان نخفف من حكمنا ، الذى قد يبدو قاسيا لفائدة هذه النهضة التى ازدهرت فى زمن بنى مرين . ذلك أن

الفن الادبي كما هو معلوم يتضمن عنصرين أساسيين ، يكمل أحدهما الآخر ، بتفاعل مستمر ، وتجاوب منسجم ، يشكلان وحدته ويؤسسان قاعدته ، انه شكل ومضمون ، أو عرض وجوهر حسب اصطلاح الفلاسفة ، وإذا كان المضمون ، في أساسه ، يعتمد على المخيلة والعاطفة والفكرة والمعنى ، فان الشكل ، الذي هو عنصر مكمل له ، يعنى بالكلمة وباختيارها ، وبالصياغة اللفظية ، وحسن التنسيق وبالاسلوب الجميل الرشيق ذى الوقع الحسن أو التأثير البليغ ، ان الشكل هو الادوات أو الوسيلة الموصلة للهدف ، فاذا انعدمت الوسيلة أو ضعفت أو أصيبت بتحريف أو بنقص ، كان من الصعب ، اذا لم يكن من المستحيل ، تحقيق الهدف المنشود ؛ بل ان الوسيلة اذا اعتراها ضعف أو تشويه ، اذا كانت غير سليمة ، كان لها تأثير سئ على النتيجة التى تستهدفها . لذلك نرى ، خلافا لما هو شائع ، ان الغاية لا تبرر دائما الوسائل ؛ نرى على العكس أن التناسق والتجانس بينهما أمر ضرورى . ومعنى ذلك بالنسبة لموضوعنا أن البلاغة بأقسامها وفقه اللغة ، وعلم العروض والقواعد النحوية ، كل ذلك من الوسائل الضرورية للادب لانها جزء منه ، تكون جانبه الشكلى وتساعد على أداء مهمته سواء كان أدبا فنيا محضا أو أدبا بمعناه العام . وليس من شك فى أن النشاط الفكرى المغربى حفل فى هذا العصر ، بأبحاث قيمة فى هذا الميدان ، لقد خلف المغاربة كما سنرى فى فصل آخر ، فى البلاغة وفى علم العروض وفى النحو على الخصوص ، مؤلفات من الوزن الثقيل ، كتبا كثيرة يصعب احصاؤها نظرا لوفرتها وتشعب فروعها واختلاف مظاهرها وفقدان جزء كبير منها . فكان لهم الفضل الكبير والباع الطويل فى خدمة اللغة العربية وفى المحافظة على كيائها وتنظيمها ، وتسهيلها ، وتبسيطها وتقريبها من القارئ المبتدىء ، أبدوا فيها وأعادوا ، وحققوا وعلقوا ، وشرحوا وصنفوا الآلاف من الابيات فى قواعدها وصرفها لجعلها عالة بالاذهان ، راسخة فى الفكر . فكانت لهم الشهرة الكبيرة فى العالم العربى ، شرقه وغربه ، واقترن اسمهم بكل مجهود فكرى فى هذا الباب . يكفى مثلا على ذلك ما تركته مقدمة ابن جروم من أثر بليغ فى الاوساط العلمية ، والمثقفة بصفة عامة . ويكفى للدلالة على ذلك ما نظمته ابن المرحل وغيره من أبيات فى العروض واللغة ، تذليلا للعقبات التى تعترض الطالب المبتدىء وتسيلا لمهمة الاديب أو المتأدب . حسبنا مثلا على ذلك أن نورد هذه الامثلة على سبيل الإيجاز ولاعطاء فكرة عن هذه الحركة المزدهرة فى عصر بنى مرين فى انتظار ما سيسفر عنه بحثنا فى موضع آخر . ومن ذلك يتضح أن المغاربة كان لهم دور فعال فى تنمية الحركة الادبية الفنية ، ومشاركة ايجابية ومستمرة فى تثبيت دعائمها عن طريق خدمة اداة فعالة من الادوات التى يعتمد عليها الادب فى نشأته وترقيته وازدهاره ... هذه حقيقة لا غبار عليها ، يشهد بها التاريخ وتنطق بها الآثار التى لا زالت الى الآن علامة على نبوغهم وعلو شأنهم فى هذا الميدان وبذلك حققوا نهضة أدبية فنية لا يمكن انكارها أو التغافل عنها .

لكن هل معنى هذا أن هذه النهضة الادبية كانت شكلية محضة ؟ ذلك ما يستفاد من عرضنا السابق ومن تحليلنا لجوانب الحركة الفكرية التى سادت فى هذا

العصر . الا أننا رغم كل ما ذكر ، نريد رفع التباس وهو أننا لا نقصد التطرف في الرأي ، ولا ندعى وجود جانب وانعدام جانب آخر ، وانما الذى تقصده هو وجود الجانبين معا فى نفس الوقت ، لكن مع طغيان جانب على آخر فالمسألة هنا مسألة نسبية بعيدة عن التطرف والاطلاق .

ومهما اختلفت الآراء فى هذه النقطة ، ومهما تعددت وجهات النظر ، فالامر المسلم به هو أن العصر المرينى عرف حركة أدبية خاصة نرى من المناسب الآن البحث عن عواملها .

ان هذه العوامل التى سنحاول التعرف عليها مستمدة من البيئة المغربية من واقعها المادى ومن معطياتها الاجتماعية ، وهى ، وان تعددت واختلفت فى مظاهرها ، ترجع فى آخر أمرها الى مصدر واحد ، وتعلل وتفسر ظاهرة واحدة هى هذه الحركة الادبية الفنية التى عرفها العصر المرينى .

من أهم هذه العوامل ، يجدر بنا أن لا ننسى عاملا بشريا كان وراء هذه الحركة وساعد على تنميتها بصفة مباشرة أحيانا وغير مباشرة فى ظروف أخرى . هذا العنصر البشرى المحرك يتمثل فى بنى مرين أنفسهم الذين استولوا على الحكم وقبضوا على زمام الامر فى المغرب بعد مدة طويلة ، عرفت فيها البيئة المغربية كما مر بنا ، أحداثا خطيرة وانقلابات متعددة من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها . ان بنى مرين ، كنصر اجتماعى له خصائصه ومميزات وعاداته وتقاليده ، بصفاته الفيزيولوجية والعقلية والنفسية والخلقية ، أثروا فى هذه الحركة الادبية عن قصد وعن غير قصد وعملوا على تطويرها . ذلك أنهم كما نعلم قوم اندمجوا فى البيئة المغربية بعد احتلالها وانضموا الى العناصر الأخرى التى تكونتها ، فخلقوا بذلك تيارا اجتماعيا له وزنه وأثره فى معطياته هذه . ان طبيعتهم ، كما رأينا فى فصل سابق ، وأصلهم الذى كان عربيا أكثر منه بربريا ، وماضيهم المتميز بالبداءة والنزعة العربية وكسب العيش والنظر الى الحياة الاقتصادية ، كل ذلك قضاقر فى عامل واحد وأدى الى تطعيم هذه الحركة وتركيز دعائهما . ان التيار الاجتماعى الذى خلقوه بظهورهم فى المغرب وامتزاجهم بعناصر عربية ساعدا على تقوية مركز اللغة العربية فى البلاد سواء على الصعيد الرسمى أو الصعيد الوطنى . ان الروح المسيطرة على مظاهر النشاط الثقافى كانت عربية فى صميمها وقوية فى انتشارها بين مختلف عناصر السكان . لم يكن يصدر عن بنى مرين ، كما يكون ، صدر عن غيرهم ما يخل بهذه الروح ولا ما يوحى بتيار رجعى يؤثر بصفة شعورية أو لا شعورية فى تطور الحركة الادبية وازدهارها . بل كانوا ، بتكوينهم العام وتشابههم مع العرب فى تقاليدهم وكثير من اخلاقهم ومظاهر سلوكهم يعملون من حيث لا يشعرون أحيانا لتدعيم هذه الحركة . ولقد سبق أن رأينا ما نتج عن هذا التشابه من تعاون وترابط فى مختلف المجالات الاجتماعية والمرافق الاقتصادية ، الشيء الذى خلق شبه وحدة عنصرية كان لها من النتائج ما حاولنا ابرازه فى محله وما نلمسه الآن فى هذا الميدان .

وغير خاف ما لعبته القبائل البدوية النازحة من المشرق الى المغرب في المجتمع المغربي من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، فقد كان لهذه القبائل ظهور بارز في مختلف اوجه النشاط ولا سيما في المجالات التي تتفق وطبيعتها . لقد سبق أن رأينا ما كانت عليه هذه القبائل من تقارب وتجاوب مع بنى مرين الذين وجدوا فيهم مساعدين وخداما اعتمدوا عليهم في كثير من المهام الرسمية وغير الرسمية . ان انتشار هذه القبائل في نواحي كثيرة من المغرب كان له اثر ، ولو لم يكن مباشرا ، في تدعيم الحركة الادبية عن طريق نشر اللغة العربية في الميادين التي اكتسحوها حتى اصبحت قبائل بربرية عربية الصبغة والتقاليد عن طريق التأثير والايحاء ، وحتى اصبحت من العسير ، فيما بعد ، في المغرب التمييز بين قبائل عربية وقبائل يوروبية لشدة التشابه وقوة التمازج وانتشار حركة الاندماج ، فكان ذلك ربحا للغة العربية بصفة خاصة وبالتالي للفنون الادبية وغيرها .

واذا كان هذا العامل يكتسي صبغة شبه تلقائية وغير مباشرة ، فان لنا في بنى مرين كذلك عاملا آخر اقوى واجد مدى ، لانه يركز على الارادة القوية والرغبة الشديدة والجهود المستمرة التي امتازوا بها في ميدان الحركة الفكرية بصفة عامة ورعاية الفنون والآداب بصفة خاصة . بذلك تحقق الازدهار ، وبلغ النضج قمته ، وعم البيئة المغربية تيار ثقافي وحضاري كان له ابلغ الاثر في الداخل والخارج ، ذلك التأثير الذي انعكس على صفحات التاريخ وكثير من المصادر التي لا تزال الى اليوم تطلعننا على بعض مظاهره ، لذلك رأينا ضروريا التعرض اليه بشيء من التفصيل والتحليل . ويجدر بنا ان نشير الى أن هذا النشاط الذي بذله بنو مرين لرعاية الثقافة والحركة الادبية بوجه خاص يتجلى في مظاهر ثلاثة :

1) ثقافتهم

2) رعايتهم للفنون بصفة عامة

3) اهتمامهم ببناء دور العلم والاماكن الدينية .

لقد كان بنو مرين في جملتهم ، على جانب كبير من الثقافة العربية ، بل كانوا بعضهم مبرزين في ميادين العلم والادب ، فكانت لهم مشاركة فعالة فيه ، ورغبة اكيدة في التقرب من العلماء والادباء ليستفيدوا منهم وليتبادلوا معهم الافكار والآراء حول شؤون ادبية خاصة ، فكان بلاطهم مدرسة تعج بالاساتذة ورجال العلم والادب يقصدونه من كل حذب وصوب ، تاكدا منهم انهم سيجدون فيه مرتعا وميدانا خصيا ، وبذلك كثر التجاوب وقوى التفاعل واشتد الانسجام بين الجانبين ، وكان الريح العظيم للحركة الفكرية بصفة عامة وللادب بصفة خاصة . ودليلا على ذلك انه قلما نبغت شخصية في الادب او في الفكر الا ووجدوا اسمها ضمن مشاهير العلماء والادباء الذين كانوا يعيشون في ظل ملوك بنى مرين وأمرانهم . ان الواقع التاريخي والحضاري يشهد بذلك لكل من الطرفين ، يشهد بالتلاقى وبالتآزر وتضافر الجهود في هذا الميدان ، فلم يكن هناك حائل او مانع يقف حجر عثرة

في الطريق . لقد وقع الترفع عن كل وطنية ضيقة تحدد آفاق العلم والمعرفة وتقلص ظل الادب وفنونه ، فكان في البلاط المريني المشرقي والمغربي والبربري والانديسي وغيرهم بقطع النظر عن حيثياتهم وميولهم ما داموا يحملون العلم وراية الاسلام ، وينتمون الى ميدان اللغة والادب ، ان الامثلة لكثيرة ومتنوعة ، وما نظن اننا بحاجة اليها الآن ما دمنا سنعرض الى تفاصيل هذه النقطة في مكان آخر بحول الله . يكفي ان نشير هنا الى ملوك بني مرين وبعض أمرائهم الذين تثقفوا ثقافة عصرهم فكانوا رجال فقه ودين قبل كل شيء ، كما كانوا يهتمون بشؤون اللغة والادب ، يناظرون ويجادلون بتكوينهم الديني والفقه ، ثم بما حصلوا عليه من ثقافة لغوية وادبية ، شهد لهم بذلك معاصروهم فسجلوا لهم منه ما سجلوا . الا ان ما بقي منه اليوم في بعض المصادر شيء قليل ، لا يظفر به الباحث الا كابييات متناثرة هنا وهناك ، لا تجمعها روابط ، ولا تؤلف بين عناصرها المتفرقة ابحاث او كتب ، بل ان كثيرا من هذه المصادر تكتفي بالاشارة والكلمة العابرة الى ان هذا الملك كان فقيها وشاعرا وذلك الامير كان كاتباً غير حافلة بما كتب او نظم غير آبهة باعطاء فكرة عن نوع هذا الانتاج . وبذلك كثيرا ما يعمد الباحث الى الاستقراء والاستنتاج نظرا لقلّة او لانعدام المادة التي يبنى عليها احكامه . ومع ذلك فالباحث قد يستفيد من هذا الموضوع من مصادر هامة كرسوضة النسرين (1) والمسند الصحيح (2) ونفع الطبيب (3) وجذوة الاقتباس (4) والذخيرة السننية (5) وغيرها من المصادر التي يمكن ان تلقي بعض الضوء على هذه الناحية . وتحقيقا لهذه الغاية عثرنا على آثار شعرية للسلطان أبي الحسن ولايى عنان ولايى مالك عبد الواحد بن يعقوب ولايى العباس أحمد بن أبي سالم مما يدل على حظهم في الثقافة الادبية وما يؤكد نزعتهم الفنية ومبلغ مشاركتهم في هذه النهضة التي نحن بصدها من ذلك قول أبي الحسن :

ارضى الله في سر وجهه واحمى العرض من دنس ارتياب
واعطى الوفر من مالى اختيارا واضرب بالسيف طلي الرقاب (6)

كما قال ابو عنان :

يا راميا بالنبال من غنميج وباديا كالهلال في سحج
وباسما عن لآله سمعت رفقا بقلبي فان فيسه هوى
وصائلا بالتصال من دمع وطافحا من سلافة الفلج
وناسميا كل عياطير اوج ولا تطل في الملل والجسج

(4) لابن القاضي
(5) مؤلف مجهول إلى الان نشرها محمد ابن
أبي شبيب
(6) ابن الأحمر ، روضة النسرين ، ص. 26

(1) لابي الوليد اسماعيل ابن الأحمر .
(2) لابن مرقوق
(3) للقري .

كما قال ابو مالك بن يعقوب المريني (I)

فرقت في الميدان كل مليك
وجعلت للاسلام حدا مالكا
وجمعت بين جراءة ونسوك
كسى يفيد العدا سلوكا

ومن قول أبي العباس احمد بن أبي سالم بن أبي الحسن المريني (2) :
اما الهوى يا صاحبي فآلقته وعهدته من عهد ايام الصبا
ورايته قوت النفوس وحليها فاتخذته ديناً الى ومذهبها
ولبست دون الناس منه حلة كان الوفاء لها الطراز المذهبها
لكن رأيت له الفراق منغصا لا مرحبا يتفرق لا مرحبا (3)

هذه ابيات اوردناها قصيد اعطاء فكرة عن ثقافة ملوك بني مرين الادبية وعن مشاركتهم في قرض الشعر . الا تدل هذه الآثار على ما كان يتوفر عليه هؤلاء الملوك من ذوق فني وطلاقة لسان ؟ ألم تكن هذه المشاركة الادبية كفيلاً بتشجيع الادب وفنونه . لقد أعطوا المثل بأنفسهم ، وما أكثر ما يكون المثل موحياً ومؤثراً وباعثاً قوياً لا سيما اذا كان صادراً عن سلطة روحية أو زمنية . ناهيك ببني مرين وزعامتهم وشهامتهم وقوتهم المادية والمعنوية .

وسواء كانوا مؤثرين او متأثرين او هما معا ، فالنتيجة التي بين ايدينا هي انهم كانوا على حظ وافر من الثقافة الاسلامية والتكوين الادبي فكانوا بهذه الثقافة وبهذا التكوين خير معين للحركة الادبية وخير ناصر ومشجع للادباء ورجال الفكر كما سيوضح من بعد . يكفيننا منهم انهم احتضنوا هذه الحركة ، كما احاطوا بعنايتهم الخاصة ممثلها .

واذا كانت الحركة الادبية قد استفادت كثيراً من ثقافة بني مرين وما نتج عن تلك الثقافة من آثار ، فانها وجدت كذلك في رعايتهم للفنون عاملاً آخر لا يقل أهمية في هذا الميدان عن باقي العوامل الاخرى التي كانت وراء هذه الحركة . لقد قيل ان عصر بني مرين عصر ازدهار الفنون وعصر حركة عمرانية قوية في البيئة المغربية . ونحن اذا نظرنا الى ماثر هؤلاء الملوك في هذا الميدان ، اتضح لنا مدى صحة هذا القول ومدى انطباقه على الواقع الذي لا يزال يشهد ببعض ما خلفوه من آثار مادية ، تشهد لهم بالروعة والجلال ، والفخامة ودقة الاسلوب ، وحسن الابداع فيما شيدوه من قصور ومساجد ، ومدارس وفنادق ومرستانات اتسعت رقعتها وامتدت الى نواحي كثيرة في المغرب . يتجلى ذلك الابداع وتلك الروعة في الزخرف

(1) الاخيرة السنية ص. 96 .

(2) ابو الوليد اسماعيل ابن الاحمر دقة التبرين (مطبوعات القصر الملكي بالرباط 1962)
صفحة 35 .

والنقش والنحت والتزليج الذى حفلت به هذه المؤسسات التى اصبحت آية فى الروعة لدقة ما احتوت عليه من اشكال هندسية ونباتية ، ومن تعاريج فنية بلغت منتهى الاتقان والدقة ، مما يدل على أن يدا ماهرة فنانة ، خلاقة بذلت اقصى الجهود فى العناية والصبر والاستمرار فى العمل الطويل لتحقيق ذلك التراث الفنى الذى بقى بعضه ماثلا الى العين حتى اليوم .

وكان من نتائج تلك الحركة الفنية ان تآثر بها المقاربة حتى اصبحوا يتنافسون ويتسابقون ، لا سيما فى فاس ، فى تشييد القصور وبناء الدور على النمط المتفشى وحسب الاساليب الفنية المعمارية السائدة فى عصر بنى مرين . ولقد شهد بذلك معاصروهم ومن تتبع تطور اساليب البناء فى عهدهم منهم ابن خلدون (I) الذى لاحظ فى عصره «ان الدار بفاس اصبحت تساوى الف دينار ذهبية نظرا لما حوته هذه الدار من نقوش وزخرف وخلق وابداع » ، وفى ذلك ما يدل على مدى نمو الذوق الفنى بين هذه العناصر من السكان وما يؤكد هذه النزعة الفنية التى اصبحت تطبع بعض ظواهر الحياة الاجتماعية المغربية . واذا كان الذوق الفنى نما الى هذه الدرجة وتجلت آثاره فى هذه الظواهر ، فان الادب ، وهو من الفنون ، لا يمكنه الا ان يستفيد من هذه الحركة وينتفع منها ، نظرا لوحدة الاسس وقوة الارتباط وشدة العلاقات بين العناصر التى يعتمد عليها كل فن .

ومن مظاهر هذه الحركة الفنية ايضا ما شاع فى مدينة فاس من عناية بنسخ الكتب وتجليدها وتوريقها واخراجها فى حلة قشبية تسر الناظر وتأخذ بلب القارىء لما هى عليه من جودة واتقان وصناعة وابداع فنى . ويحدثنا التاريخ عن هذه الظاهرة وتطلعنا بعض الوثائق على مدى انتشارها فى الحضرة الفاسية وغيرها من المدن المشهورة ، وما كان لها من أثر فى الاوساط العلمية والادبية سواء فى المغرب أو خارجه . ان الخطاطة اصبحت فى هذا العصر صناعة فنية مستقلة ، يتعاطاها افراد عرفوا بخطهم الجميل ، وذوقهم الفنى الاصيل ، وعنايتهم الخاصة باستنساخ الكتب وتفننهم فى تجويد خطها وتذهيب عناوينها وتلوين بعض حروفها وتجميل اشكالها حتى تخرج آية فى الروعة والابداع والجمال . ان «الخط الجميل» اصبح من الصفات الممتازة التى كان المرء يجد فى كسبها والتمتع بمزاياها والعمل على تعميمها بين افراد الاسرة الواحدة . لذلك كنت تجد فى فاس وفى غيرها من المدن المغربية او الاندلسية ، فى زمن بنى مرين ، اسرا عريقة انفردت بهذه الصناعة الفنية واكتسبت بها شهرة عملت على تخليد ذكرها عبر الاجيال والعصور .

وقد احتفظت لنا بعض المصادر التاريخية(2) بأسماء نذكر منها محمد بن

(1) انظر المقدمة ، ص 408 - 409 (مصر المكتبة التجارية بدون تاريخ) .

(2) انظر فى مجلة المغرب ، بحثا لمحمد فاغل بن عاشور ، فاس من خلال مخطوطاتها ص 7 (مجلة المغرب (الدار البيضاء 1964)

عبد العزيز الحلو وأسرته التي بقيت هذه الصنعة منتشرة بين أفرادها ، كما يؤكد الاستاذ فاضل ابن عاشور ، الى ما بعد القرن العاشر والحادي عشر هجري . ولماذا نذهب بعيدا في البحث عن اسماء الخطاطين المشهورين والسلطان ابو الحسن اعطى المثال بنفسه فكتب بخط يده ثلاثة مصاحف بعثها الى المساجد المقدسة . ويذكر لنا المقرئ (I) ان ابا الحسن المريني « كان حسن الكتابة ، ذا بلاغة وشهامة وشجاعة ، كتب بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على المساجد الثلاثة » . وهكذا يتضح لنا من هذا النص ان « حسن الكتابة » اصبح كما راينا من الالقاب الشهيرة التي يعرف بها الفرد في زمن بنى مرين ويفتخر بجلها . ولعل القارئ يذكر ان ابن الخطيب عندما يتعرض لترجمة بعض الشخصيات في عصره سواء بالمغرب أو بالاندلس ، كان لا يفوته ، اذا اقتضى الحال ذلك ، ان يذكر من بين صفات مترجميه انه كان « ذا خط حسن » فالخط الحسن كان اذن شيئا اساسيا في التعريف بمشاهير الادباء والعلماء .

وهكذا يتضح لنا ما كان للفنون من اثر في المجتمع المغربي كما يتأكد لنا ان بنى مرين كانوا في مقدمة هذه الحركة اذ اعطوا المثال بانفسهم كي تنمو هذه الحركة وتستمر في المستقبل .

ان الحاسة الفنية ، اذا تربت ونمت في فرد من افراد المجتمع ، رقت طبعه ولينت سلوكه ، وهذبت ذوقه وجعلته يتذوق كل انتاج فني ، وكل عمل فيه صنع دقيق واتقان وجودة وابداع ، مما يخلق في نفسه دافعا او محركا يجعله بالتالي ينساق نحو هذا الانتاج ويبحث عنه اذا لم يجده . وتلك نتيجة حتمية بالنسبة للفرد وللمجتمع تفرضها عوامل نفسية واجتماعية معينة . ان حقائق علم الاجتماع وعلم النفس والتجارب على الخصوص تؤكد ما لذلك من اثر وضغط يسرى مفعوله بصفة شعورية ولا شعورية في الطبقات المكونة لبيئة ما . وتلك التجارب تقسها بينت بكل وضوح ما اتسمت به البيئات العربية وغير العربية في مختلف العصور من عناية بالفنون الادبية لان فنونا اخرى تطورت فيها ورفى مستواها . لقد ارادوا التمييز والزخرف في الالفاظ ، وتجميل الاسلوب ، كما احبوا الزخرف والتزيين « والتوشية » في الجدران والقصور والوانى والنياب وغير ذلك ، فتأثر الفن الادبي بالفن المعماري والحضاري على العموم . يكفينا مثلا ان نتذكر البيئة العربية في القرن الرابع والخامس والبيئة الاندلسية في عصرها الذهبي . ان فيها لشواهد ناطقة وظواهر مختلفة قللنا على مدى الترابط والتكامل بين الفنون على اختلاف اشكالها جامدة كانت ام ناطقة .

ويحق للقارئ ونحن نتحدث عن ازدهار هذه الحركة الفنية بالمغرب على عهد بنى مرين ان يتساءل عن السر في هذا التطور الذى طرأ على بنى مرين ؟ يحق له ان يتساءل عن : «كيف تحول بنو مرين من قوم رحل عرفوا بحياتهم البدوية الخالصة وبتنقلاتهم عبر الصحراء ويعيشهم تحت الخيمة كسائر القبائل البدوية العربية ، الى رجال حضارة ورقى ، انه لتطور خطير يبعث على التفاؤل والدهشة فى نفس الوقت . لان الامر يتعلق بتطرف واضح . لقد عرفنا بنى مرين على ابواب الصحراء المغربية وعرفنا موطنهم بالمغرب الاوسط ، وعرفنا كيف كانوا يعيشون بأساليبهم البدوية التى لم تكن تعرف للاستقرار معنى ولا للحضارة سبيلا . عرفنا تقاليدهم واخلقهم البدوية يوم اقبلوا على المغرب مستولين على حكمه ، قابضين على شؤون شعبه الزمنية والروحية . ان فى ذلك لمما يدل على عبقرية كامنة وشدة قابلية للتكيف ، وسرعة اندماج ، واقبال شديد على معطيات البيئة المغربية المادية والاجتماعية قصد اخضاعها وتطويرها .

ان سرعة التكيف مع بيئة ما حسب حقائق علم النفس وعلم الاجتماع ايضا ترجع الى عوامل شتى . منها الذكاء ، ومنها عدم التوفر على ماض طويل ، حافل بتقاليد وبعادات اصيلة قد تصطبغ بالمعطيات الجديدة . ومنها الشعور بمركب النقص ويعقد نفسية تحمل الفرد على بذل اقصى ما يمكن من الجهود فى مواطن ضعفه كى يقضى على أسباب ذلك النقص ويظهر فى موطن الضعف بمظهر القوة والغلبة . وفى التاريخ امثلة على ذلك وفى التجارب اليومية انواع كثيرة من نفس السلوك : افراد ضعفاء نعتهم الناس بالقصور والعجز وبعيوب اخرى ، واشارت لهم الاصابع بانحطاط المستوى ، وضعف العزيمة ، نهضوا وقاوموا هذا التخلف او هذا المركب فبذلوا فى ذلك جهودا عظيمة وسرعان ما تغلبوا بفضل ارادتهم القوية على كثير من منافسيهم وتغلبوا على من كان فى درجة اعلى فى ميدانهم واختصاصهم . هذه بعض العوامل النفسية والاجتماعية التى قد تفسر لنا هذه الظاهرة التى واجهتنا فى سلوك بنى مرين وموقفهم من الحضارة والفن فى البيئة المغربية ، ليس بخاف أنهم قبل ولوجهم ابواب المغرب كانوا محتكين بقبائل المصامدة ، تلك القبائل التى حققت امبراطورية المغرب وقام لها الناس وقعدوا فى العالم الاسلامى وفى غيره . وكثيرا ما كانوا يصطدمون بهم نظرا لطبيعتهم الاجنبية وللطابع البدوى المتغلب على سلوكهم ، كما كانوا محتكين بالقبائل العربية البدوية وبالعناصر الاندلسية وبينى أمية الذين وجدوا فيهم عونا ونصرا لسياساتهم ، فهم من هذه الناحية كانوا على علم بماضى المغرب وبالاحداث التى اثرت فى سياسته وتطوره . فمن الطبيعى ان يتكون فيهم ، من هذه العوامل التى اشرنا اليها سابقا ، ما جعلهم مسلحين ، مجهزين ، مستعدين لتحقيق اهدافهم ومحو ما قد يكونون وصموا به من نقص فى المجالات التى كانت مسرحا لتجاربهم . لذلك رأيناهم ، وما ان استتب لهم الامر ، مقبلين على تحقيق مشاريع عمرانية وفنية فى غير بطء ولا ارتجال . وما ساعدهم على ذلك ايضا وجود

كثير من الفنيين والمهندسين الاندلسيين بجانبهم ، فلقد روت لنا مصادر كثيرة (1) ان بنى مرين كانوا يعتمدون في تشييد قصورهم ودورهم الفاخرة وفي بناء متشآت أخرى عمرانية وعمومية على عناصر اندلسية من ذوى الخبرة الفنية والهندسية .

ومما هو جدير بالذكر ايضا فى هذا المجال ان عصر بنى مرين شهد حركة بناء خاصة تتجلى فى انشاء مدارس للطلبة فى كل ناحية من نواحي المغرب . وهكذا اسست مدرسة او مدرستان (او اكثر) فى كل مدينة من كبريات المدن المغربية آنذاك ، فحظيت بعناية الملوك الخاصة واشرفوا عليها بأنفسهم حتى شيدت فى أروع مثال وابهى حلة . وكثيرا ما تجلى فيها الذوق الفنى والمهارة الصناعية الرقيقة ، والخلق والابداع فى النقش والنحت والزخرف البديع فى اعلى الجدران والابواب ، فكانت بذلك آية فى الفن المعماري الذى ما زال بعضه قائما الى الآن ، يشهد بذلك الاتقان وبذلك الروعة والعظمة . هذه المدارس التى كثر عددها فى هذا العصر ، وتفنن الصناع والمهندسون فى تشييدها . اسست لايواء الطلبة الذين وجدوا فيها أمنا وراحة واستقرارا وهدوءا ساعدهم على أداء رسالتهم العلمية والثقافية ، فقصدها من كل ناحية استكمالا لدراستهم وللاخذ من مشاهير العلماء والادباء . ان تصميم بنائها وموقعها الجغرافى بالنسبة لكل مدينة بنيت فيها جعلها تستجيب لكثير من حاجياتهم المادية والمعنوية والروحية . وليس بخاف ما كان لهؤلاء الطلبة من مكانة سامية فى المجتمع المغربى على عهد بنى مرين ، اذ كانوا كما أكدته كثير من المصادر ، عماد الدولة ، كما كانوا يشكلون طبقة اجتماعية خاصة نالت من الحظوة والجاه لدى الملوك وغيرهم ما جعل بعض المؤرخين يتعرضون اليهم بصفة خاصة نظرا لما كان لهم من تأثير فى حياة الامة . ومهما كانت الاهداف التى اسست من أجلها هذه المدارس ومهما اختلفت الآراء حول الدور الذى قامت به فيها يرجع لسياسة الدولة ونظمها ، فان الذى يهمننا أن نسجله هنا هو أنها كانت دعامة قوية للحركة الادبية والفكرية فى هذا العصر . واذا كان بنو مرين اكثروا منها وتفننوا فى تشييدها حتى أصبحت غاية فى الروعة والجمال ، فانهم بذلك خدموا مباشرة وبصفة ارادية واضحة هذه الحركة التى ارادوا نشرها وتعميمها بنشر هذه المدارس وبثها فى كل ناحية من نواحي المغرب المهمة .

واذا كانت هذه الحركة مدينة لبنى مرين فى كثير من وجوها ومظاهرها ، فان المغرب كهيئة مادية او كإطار جغرافى يمتاز خصوصا بحدوده المتاخمة لبحر الابيض المتوسط وقربها من القارة الاوروبية على العموم ، يشكل بهذه الصفة عاملا آخر كان له أكبر الاثر فى تنشيط الحركة الثقافية والادبية . يكفيك مثلا ما لعبته

(1) عبد العزيز بن عبد الله (الفن المغربى الدار البيضاء 1960) تجد لى هذا المرجع ونصادر اخرى ان من بين المهندسين الاندلسيين الذين كانوا بالمغرب فى خدمة بنى مرين محمد بن على من اشيلية ومحمد بن الحاج من نفس المدينة .

مدينة سبتة من دور رئيسي في حياته الثقافية والاجتماعية والسياسية . لقو سبق ان اشرنا الى ما كانت تمتاز به هذه المدينة من حيوية ونشاط فكري كان له صدهاء في داخل المغرب وخارجه . ان الموقع الجغرافي لهذه المدينة ولغيرها من المدن المتاخمة كطنجة وتطوان ، سهل الاتصال بعلماء وأدباء الاندلس وقرب المسافة للتنقل بين العدوتين وشجع الرحلات السياحية والسياسية والدبلوماسية وغيرها ، فكانت هذه المتاخمة ملتقى شخصيات تمثل ثقافات وحضارات مختلفة استفاد منها المغرب في حضارته بصفة عامة وفي حياته الفكرية والادبية بصفة خاصة .

ويدخل في هذا الاطار ايضا ، وكنتيجة حتمية لتأثيره المباشر وغير المباشر في سياسة المغرب الداخلية والخارجية ، تلك الحركة الهجرية القوية التي شهدتها المغرب في هذا العصر حيث تواردت عليه من مختلف القواعد الاندلسية المتساقطة في يد الاسبان أسر كثيرة اختارت المغرب مقرا لها فاستوطنت بعض مدنه (1) بصفة نهائية. وجدير بالذكر ان نتعرض هنا لشخصية اندلسية كان لها اكبر الاثر في حياة المجتمع المغربي الادبية والثقافية ، انها شخصية ابن الخطيب (2) الغدة ، تلك الشخصية التي - كما هو معلوم - طبقت شهرتها آفاقا بعيدة في المغرب وخارجه . ان وجود مثل هذه الشخصية في المغرب لكفيل باعطاء فكرة عن قيمة هذه الحركة الهجرية التي عاشتها البيئة المغربية في زمن بنى مزين . ان ابن الخطيب بذكائه ، بعبقريته ، بتعلمه الواسع ، بأدابه وفنه ، بنفوذه المعنوي والمادي ، بدهائه السياسي بدبلوماسيته وتجاربه ، خلق في المغرب جوا خاصا كان له اثر حسن على الثقافة وعلى الادب . يكفي ان تمر مثل تلك الشخصية ببيئة ما لتحرك الهمم وتقوى الرغائب وتثير تنافسا وردود فعل مختلفة تستفيد منها الحركة الثقافية على العموم . وكذلك كان الامر بالنسبة لابن الخطيب الذي عاش في البلاط المريني كما عاش في مدن اخرى رددت صدهاء وسجلت نشاطه وتنقلاته وبعض مطارحاته ومناظراته الادبية وتعليقاته على أدباء المغرب وعلمائه وانتقاداته الموجهة ضد بعضهم واحتكاكاته المستمرة برجال الفكر والصلاح . ان المغرب الثقافي كله في هذه الفترة كان يعيش مع ابن الخطيب في تنقلاته ومحاضراته وفي مسراته ومضراته ، وآلامه ونكباته ، الى أن لفظ بنفسه الاخير بفاس فبكاه البعض وتشفى منه البعض الآخر .

ذلك بايجاز ، هو الجو الذي خلقه ابن الخطيب في المغرب وذلك هو الاثر الذي تركه بصفة عامة عن قصد وغير قصد ، في الاوساط المغربية المثقفة ، ولم يكن ابن الخطيب وحده في هذا الميدان بل شاركته كما سنرى شخصيات أخرى اندلسية كان لها وزنها الثقيل سواء في عالم الادب او في عالم الفقه والتشريع

1 انظر الفصل الاول

(2) ولد لسان الدين ابن الخطيب بالاندلس سنة 713 هـ وتوفي بفاس سنة 776 هـ .

الإسلامي أو في ميادين أخرى . وإنما خصصنا ابن الخطيب بالذكر نظرا للنفوذ القوي الذي كان يتمتع به في بلاده وغيرها ونظرا لما تركه في المغرب من أثر وما خلفه من إنتاج فكري هو وليد البيئة المغربية بالدرجة الأولى (I) .

وهكذا يتضح للقارئ مما سبق ، وبصفة اجمالية ، كيف استفادت الحركة الفنية الأدبية في المغرب ، على عهد بني مرين ، من هذه العوامل التي أتينا على ذكرها . منها ، كما رأينا ، ما هو مباشر ومنها ما هو غير مباشر ، منها ما ظهرت آثاره بسرعة ومنها ما لم تظهر آثاره إلا بعد مدة معينة . ورغم تفاوت هذه العوامل في القوة والضعف ورغم اختلاف مظاهرها ، فالطابع الذي يغلب عليها هو أنها كانت في جوهرها من البيئة المغربية ، تستمد أصولها قبل كل شيء من موقعها الجغرافي ومن حدودها الشمالية والشرقية على الخصوص (تلك الحدود التي جلبت إليها الخير كما كانت وبالا عليها) ثم من إبنائها وتفاعلهم معها في ميدان السياسة والاقتصاد وفي ميدان الاجتماع والثقافة .

(I) سنعرض بتفصيل لأثر ابن الخطيب الثقافي في الحياة الأدبية المغربية كما سنتحدث عن شخصيات أخرى اندلعية كان لها دور مباشر في الحركة الفكرية عموما .

مكانة الشعر بالنسبة للنثر

يلاحظ الباحث في هذه الحركة الادبية التي عرفها المغرب في عصر بنى مريـن ملاحظة لا تخلو من مغزى ومن اثر . ذلك ان المجهودات التي بذلت في هذا الميدان كانت تميل الى النثر أكثر من ميلها الى الشعر ، بمعنى أن النثر حظى بعناية فائقة من طرف الادباء واستأثر باكبر جهودهم فكان له المقام السامى والمجال الواسع - على حساب الشعر طبعاً - كما كانت له الغلبة والسيطرة على سائر الانتاج الادبي بصفة عامة . لذلك كان ما كتبه هؤلاء الادباء اكثر مما نظموه . فكانت نسبة الشعر ضئيلة في هذا الانتاج الذى خلفته البيئة المغربية فى هذا العصر ، تلك حقيقة تاريخية وظاهرة اجتماعية خاصة امتازت بها الحركة الفكرية والانتاج الادبي بصفة عامة . وليس من الصعب على الباحث ان يلمس هذه الظاهرة اذا اراد أن يتحقق منها ويتأكد . يمكنه أن يلقى نظرة على انتاج هذا العصر ليعرف كميته ووزنه ويقف على نوعيته ، ويميز بين اقسامه وفنونه . يكفي القارئ ان يتجه الى مكتبة عامة او خاصة ليبحث عن مؤلفات هذا العصر وعن القصائد والابيات التى يرجع عهدها اليه . يتطلب ذلك الاحصاء مجهودا فكريا ووقتا طويلا ، لان عصر بنى مريـن يتجاوز القرنين ولان تراثه الفكرى ضخم ومتشعب الفروع ثم لان اجزاء ما زالت الى اليوم مبعثرة بين المكتبات العامة والخاصة فى المغرب أو خارجه . وتسهيلا لمهمة القارئ وتوفيرا لكثير من العناء والكد الذى يجده فى ذلك ، حاولنا القيام بهذه العملية قصد اعطاء فكرة عن هذا الانتاج فكانت طريقتنا ، نظرا لوفرة المؤلفات وكثرة العلماء والادباء فى هذا العصر ، هي الايجاز والاختصار مع مراعاة نسبة التمثيل الحقيقى للبيئة المغربية ، فاعتمدنا على مشاهير ادباء هذا العصر ، واقتصرنا على نخبة منهم تمثل البيئة المغربية تمثيلا واسعا النطاق ، مراعين فى ذلك الاصالة وصدق الشعور والاحساس بمعطيات المجتمع المغربى ومظاهره المادية والمعنوية والروحية . وفى ترجمتنا لهؤلاء المشاهير الذين حاولنا ما امكننا اطلاع القارئ على أهم جوانب حياتهم النفسية والاجتماعية والثقافية لسم يفتنا ان ذيلنا ، حسب المصادر التى وقفنا عليها الى الآن ، ، بحثنا بشبه قائمة لمؤلفاتهم ، يتجلى فيها نوع انتاجهم وكميته والنزعة الغالبة عليه . من الممكن ان نعتبر هذه الآثار مقياسا نستدل به على حظ النثر من هذا الانتاج وكميته الوافرة ، وسعة افقه وتشعب قروعه واستبداده بفكره وجهود العلماء والادباء . يتضح من ذلك أن ما

قالوه وما كتبوه كان نثرا اكثر منه شعرا ، وان اعظم ما تركوه لنا كثرات فكرى هو عبارة عن مؤلفات ضخمة ومصنفات كثيرة من العسير احصاؤها والالام بجوانبها فى هذا المجال . لننظر اذن الى هؤلاء الاعلام الذين ترجمنا لهم ولنلق نظرة خاطفة على منجزاتهم المختلفة كي نتأكد من مدى صحة هذا الرأى . فالشيخ زروق مثلا اعظم مؤلفاته نثرية رغم كون بعضها يتضمن شعرا ، ورحلة ابن بطوطة كلها نثرا باستثناء بعض الابيات وكذلك رحلتا ابن رشيد والعبدري ، وان كانتا تنطويان على أبيات كثيرة من الشعر . واذا استثنينا قصائد ومنظومات مالك ابن المرحل وارجوزة الملووزى فلا نكاد نجد فى هذا التراث الفكرى الا النثر وما شابه النثر وفنونه فلماذا اذن هذا الاتجاه ؟ لماذا كان حظ النثر موفورا وحظ الشعر ضئيلا ؟

ان هذا السؤال يذكرنا بمعركة قديمة ومعروفة فى تاريخ الادب العربى ، معركة قامت حول النثر والشعر للمفاضلة بينهما وتقييم وضعيه الكتاب والشعراء تبعاً لذلك ، معركة عرفت خصوما وانصارا ، فكانت الغلبة احيانا للشعر واخرى للنثر، تبعاً لمقاييس خاصة ذاتية اكثر منها موضوعية فى اغلب الظروف ، فكانت النتيجة ان جرت هذه المعركة اليها كثيرا من النقاد الذين وجدوا فيها مادة خصبة لترويج بضاعتهم بتقليب تارة الشعر ومرة اخرى النثر مستدلين بحجج ما نظن انفسنا بحاجة الى عرضها هنا لبيان خطئها أو صوابها ، يكفى أن نقول ان عدد النقاد الذين شغلوا بهذه المعركة كان كبيرا وان هذه المعركة لم تحسم رغم طول أمدها وحدة الصراع القائم بين من دخلوا فيها . فالظروف السياسية والاجتماعية والقيم الاخلاقية بل والاغراض الشخصية كثيرا ما تحكمت فيها وحولت مجراها فبقيت قائمة مستمرة ، يكفى ان نشير من ذلك الى ما نشب من خلاف حول هذا الموضوع بين الثعالبي وبين ابى رشيد وبين ابى هلال العسكري وغيرهم من النقاد . اما نحن فقد وضعنا هذا السؤال على انفسنا لا للمفاضلة بين النثر والشعر ولا لمعرفة ايهما احسن مقاما وأعلى درجة ، الكاتب ام الشاعر ؟؟ وانما ذكرنا بهذه المعركة القديمة لما لها من صلة بموضوعنا ونظرا لكون أسبابها قد تتشابه فى بعض الوجوه كما سنرى ، مع العوامل التي تحكم فى الانتاج الادبى فى عصر بنى مرين واثرت فى اتجاهه بتغليب جانب النثر على جانب الشعر . فما هى اذن هذه العوامل ؟ لقد قيل قديما ان الملوك والامراء وذوى المراتب العالية والخير والفضل يترفعون عن الشعر ويتجنبون انتسابهم الى طبقة الشعراء ، رغم ما نظموا من ابيات ورغم ما عرف عن بعضهم من جودة واتقان وكفاءة فى هذه الناحية الادبية. ذلك لان ظروفهم المجتمعية ووضعتهم الروحية أو السياسية تأبى عليهم ان ينغمروا فى هذا الميدان الذى قلما سلم من دخله من نقد لاذع ، ودعاية قبيحة تكون السبب فى كثير من الاحيان فى تحطيم سمعتهم والاطاحة بسلطتهم وبنظامهم : لان الشعر لغة العاطفة والوجدان ووليد الخيال قبل كل شيء، يكثر فيه الزيف والافتعال ان لم نقل النفاق والتزليف والاحتيال كما تدور اغراضه ومعانيه فى بعض الاحيان حول مواضيع قد تزول فيها الحشمة ويخلع الوقار . فالشاعر اذا تحدث كان حديثه وصف حبيبة كلف بها وكلفت به أو وصف خمر

يعاقرها او يتلذذ بشربها او اطلاق الناس على مغامرات جنسية خاصة فيتغنى بذلك متفننا في وصفه ، مبدعا في تشبيهاته ومطنبا في تصوير لذاته وشهواته ، وانفعالاته الحسية وغرائزه الجنسية غير مبال بما قد يكون في ذلك من مساس وخلاعة ومجون وفساد ذوق ومرض العواطف ، مما يتنافى والاخلاق العامة وما تنهى عنه الشريعة الاسلامية التي تأمر المومن بالعرفة وصيانة اعراض الناس وعدم التعرض الى عورتهم ولا الى شئ فيه مساس بالاخلاق ومبادئ الدين الحنيف .

وفي الموضوع نفسه سبق لابن خلدون (I) ان ادلى برأيه قائلا : « ثم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والنبوة والوحى ، وما ادهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فاخرسوا عن ذلك وسكنوا ... » الى ان قال : فصار غرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت للاولين كما ذكرناه ، وانف منه لذلك اهل الهمم والمراتب من المتأخرين وتغيير الحال واصبح تعاطيه (2) هجنة في الرئاسة ومنمة لاهل المناصب الكبيرة .

واذا كان ابن خلدون قصر السبب في الكذب والاستجداء وقصر الكلام على ذوى المراتب العالية ، فنحن نرى ان السبب أقوى واخطر ، واكثر مساسا بالدين والقيم الاجتماعية والاخلاقية واشد ارتباطا لا بدوى المراتب فقط بل بسائر طبقات الشعب .

وما لنا نذهب بعيدا ، وامامنا اديب مغربي من صميم البيئة المغربية ومن مشاهير هذا العصر الذين تشبعوا بروحه وكرعوا من ينابيع تياراته المادية والروحية، ذلك هو العبدري ، صاحب الرحلة المغربية الذي سبق ان عبر عن نفس الاتجاه بقوله عند ما مر بمراكز التفتيش بالاسكندرية (3)

ندرت النصيحة في حقكم وحق الوفاء على النادر
وحبك انطقني بالقريض وما ابتغى صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبي ويبتس البضاعة للتاجر

هذه أبيات من قصيدة نظمها العبدري ناصحا بها أمير المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وفيها يعبر بكل وضوح عن ميله عن الشعر وترفعه عنه ، وعدم اللجوء اليه الا في حالة اضطرار ، لانها بضاعة التاجر البئيس المفلس . وكفانا حجة هذا الرأي الذي صدر عفويا عن شخصية مغربية كان لها من الوزن الادبي والثقافي في عهد بنى مرين ما جعلها تحتل مكانة مرموقة في الشعر وفي النشر .

1، المقدمة (مصر ، المكتبة التجارية بدون تاريخ) ص 581 .

(2) الشعر

(3) الرحلة المغربية للمؤلف (تحقيق ابن جدو مطبوعات كلية الجزائر بدون تاريخ) صفحة 98 .

هل فى هذا ما يبرر ، فى البيئة المغربية ، قلة الانتاج فى الشعر ويعلى انصراف الادياء الى غير الشعر من الفنون الاخرى ؟ ذلك امر محتمل ، لان المجتمع المغربى ، كما راينا فى الفصل الاول ، مجتمع تقليدى متشبث الى اقصى حد بتعاليم الاسلام ، عامل على احترام هذه التعاليم وتطبيقها ، حارص كل الحرص على نشرها وتعميمها والسير على هداها فى سائر مرافق الحياة ، لقد راينا كيف كان سلوك بنى مريّن مع موظفيهم وجنودهم ورعاياهم بصفة عامة ، لا تاخذهم فى الله لومة لائم ، ولا يتراخون فى معالجة كل من صدرت عنه أقوال أو أفعال تخل بهذه الروح الاسلامية المتغلغلة فى النفوس . ان الصرامة الشديدة فى العقاب كانت تنتظر العابثين بأمور الدين كما كانت المكافأة من نصيب المستقيمين وذوى السلوك الحسن كما راينا انهم ، لنفس الغاية ، عينوا صاحب الصلاة وأمرؤا جندهم بالتوقف فى السير عند سماع آذان الصلاة الى ان يؤدوا واجبه الدينى . ولم يكن الشعب باقل حرصا منهم فى هذه الناحية على اداء واجبه بل كان كثير التجاوب مع ملوكه شديد الاخلاص لدينه ، حارصا كل الحرص على تطبيق أوامره . واذا كانت هذه هى سمات البيئة المغربية وطابعها العام من الناحية الروحية فليس من شك فى أن الشعر بمعانيه الفاحشة ، واغراضه المتهتكة ولغته الماجنة وخلعته الصارخة ، فليس من شك فى أن شعرا من هذا النوع لا يجد فى مثل هذه البيئة المحافظة تربة صالحة وميدانا خصبا يشجع نموه ويساعد على توسيع آفاقه وتطوير اغراضه . ليس الشعر كله ، كما قيل ، من هذا النوع السافر الذى لا تراعى فيه أخلاق ولا مبادئ الاسلام ، الا انه اعلى بالوجدان واشد اتصالا بالانفعالات والاحاسيس ، وخلصات النفس البشرية وما يعتمل فيها من حب وكلف ، وحزن والم وشجون قد يكون التعبير عنها بكل واقعية وبكل صراحة من قبيل السلوك الذى يعتبر ماسا بالاخلاق لا سيما فى المجتمعات المحافظة كالمغرب فى عصر بنى مريّن .

وليس معنى ما قلنا أن الشعر لم يجد مكانا فى البيئة المغربية ولسنا ندعى أن هذه البيئة لم تنجب شعراء ، او لم تساعد على عرقلت نشاطهم بصفة من الصفات ، ذلك ما هو مخالف للواقع ، لان المغرب فى هذا العصر عرف شعراء مجدين بل فحولا امتازوا ببراعتهم ومواهبهم الفطرية وارادتهم القوية ، لقد راينا من ملوك بنى مريّن من كان يقرض الشعر كما سنرى شعراء نبغوا فى المجتمع المغربى وشاركوا بجهود وافرة فى هذه النهضة الادبية ، الا ان الشعر ظل مع ذلك ، وبالنسبة للنثر ، خافت الصوت ، قابعا وراء ستار حال دون انطلاقه وتحليقه فى أجواء بعيدة .

واذا ما استمررنا فى البحث عن أسباب هذا الانكماش وجدنا عوامل أخرى تمتد جذورها الى البيئة المغربية نفسها وتنبعث من واقعها النفسى والاجتماعى ؛ ان الظروف السياسية التى كان المغرب يعيشها فى هذا العصر ظروف خاصة ، جعلت بنى مريّن فى موقف صارم ، لا تهاون فيه ولا تهاود ؛ كان الشعب ينتظر على أيديهم انفراجا وحلا للآزمة التى يتخبط فيها . ليس بخاف ما أصاب هذا الشعب من محن

على ايدي الموحدين الذين حاولوا ، ما أمكنهم وبشتى الوسائل ، القضاء على الفقه المالكي ، مذهب الامة الذي بقى متغلغلا في النفوس رغم الاضطهادات التي منى بها الفقهاء والتعسفات الشديدة التي لقيها الطلبة وغيرهم ، والمحن العسيرة التي أصابت من كان يناوئ دعوة بنى عبد المومن ، الى أن جاء بنو مرين ، فوقع الانقراج ، وكان عليهم أن يسايروا التيار الشعبي ، محافظة على سلطتهم وتثبيتا لدعائم دولتهم ، فكانت المعركة قائمة ، والاهداف واضحة ؛ فاستأنف الفقهاء نشاطهم ، وانصرف الطلبة الى مناهج دراستهم المقررة مقبلين عليها بكل شوق وارادة ، سائرين في الطريق التي خطها لهم رؤساؤهم وأساتذتهم والتي تحقق مطامح شعبهم ، فكثرت الدراسة والتصنيف والتأليف في الفقه وفروعه ، كما ظهرت عدة مؤلفات في التحقيق والتعليق والرواية ، فكان الانتاج في هذه الناحية ضخما دقيقا ومتشعب الفروع والاصول ، مما أدى الى حركة فكرية في هذا الميدان ميزت المغرب في هذا العصر عن العصور الاخرى وطبعت نشاطه الثقافي بطابع خاص ، فكان في ذلك اطفاء لعطش وتحقيق لرغبات مكيئة أصيلة طالما عبر عنها الشعب في شتى المناسبات ودافع عنها دفاعا مستميتا ، فالطالب الظافر في نظر الشعب هو الذي نال من هذه الثقافة الفقهية حظا وافرا واستطاع أن يفيد بها أبناء وطنه في معاملتهم الخاصة ، في زواجهم وفي ارثهم وفي بيوعاتهم . لقد كان كل أديب فقيها قبل كل شيء ، اذ كانت مادة الفقه أساسا لثقافته ووسيلة أولى لنجاحه ، فالفقيه المحدث هو مصباح تستضيء به أسرته ومفخرة يعتز بها حيه وأهله ، واذا كانت هذه هي منزلة الفقيه في مجتمعه ، فلقد سبق أن رأينا في ترجمة ابن المرحل والعبدي وزروق وابن رشيد وغيرهم ، ما يؤكد هذا الاتجاه الثقافي ، ويجسم هذه الرغائب الشعبية اذ كان كل منهم ، كما رأينا فقيها قبل أن يكون أديبا ولقويا . يكفي أن نتذكر أن الشاعر الملزوزي كان قد استفتى من طرف السلطان أبي يعقوب في مسألة فقهية عندما أراد أن يبذل الموازين . فكان الملزوزي الشاعر المعروف على اتم استعداد لافادة ملكه حتى اذا ما اتخذ الاجراء ونفذ كان مطابقا لاحكام الشرع الاسلامي ومستجيبا لرغبات الشعب الذي كان لا يتساهل في أمور دينه ولا يتعامل في شؤون حياته الا على أساسه ، رافضا ، في عمومه ، كل بدعة محرفة وكل تشريع لا يستمد أحكامه من فقه مالك ومن الكتب المصنفة في فروعه .

لذلك فلا غرابة أن تنصرف الهمم الى الكتابة وتدوين الحقائق العلمية والتعبير عن الافكار والنظريات بلغة مناسبة تخاطب العقل قبل أن تخاطب الوجدان والقلب أي بالنثر قبل الشعر . ألم يكن في هذا النشاط أو كما يسمى عند علماء الاجتماع بالضغط الاجتماعي ما يقوى نفوذ النثر ويزكي دعائمه ويشجع طرقه ويوسع آفاقه ؟ ان البيئة المحافلة بهذا النشاط جندت نفسها من بداية معركتها لاحراز نصر ، بل لتحقيق رغبة ملحة ظلت تحركها رغم العواصف والاضطهادات ، فكان عليها أن تننصر على هذا الضعف الذي ركبها وتتخلص من هذه العقدة النفسية التي كبحت جماحها . ان الكتب من عوامل الانفجار والانطلاق والابداع كما يؤكد علم النفس وكما تؤكد التجارب

قبل كل شيء . فالمسألة مسألة جد ورزانة قبل ان تكون متعة وتسليية وترفيهها . ذلك ، فى نظرنا ، ما شغل الافكار ، وصرف الهمم عن الشعر واستأثر بمجهودات الفقهاء والادباء واستبد بعنايتهم وبقرائحهم ومواهبهم ، فلم يظفر الشعر بما ظفر به النثر ، رغم بروز شعراء ابدعوا وأجادوا وتقننوا فانتجوا روائع كانت — ولا يزال منها شيء — مفخرة للمغرب ومساهمة فى الادب العربى بأجمعه . انها البيئة المغربية ، بظروفها الاجتماعية والسياسية ، وبمقوماتها الاخلاقية ، ومثلها الروحية ، ومناهجها الثقافية التى انبعثت منها عوامل ، تضافرت وتكاملت فخلقت تيارا مجتمعيا خالصا له سيطرته وتأثيره المادى والروحى على القيم والمثل والمعتقدات والاتجاه والتصرفات والشعر ، ككل ظاهرة اجتماعية خاضعة فى نشأته وتطوره لهذا التيار العام وهذا الاتجاه السائد .

التزعة الروحية

فى الشعر المغربى

لقد اطلعنا على البيئة المغربية غير ما مرة ووقفنا على كثير من جوانب حياتها المادية والروحية واتضح لنا من كل ذلك ما كانت عليه هذه البيئة من روحانية وصدق عقيدة ، وتمسك قوى بروح الاسلام وبتعاليمه . لقد طفت كما رأينا هذه الروح على النفوس والافكار والعواطف . فكيفت سلوك الافراد ، وحددت اتجاهاتهم وتصرفاتهم ، ومواقفهم من الحياة ، من الطبيعة ، مما وراء الطبيعة من المادة ومن الروح . فكانوا فى حياتهم وفى مختلف مجالات نشاطهم مومنين أشد الايمان بالله ، بوجدانيته ، بملائكته بكتبه وبرسله ، آخذين من الحياة الدنيا زادا لآخرتهم حيث الثواب والخلود فى الجنة لمن أخلص لربه وفعل ما أمره به . بل كثيرا ما كان بعضهم يغالون فى هذا الاتجاه ، ويتطرفون فى أفكارهم وعقائدهم خوفا من الوقوع فى الشك وتجنباً للمعاصى التى يعاقب عليها الله تعالى ، فاشتدت الرغبة عن هذه الحياة الدنيا وما فيها من قوى ، وحيوية ونشاط سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية . فوقع شبه انسحاب وخلت الميادين التجارية والفلاحية والصناعية وغيرها من كثير من الجهود البشرية والفعالية الانسانية التى كثيرا ما تحفل بها مجتمعات أخرى لا تسير فى نفس الاتجاه ، وذلك ما ساعد على الفقر والاستسلام والرضا بالواقع وعدم المبالاة بالمستقبل فى الحياة .

ولقد ادى هذا التطرف فى العقيدة وفى السلوك الى نوع شاذ من الزهد والتصوف، فأقبل بعضهم يعيش لآخرته ليله كنهاره ، لا يبذل أى مجهود لتحسين أحواله ، ولا يرى فى هذه الحياة الا الظلام الحالك ، الا عدوا يجب محاربته ، وذلك بالفرار والانسحاب والانزواء وبالتقوى والعبادة فى كل وقت وحين ، وترك جميع ما له صلة بالبيئة المادية والمعطيات الاجتماعية ، خوفا من الوقوع فى شبكتها وحبائلها ، فكان العدم أولى بهؤلاء والموت أحلى لهم لانه كان أمنية غالية ، والوسيلة الوحيدة لتحقيق الفناء والالتحاق بالرب الاعلى ، ذلك ما لم يأمر به الاسلام الذى ينص على اقامة التوازن بين المادة والروح بدون غلو ولا تطرف كما قال النبى (ص) «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وآخرتك كأنك تموت غداً» ، ان الحياة الدنيا يبذل فيها الانسان نشاطه ، وحيويته ، ويستغل مواهبه لآخرته لاسعاد غيره من بنى جنسه ، تحقيقاً للسلام العام ، وتخفيفاً من آلام الغير ، وتنسيباً لحضارة انسانية شاملة . ومع ذلك فقد وقع الغلو والتطرف وانصرف الناس عن المادة انصرافا يكاد يكون كلياً . وحبذا لو وقف الامر عند هذا الحد ، ولم يتجاوز الى التدجيل والشعوذة وسوء الفهم وكثرة الارتباك والشك والتكهن بأمور لا يسلمها العقل ولا يقبلها كل ذى حكم سليم .

فأصبحت التأويلات الخاطئة والمعتقدات الواهية والتنبؤات الخارقة للعادة تسيطر على الفكر وتتحكم فى السلوك ، وكادت الامور تهوى الى الدرك الاسفل لولا قيام نخبة من ذوى الثقافة المتينة والسلوك الحسن ، الذين استطاعوا بشجاعتهم وحكمتهم وقوة نفوذهم المعنوى والروحى ، أن يتدخلوا تدخلا عمليا لا يكتفى بالنصيحة والارشاد ، لضبط الامور ورد المياه الى مجاريها ، بتحديد موقف الشريعة . وتبيين أغراضها ، وأهدافها من الحياة الدنيا والآخرة ، وتمييز ما بين المادة والروح من فروق وصلة كى لا يشتبه الامر على الاعوام ولا على ذوى الثقافة البسيطة ، نذكر من هؤلاء المصلحين الشيخ احمد زروق الذى نصب نفسه لاصلاح الوضع ولمقاومة هذا الضلال وهذا التدجيل مقاومة لقى منها ما لقى من عنت ، وتعسف واضطهاد ، ان دوره كان كبيرا وموقفه صريحا ، ثانيا كما رأينا عندما ترجمنا له فى الفصل الثانى من هذا البحث أن الشيخ احمد زروق كما رأينا نبع من هذه البيئة ووسط هذا التيار الجارف . فوقف منه موقف الفاعل العامل لا موقف المتفرج ، أو العالم النظرى الواعظ بذكره . أو بكتبه . وما مؤلفاته الضخمة الكثيرة فى التصوف ، وأحكامه الا رد فعل ضد هذه الموجة العارمة ، وهذا الالتباس وسوء الفهم اللذين وقعا فى المادة والروح والعلاقة بينهما بالنسبة للمسلم .

وكيف لا يقوى هذا الاتجاه الروحى ولا يطغى وملوك بنى مرين أنفسهم شاركوا فيه وشجعوا شعراءهم وكادوا يحصرون موضوع التبارى والتنافس فيه . ولا يفوتنا كدليل على ذلك أن نذكر هنا ما أورده الاستاذ محمد ابن تاووت فى أبحاثه المغربية الاندلسية القيمة مترجما لرحلة قام بها الى المغرب فى أوائل القرن السابع

عشر انجليزى (I) يدعى وليم لنكو ويهمننا من ذلك ما نصه : «...ولكن أيام ملوك المربنيين كان الملك فى ذلك اليوم (2) يحشد جميع الاهالى فى قصره ويقيم حفلة العيد فى محضره ، فيحتفل جميع الشعراء المحسنين ويجعل كل واحد منهم ينشد القصائد فى مدح النبى محمد قائما على دكة عالية ثم يمنح من اعتقد أنه يفوق الآخرين منحتة الملكية التى تكون 100 دينار ذهبى سلطانى وفرسا وجارية وكساء طويلا مما يكون يرتديه هو فى تلك الساعة ، كما أنه يأمر بخمسين دينارا سلطانيا الى كل واحد من الشعراء الباقين وعلى هذا فكل واحد من هؤلاء الشعراء ينال جائزة على ما سطر قلمه ، وحقيقة انها لفتة قيمة لو أن ملوكنا الاوروبيين عملوا بها لاحسنوا .

هذه شهادة أدلى بها أجنبى زار المغرب ووصف أحواله ، وشاهد محافله الرسمية وغير الرسمية . وهكذا يدل هذا النص الصريح على مدى اهتمام ملوك بنى مرين بالشعر الذى ينزع نزعة روحية ! ان عطايهم ومكافأهم لم تكن تمنح فى هذه المناسبة الا لمن تفوق وأبدع وأجاد وتفنن فى مدح النبى وابراز خصاله وخيراته وفضله على الناس فى الدنيا والآخرة ، خلافا لما كانت عليه العادة فى البيئات العربية الاخرى حيث كانت الاموال والهدايا تغدق عادة على من برع وأجاد فى وصف الخليفة أو الملك أو الامير . واذا كان صاحب هذه الرحلة التى اقتبسنا منها هذا النص قد تحدث فى مكان آخر عن وجود شعراء خلعوا عنهم صفات العفة والحشمة فى شعرهم وانساقوا وراء عواطفهم الجنسية ، فان تلك الظاهرة برزت فى أوائل القرن السابع عشر حيث استقر فى المغرب عدد من المورسكيين الذين نعرف عن عاداتهم وأخلاقهم الشيء الكثير .

فى هذا الجو من الروحانية المتغلغلة فى النفوس ، ووسط هذه التيارات الجارفة الناشئة عن الزهد والتقوى والسخط على الحياة وعلى المادة فى كثير من الاحيان ، نشأ عدد كبير من علماء هذا العصر ونبغائه فى الادب وغيره من العلوم والفنون . أما كان طبيعيا بل حتميا أن يتأثروا به ، أما كان ضروريا أن يقف بعضهم منه موقفا مؤيدا أو معارضا حسب الظروف والملابسات كما فعل الشيخ زروق وغيره من المشاهير ؟ ان ذلك فى نظر علماء النفس وعلماء الاجتماع من الامور الحتمية التى لا

(1) ارد ابن تاويت فى بحثه الذى اشرنا اليه اعلاه (مجلة تطوان) العدد 9 سنة 1964 منشورات الجامعة المغربية صفحة 142 ، ان صاحب الرحلة انجليزى ولد فى لترك باسكولندا وقد قام برحلته هدهما بين سنة 1614 وسنة 1616 وقد اخذ عليه الاستاذ عدة الاطلا منها : مبالفته فى ذكر عدد المساجد ، مبالفته فى وصف المجتمع الفاسى باوصاف مدمومة منها ان النبيل كان فى كل قرية من قرى المغرب ، الشيء الذى يتنافى والواقع المغربى وانظمتة الاجتماعية وطقوسه الدينية .

(2) اى عيد المولد النبوى .

يفلت منها كل فرد يعيش في بيئة ويتفاعل معها ، مع تفاوت بين الافراد راجع الى التكوين الفيزيولوجي والاستعدادات الفطرية والى عوامل أخرى .

أما نحن ، فترى لا حسب هذه الحقائق وحدها بل حسب التجربة والدراسة ، أن أدباءنا في هذا العصر تأثروا الى حد بعيد بهذا الجو الذي كانوا يعيشون فيه ، كما عاش فيه أجدادهم وأسلافهم . فبحكم الوراثة وبحكم التكيف البيئي حصل ما حصل وانتقل اليهم من سمات مجتمعاتهم الشيء الكثير ، فكان ابن المرحل في المقدمة ، وهو شاعر المغرب الشهير ، ومعاصر ملوك بني مرين الاولين وشاهد قيام دولتهم وازدهار عهدهم ووقوع كثير من الاحداث في ظلهم .

وهو من صميم البيئة المغربية كما رأينا في ترجمته ، رغم الاختلاف الذي وقع في تحديد مسقط رأسه ، ولعل القارئ لمس بنفسه عندما ترجمنا لمالك ابن المرحل ما خلفه هذا الاديب من آثار ، وما نوع هذه الآثار ، وفي ذلك دليل على مدى تجاوب روح ابن المرحل مع بيئته التي وقفنا على كثير من جوانبها فيما قبل ؛ ان جل ما تركه يعتبر صدى لهذه البيئة ، وأصدق تعبير عما يتردد في نفسه من روحانية صافية ، وعواطف صادقة وأحاسيس فياضة ، وإخلاص عميق لدينه ، لكتاب الله ولسنة رسوله .

فلنستمع اليه وهو يمدح النبي في وسيلته الكبرى(1)

فيا أطيّب أهْدائي وحسن هَدائي
عظيم فكونوا أكرم العتقاء
فلولاه هل كنتم من السعداء
إذا قيل للناس من شفعاء
فجزاك رب الناس خير جزاء

كما خفيت في الشمس سيار الشهب
حلى مدح أرجوبها رحمة الرب
هي النور في الافلاك والنور في القطب
وعزّزتها بالدمع سكبا على سكب
لعل الاهي أن يخفف من ذنب

الى المصطفى أهديت غر ثنائى
أيا عتقاء المصطفى ان حقه
أما كنتم من قبله في شقاوة
أترجو في يوم القيامة غيره
أيا ديك يا خير الورى عمت الورى

براهين تخفى الشمس عند طلوعها
بعثت الى المختار من آل هاشم
بواسم عن زهر المعاني وزهرها
بردت بها قلوبا تقور ضلوعه
بدارا الى تخفيف ذنب حملته

(1) مخطوط الخزانة العامة بالرباط 89 ص 47

بمدحه له استشفعت ثم بمحبتى
بلى ان فى مدح النبى وسيلة
أمالى فى مدحه شفيح وفى حب
وفى حبه أخرى فحسبى هما حسبى

تذكرت ميلاد النبى محمد
تناسى فؤادى كل حب بحبه
فأملته لأبل دموعى أملت
كذلك تحيل الشمس ضوء الاهلة
تسكن قلبا لى وتبرد غلات
تمنيت فى تلك المعالم خطوة

وهكذا يستمر فى مدح النبى عاشقا رؤيته ، متمنيا زيارة قبره معددا أوصافه
وأخلاقه وفضله على البرية ، الى آخر بيت من وسيلته ثم يستأنف فى قصيدة أخرى
حنينه الى قبر الرسول (ص) شاكيا ، باكيا ، متفانيا فى حبه من ذلك :

أمالى الى قبر النبى مبلـغ
أمانة مشتاق حمى الدمع جفنه
سلا ما فلقد أفنى الزمان ذمائى
فما طاف طيف النوم خوف حمائى
وأرضى روض يانع وسمائى
زمان أراى النقص بعد نمائى
وأعطش روضى حين أنصب مائى
وأكرم بعوث فى الكرماء (I)

لم يكتف ابن المرحل بهذا الحنين وبهذا التلوع ، والتحرق ، بل استرسل
فى التنفيس عن نفسه والتعبير عما يجيش فى صدره ، اطفاء لظمئه واشفاء لغليله ،
عله يرتاح وتنفجر آزمته ويبرد قلبه . ولناخذ فكرة كافية عن حالته النفسية واتجاهه
فى الحياة ، يجدر بنا أن نردد هنا أبياتا أخرى فى مثال النعال النبوية لا تقل صدقا
وحسرة وبكاء عن سابقتها .

أحب رسول الله حبا لو أنه
كان فؤادى كما مر ذكره
أهيم اذا هبت نواسم أرضه
وما دعانى والد واعى كثيرة
ومثال لنعل من أحب حويته
أجر على رأسى ووجهى أديمة
صباية مشتاق ولوعة هائم
أصك به خدى واحسب وقعه
ومن لى بوضع النعل من حر وجنتى
تفيض دموعى كلما لاح نوره
فيا دمع عيني أنت دمع ناظرى
ويا حر قلبى أنت تحرّم باطنى
ساجعله فوق الترائب عودة

تقسمه قومي كفتهم قسائمه
فى الورق جفاف أصيبت قوادمه
ومن لفؤادى انتهت نواسمه
الا الشوق ان الشوق هم اكتامه
وهانا فى يومى وليلى لائمه
والشمه ظهورا وطورا ألامه
نعم أنا مشتاق الفؤاد وهائمه
على وجنتى خطوا هناك يلازمه
لما شرعت فوق النجوم وبراجمه
يكابد ذا البرق الذى أنت شائمه
معيمه به فارفق فانك ظالمه
لصوقا به فاسكن لملك راحمه
لقلبي لعل القلب غير جاحمه

وفى الابيات الآتية سنقف على مظهر آخر من مظاهر هذا السلوك الروحي الذى يتجلى لنا بصفة واضحة فى عواطف ابن المرحل ، وفى اتجاهه وموقفه من الحياة الدنيا . لقد أصبح زاهدا فيها ، راغبا عنها ، موليا وجهه الى الآخرة ، لينعم بخلودها وبرؤية المصطفى فيها ، وذلك تحول طبيعى فى السلوك الروحي ومرحلة من مراحل تطوره اذ الزهد والتصوف نتيجتان لحياة روحية تبدأ بالعبادة والتقوى وسائر الواجبات الدينية ، ثم تنتهى بالتفانى والتطرف والاعراض نهائيا عن الدنيا والاقبال كليا على ما له صلة بالآخرة . وابن المرحل يمثل هذا التطور اذا استعرضنا له أبياتا أخرى من قصيدة نظمها فى الزهد : (I)

يدأوى عذار من بياض مشيب	بأى لسان أم بأى طيب
تريك طلوعا مؤذنا بغروب	بياض كما لاحت لنا كواكب سحره
على كاذب حلو اللسان حلوب	بشيرا نذيرا بمدح كالفجر صادق
وليس جوابى منك غير وجيب	بنى ابك لى أن البكا يبعث البكا
غرورا فان نهلك فغير عجيب	بحارا ركبناها بغير سفائن
وسالت مآقيه كمثل غروب	بكى صاحبي حتى اذا مال فى الثرى
على نفسم من انة وجيب	بحقك لا تبرح اطارحك لوعتى
وان لاح يوما فى ثياب حبيب	بنى الدهر أما الدهر فهو عدوكم
ولا خصب فى الوائه لجديد	بوارقه لارى فيها لعاطش
فيا ويحكما من أنفاس وقلوب	بلاكم وأبلاكم تقلب صرفه
رجاء بعيد لا مخاف قريب	بعيد عن التنفيق من بات ساهرا
هلم الينا وهو غير مجيب	بخيل لعمري من دعاه حبيبه

وهكذا يسترسل ابن المرحل فى وصف الدهر ووصف خديعته وتضليله للمومن مذكرا بتفاهة الحياة الدنيا ، بسرعة زوالها وسفاسف معطياتها ، مترجما انعدامه لما تنطوى عليه من دنس واطماع ولما تجره على صاحبها من انخداع وغرور يهوى بهما الى الدرك الاسفل وبئس المصير ، مصير من ضحى بآخرفته لاجل دنياه .

ولقد تعمدا نقل هذه الابيات كلها من مصادرها رغم ما يكون فى ذلك من طول وملل ، اذ أن غايتنا هى اعطاء فكرة كافية للقارئ عن هذا الاتجاه الروحي الذى طبع الشعر المغربى فى هذا العصر وخير ممثل له كما نعلم هو مالك بن المرحل ، ولعل القارئ لمس معنا فى هذه الابيات التى أوردناها صدق الاحساس ، وصفاء النية وأصالة التعبير وشدة الاخلاص والايمان بالقول ، لا رياء ولا تزلف ولا نفاق فى ذلك

(I) العشرية الزهدية .

كما اعتدناه في أغراض أخرى من الشعر اذ ليس هناك ما يبعث على التزييف والافتعال والافتحال . انها التلقائية التي تكشف عن واقع نفسي استطاع النفوذ الى عالم «الانا الاجتماعي» ، كما يقول علماء النفس التحليلي ، لانه يحرر من الضغط والاكراه وعوامل التأثير والايحاء الموقت فوجد في شعر ابن المرحل معبرا أميناً ومترجماً صادقا ؛ انها البيئة كذلك التي يتردد صداها في هذا الشعر المنبعث من الاعماق ، واذا كان ابن المرحل قد نظم في هذا الشعر القصائد الطوال ، واذا كان نظمه هذا يساير مراحل حياته فانه كان ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، ممن يمثل البيئة المغربية في هذا العصر أوسع تمثيل نظرا للتجاوب الكامل الذي تحقق بين الطرفين .

وليس ابن المرحل سوى واحد من هؤلاء الادباء الذين انجبتهم البيئة المغربية في عصر بني مرين والذين مثلوها اصدق تمثيل بالشعر أو بالنثر أو بهما معا . لقد كانوا كما رأينا في تراجهم متشبعين بروح اسلامية متينة وبعقيدة روحية راسخة ، لم يصدر عنهم ما يخل بهذه الروح الثابتة ، لا افحاش في القول ولا انحراف في السلوك ، ولا استهزاء بالقيم الاخلاقية ، ولا عبث بالمثل الاجتماعية كما هو الشأن عند كثير من الشعراء والكتاب الذين عرفتهم مجتمعات أخرى أو المغرب نفسه في زمن آخر . لا حاجة بنا اذن الى الاطالة والتكرار الممل ما دمنا أتينا بنموذج يصح أن يقال عنه انه اصدق نموذج ، يكفي أن نشير الى أن عبد العزيز الملزوزي – صاحب نظم السلوك – لم يفته في أرجوزته أن قدم لها بتوطئة حمد الله فيها وأثنى عليه ومدح نبيه (صلعم) كما مدح رسلا آخرين ، مما يدل على ايمان راسخ وعقيدة ثابتة رغم كون الارجوزة نظمت لغية معينة وهي مدح بني مرين

وكذلك فعل العبدري في رحلته المغربية التي ضمنها كثيرا من الابيات والقصائد ، انه كثيرا ما يتوسل بشعره أو بنثره ويدعو ربه ويصلي على النبي ويطلب منه الشفاعة في كل لحظة وحين للتكفير عن ذنوبه وفي الابيات التالية ما ينم عن هذه الروح التي لمسناها في شعر العبدري (I) :

تغربت عن أهلي اليك ومالي	واعرضت عن قيل عداك وقال
تمائل في دنياي اذ أنت مطلبي	محب له شوق الى وقال
سموت على قصد اليك بهمة	تري عيش كسرى مثل عين دلال
ولاحت لي الدنيا قابضت عمرها	ولو زيد اضعافا كحل عقال
وما عيشها الا كظل غمامة	وما ملكها الا كطيف خيال
اهيم بدنيا ما تساوى قلامه	وأخضع مرتادا النيل نوال
أبى ذلك لي قصد الى الله صاعدا	وعلم سما بي فيه نحو كمال

وكذلك كان الشأن بالنسبة لابن رشيد ولابن بطوطة في رحلتها يكفي القارئ أن يتصفحهما ليقف على هذه الظاهرة التي كثيرا ما تتجلى معالمها وآثارها

(I) الرحلة المغربية نشر كلية الاداب الجزائرية تحقيق ابن جدو بدون تاريخ صفحة ، 21

فى هذا الانتاج بصفة تلقائية (لا لبس فيها ولا غموض) الا أن القمة لم تظهر الا فى زمن الشيخ احمد زروق (846 - 899) حيث عمت موجات روحانية سائر الطبقات والاطراف المثقفة ، وأصبح أفراد المجتمع المغربى يعيشون فى جو من الروحانية النافذة الى الاعماق المتمكنة فى النفوس والمتحكمة فى السلوك ، ويعتبر الشيخ احمد زروق خير ممثل لهذه الفترة وأصدق معبر عنها ، نظرا للتجاوب العميق الذى وجدت فى نفسه ، وبذلك كللت الجهود ووصل التطور فى هذا السلوك مرحلة تكاد تكون نهائية . وفى هذا الميدان ترك لنا الشيخ زروق ، كما أسلفنا ، تراثا فكريا ضخما يعتبر كله صدى عميقا لهذا الجو وتعبيرا أميناً عن هذا الشعور الذى كان يختلج فى النفوس ، يمكننا القول ان جل ما كتبه زروق كان يدور حول الزهد والتصوف وهو دراسة علمية فى جملتها أراد فيها مؤلفها اقامة التوازن بين الفقه والتصوف كى لا يطغى جانب على جانب آخر لما رأى فى النفوس من جموح واندفاع وانسياق وراء معتقدات وأنواع من السلوك لا تخلو من ضعف وشعوذة وتبجيل .

نتائج هذا الاتجاه الروحى بالنسبة لأغراض الشعر المغربى

ليس من الصعب على الباحث ، فى أغراض الشعر المغربى ، أن يقف على الابواب التى طرقها شعراء هذا العصر وعلى مدى قوتها وضعفها . ان التيار الروحى الذى سيطر على البيئة المغربية وتمكن من نفوس أفرادها بجميع طبقاتهم يجعل القارىء ، نظرا لما سبق ، يتنبأ أو يتكهن بنتائج حتمية ناتجة عن السلوك العام الذى تميز به هؤلاء الافراد عن أدباء غيرهم ؛ لقد تعودنا أن نرى فى بيئات أخرى (فى المشرق أو فى المغرب) من الأغراض الادبية الزاهرة ، الخمريات والغزليات والمجونيات وأنواع أخرى لا تقل تهتكاً وخلاعة وفحشاء ينطق فيها أصحابها بكل حرية ، بل بكل وقاحة . يطلقون فيها العنان لخيالهم السابح فى اجواء بعيدة ، ولعاطفتهم الجامحة التى قليلا ما تقيم وزناً للقيم الاجتماعية والاضاع المتعارفة والمعهودة . ان هذا النوع من الشعر الذى تعودنا وجوده فى مجتمعات أخرى يكاد لا يجد مكاناً فى البيئة المغربية فى عهد بنى مرين ، ذلك أن الاحوال الاجتماعية التى كان يعيش فيها المغاربة مهما اختلفت حيثياتهم ومهما كانت طبقاتهم كانت تشكل عوامل رئيسية وظواهر خاصة تقف حجر عثرة فى وجه الانحلال الخلقي وتحول دون الانسياق وراء العواطف الجامحة المريضة ، وتعرقل التعبير بصراحة عن الاحاسيس الفردية الخاصة وعما يختلج فى النفوس من انفعالات حسية أو وجدانية لها مناس كبير بالواقع النفسى للشاعر ، الذى لا يستطيع التنفيس عن نفسه بواسطة الشعر خوفاً من مسخط الرأى العام ومسايرة القيم الاجتماعية والخلقية والمثل العليا ، التى تشكل المعطيات الاجتماعية السائدة أو الطاغية حسب اصطلاح علماء الاجتماع ، ولكن ليس معنى هذا أن شعراء هذا العصر

كانوا دون غيرهم احساسا وتدوقا للفن ومظاهر الجمال فى الطبيعة وفى الانسان ، كلا ؛ لم يكونوا أقل من غيرهم اعجابا بمنظر جميل أو تأثرا بوجه حسناء فاتن يسرى مفعوله فى النفس ويولد فيها عواطف حب وشغف ، وكلف يجعل الشاعر يهيم بمحبوبته ويتوق اليها فى تحرق وتلوع ، يدفعه الى التعبير عن ذلك شعرا أو نثرا أو بكاء أو سلوكا من نوع آخر . نعم قد يختلف الافراد كما نعلم فى درجة الحساسية ، وردود الفعل والتأثر ويتفاوتون فى سرعة التعبير ودقة الفهم والملاحظة وقوة الخيال كما يختلفون بدنيا وسلوكيا ، ذلك من الحقائق النفسية المسلم بها علميا وتجريبيا ، الا أن شعراءنا كان يجمعهم سلوك عام ، طابعه الحشمة والرزانة والعفة والوقار ، نتيجة للعوامل التى وقفنا على أكثرها فى الفصول السابقة نعم قد يكون واقعهم النفسى أو واقع بعضهم يناقض هذا السلوك المجتمعى الذى عرفوا به وتميزوا به عن غيرهم فى بيئتهم ، من الممكن أن يكونوا من ذوى العواطف المريضة والسلوك الجامح الذى لا يقيم للاخلاق وزنا ولا يعرف للمعايير الوضعية قيمة ؛ من الممكن أن يكونوا خلعاء فساقا ، مهتكين ماجنين ، اباحيين شاذين ، ذلك كله ممكن ، الا أن ما سجل عنهم أو سجلوه عن أنفسهم بواسطة شعرهم أو نوع آخر من سلوكهم ، يجعل الباحث ينفى عنهم هذه الاوصاف ويدرجهم تحت لواء مجتمعهم الذى كان رزينا ومحافظا مثلهم . اننا لا نهمل أن الفرد قد يدافع عن أفكار لا يؤمن بها واعتقادات ما أشد بغضه اليها ، ويسلك سلوكا مجتمعيا يخالف تمام المخالفة ما يريد أن يسلكه ، فيظهر بشخصير قوية تنال رضى الناس واعجابهم واستحسانهم لانها تسائر الذوق العام والنماذج الاخلاقية والمثل العليا التى تسود المجتمع . وتلك هى الخديعة التى كثيرا ما يقع فيها مؤرخو الآداب الذين يكتفون بقراءة شعر لاديب ما فيحكمون على أخلاقه أو ميقاته النفسية أو مدى انسجامه مع مجتمعه بواسطة هذا الشعر ؛ ان الشاعر كثيرا ما يكون فى صراع بين الانا النفسى ، الوراثة والوجدانى والانا الاجتماعى المتكيف بالتقاليد والقوانين الوضعية التى تفرض عليه سلوكا ما أبغضه اليه وما أكثر معارضته لميوله ونزعاته وذوقه ، ولكنه يستجيب اليه حبا فى الرضا وطمعا فى الرئاسة أو الجاه أو أغراض أخرى . ان التحليل النفسى لمن العلوم التى تساعد الباحث الادبى فى مهمته ، فى معرفة نفسية الشاعر وما يحركها من عوامل متكاملة أو متناقضة أو متصارعة . ليس من اليسير أن نحكم على شاعر ما بالعقم أو بجمود العواطف أو بالجموح أو بالانقباض أو بالانفعال أو بغير ذلك من خصائص النفس البشرية . ان الشعر كمادة أو انتاج هو عصارة لمنتج ولا يمكن أن يعرف انتاج معرفة واقعية وموضوعية الا اذا عرف المنتج وآلم بجوانبه والظروف والملابسات المحيطة به ، والا فالنتيجة تكون سلبية أو عكسية أو مشوهة أو محرفة . لذلك عمدنا ، عندما عرضنا لترجمة كل من مشاهير هذا العصر الذين أدرجناهم فى فصل سابق ، الى القيام بهذه العملية التحليلية كى نعرف القارئ ، جهد المستطاع ، بالاديب الذى نريد أن نتحدث له عن انتاجه وعن نوع اتجاهاه فى هذا الانتاج ، اجتنابا للسرعة وتحريا للموضوعية والدقة فى البحث الذى نحن بصددده .

بعد هذا نعود فنقرر أن شعراءنا رغم ذلك التحفظ الذي أبديناه في معرض هذا الحديث قالوا شعرا في الشوق وفي الحب وفي الغزل وفي غير ذلك من الأغراض التقليدية المعهودة في كل بلاد من بلدان العالم العربي . ولكي ياخذ القارئ فكرة بنفسه عن هذا الانتاج ويعرف هويته ومقدار رزاقته أو انحطاطه نسوق له أمثلة من انتاج بعض شعراء هذا العصر الذين راعينا في اختيارهم صفتهم التمثيلية للبيئة المغربية .

ففي الغزل والحب يقول ابن المرحل مثلا :

تملكتم عقلي وطرفي ومسمعي	وزروحي واحشائي وكلّي بأجمعي
تيهتموني في بديع جوالكم	فلم أدرى في بحر الهوى أين موضعي
وأوصيتموني لا أبوح بسرکم	فباح بما أخفى تفيض أدمعي
فلما فني صبري وقل تجلدي	وفارقني نومي وحرمت مضجعي
شكيت لقاضي الحب قل احبتي	جفوني وقالوا أنت في الحب مدعي
وعندي شهود في الصباة والاسي	يزكون دعواي اذا كنت أدعي
سهادي وشوقي واكتأبي ولوعتي	ووحدي وسقمي واصفراري وأدمعي(I)

هل في هذه الابيات ما يمس بالاخلاق أو ما يخل بالقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع المغربي ؟ هل فيها من حيث اللفظ أو من حيث المعنى ما يذكرنا بشعر جميل بشينة أو عمر ابن أبي ربيعة أو بغيرهما من شعراء البيئة المشرقية أو المجتمع الاندلسي الذي حفل بكثير من الشعراء الذين تغزلوا فكانوا في غزلهم أقرب الى الخلاعة منهم الى العفاف والحشمة انه شعر عبر فيه صاحبه بكل بساطة وصراحة عن ما بتركه الشوق من أثر ، لاسيما في الجسم الذي يصبح سقيما ، عليلا أصفر اللون ، سريع الانفعال . ان الشاعر وصف لنا جسمه قبل كل شيء وحالته النفسية بدون ما تحليل أو سبزل لاغوارها ، فكان وصفه ماديا سطحيا واقعيا أكثر منه نفسيا وجدانيا . ونحن لا نستغرب من ابن المرحل كونه يقف عند هذا المستوى ولا نريد أن نتعرض هنا للعوامل التي جعلته يقف عند هذا الحد ولا يتجاوزه الى أفكار ومعاني يأتى بها في تحليل عميق ودراسة للحب واثره في الفرد ، وانما الذي يهمنا أن نسجله هنا هو أنه لم ينحط ولم يسفل ولم يتعرض في شعره لظاهرة جسمية أو نفسية تمس بالاخلاق أو بمبادئ التربية الاسلامية التي تشبع بها كما تشبع بها أبناء وطنه . قد يقول قائل : ان ابن المرحل نظم أبياتا أخرى غير هذه وفي موضوع الحب كذلك ، وفي هذه الابيات قد يكون أكثر انطلاقا وحرية وأقل ترزنا ، نحن لا ننكر ان ابن المرحل نظم في نفس الغرض شعرا لا نتجاهل ما فيه من تعبير أعمق وأدق ، ولكننا نستبعد ان يكون قصد به ما يقصده غيره من شعراء المجون والخلاعة . وأحسن وسيلة بل

(I) راجع القصيدة كلها في النبوغ المغربي ج 3 ص 725

وأقوى حجة تساعد على الحكم هي عرض المادة على انظار الحاكم ، فها هو ابن المرحل يتغزل مرة أخرى :

يا عاذل اليك عنى	لا يقرب ساحتى العواذل
ذا نازل كمثل ظبى	يشقى بلحظة المنازل
ما بين جفونه حسام	مخارقه له حمائل
والسيف بيت ثم ينبو	واللحظ يطبق المفاصل
والسهم يصيب ثم يخطى	واللحظ يمر فى المقاتل
مهلا فدمى له حلال	ما أقبل فيه قول قائل
ان أقصدنى فذاك قصدى	أو جدلنى فلا أجادل
والفتح محرك اليه	من طاف مسكن البلايل
والسحر رسول مقلتيه	ما أقرب عهدى بيايل
والليل يهز معطفيه	كالقصر تهزه الشمائل
كأس تلوح فى يديه	كالنجم بأسعد المنازل
يسقيك بريقه مداما	ما أملح ساقيا مواصل
يسبيك برقة الحواسى	عشقا ولطافة الشمائل

يتضح من هذه الابيات التى أوردناها لمالك ابن المرحل فى الحب والغزل أن الشاعر بذل مجهودا أكبر بالنسبة للقصيد الأخرى كى يعبر عن جمال مراثياته تعبيرا أدق وأكثر تحليلا واحتفالا بالجزئيات . ويتعلق الأمر هنا كذلك بأوصاف حسية فى غالب الأحيان ، تتناول الجسم وأعضائه وملامح الوجه ، ولون الخد ، وفتنة الطرف ، كما يشتمل على تشبيهات مستمدة من النبات من الورد والزهر والرائحة التى تفوح منهما . وهى تشبيهات مألوفة ، معروفة وردت فى شعر كثير من الأدباء والكتاب سواء فى المشرق أو فى المغرب بشيء من التفصيل والتدقيق والتحليل العميق والعناية بالجزئيات وخبايا المراثيات والمسبوعات والملبوسات ، فعلى القارىء الذى يريد أن يتحقق من ذلك وأن يتوسع فيه أن يرجع الى إنتاج شعراء وكتاب القرن الرابع والخامس (هـ) وإلى آثار البيئة الأندلسية فى ميدان الأدب (ابن حزم ، ابن العميد ، بديع الزمان ، أبو بكر الخوارزمي ، وغيرهم) .

وعلى كل فلا نرى فى هذا الشعر لا خلاعة ولا مجونا ولا هتكا للأعراض ولا افحاشا فى القول من حيث الشكل أو من حيث المضمون . قد يعارض هذا الرأى قائل : «ان ابن المرحل يتغزل بمذكر وذلك نوع من الافحاش والحب الشاذ» . نعم ان مالك يخاطب فى هذا البيت المذكر ، ولكن ليس معنى هذا أن الأمر يتعلق بغزل شاذ أو بانحراف خلقي ، كل ما هنالك أن الكتاب والشعراء قد ألفوا مخاطبة المؤنث بضمير المذكر ، وكان ضمير المذكر أخف وأسهل وأنسب للجرس الموسيقى ، وأصبحت العادة جارية وأصبح الناس يظنون ذلك نوعا من الشذوذ فى السلوك الأخلاقي مع أن الأمر لا يعدو أن يكون بدعة لفظية أثرت فى المشاركة كما أثرت فى المغاربة

عن طريق الایحاء والتقليد المقصود .

وفى هذا الاتجاه صار شعراء هذا العصر الذين قل منهم من خرج عنه وهوى بأخلاقه وبعواطفه الى درجة العبث والفحشاء . وحتى أمراء وملوك بنى مرين الذين نظموا فى الغزل التزموا الرزانة والعفة كسائر الشعراء الآخرين فلنستمع الى أحد منهم وهو أبو العباس احمد ابن أبى سالم (I) المرينى :

أما الهوى يا صاحبي فألفته	وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها	فتخذته ديناً الى ومذهبها
ولبست دون الناس منه حلة	كان الوفاء لها طرازاً مذهبها
لكن رأيت له الفراق منفصاً	لا مرجحاً يتفرق لا مرجحاً

وللقارىء أن يقارن بين هذا الشعر المغربى وبين ما قاله فى نفس الغرض شاعر أندلسى مشهور ، الوزير ابن الحكيم ، ليدرك الفرق بين الاتجاهين .

يتغزل ابن الحكيم قائلاً (2) :

هل الى رد عشيات الوصال	سبب أم ذاك ضرب من المحال
وليل ما تبقى بعدها	غير أشواق الى تلك الليال
وغزال قد بدالى وجهه	فرايت البدر فى حال الكمال
ما أمال التيه من أعطافه	لم يكن الا على خصل اعتدال

وله أبيات أخرى منها :

ألا واصل واصلة العقار	ودع عنك التخلق بالوقار
وقم واخلع عذارك فى غزال	يحق لمثله خلع العذار
قضيت مائس من فوق شعف	تعمى بالدجى فوق النهار
ولاح بخده ألف ولام	فصار معرفاً بين الدار

لم نجهد أنفسنا فى اختيار هذه الابيات لعقد المقارنة بين شعر مغربى وشعر اندلسى ، وانما (عندما تصفحنا آثار الاندلسيين فى الشعر) وجدنا بصفة تكاد تكون عفوية هذه الابيات التى لا يجب أن تعتبر نموذجاً للغزل الاندلسى ، اذ هناك أشد منها صراحة وواقعية بل فحشاء وخلاعة . ولقد سقناها لاعطاء فكرة موجزة عن مدى الاختلاف بين الاتجاهين المغربى والاندلسى فى هذا النوع من الشعر . ولو لا خوفنا من الخروج عن حدود الموضوع التى التزمنا باتباعها لأتينا هنا بنماذج كثيرة ومتنوعة من الشعر المشرقى أو الاندلسى . وكفى بذلك دليلاً على ما اتسم به الشعر المغربى فى عهد بنى مرين من عفة ورزانة حتى فى الأغراض التى هى أقرب الى الوجدان

(1) راجع ميد الله كنون ، النبوغ المغربى ج 3 ، 738 .

(2) راجع ابن الخطيب ، الاحاطة ج 1 ، 73 .

وميدان الانفعالات والضعف التي يجد فيها الشاعر نفسه ، ولو بحكم التقليد ، مضطرا الى التعبير عما يجيش في صدره من لوعة وهيام وكلف بمحبوبته ؛ لا يستطيع الاحجام عن ذلك الا بجهد جهيد وقهر للنفس وكبت وحرمان قد يخل باتزان شخصيته ويولد فيه عقدا نفسية لها ما لها من الاثر في سلوكه العقلي والوجداني والعمل ، فالفرق اذن واضح ، وهو راجع ، كما رأينا في موضعه ، الى الفرق بين البيئتين ، بيئة محافظة ، شديدة التمسك بتقاليدها الرزينة التي تكاد تشكل نوعا من التزمّت والانقباض ، وبيئة أخرى عرفت بالانبساط والاقبال على الحياة والتمتع بملذاتها ونعيمها بما في ذلك من رقص وغناء وشرب خمر وعقد مجالس للهو واللعب والاستلذاذ بكل الشهوات التي توفرها البيئة المادية والاجتماعية ، لا فرق في ذلك بين الرجال والنساء . وفي ذلك يقول عبد الله عنان : «وقد كانت الامة الاندلسية أمة مرهفة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل وتحب الحياة الناعمة المترفة وتجنح الى المرح والطرب» (1) وفي ذلك يقول ابن الخطيب (2) أيضا وهو واصف لتلك البيئة التي كان يعيش فيها : «وحريهم حريم جميل موصوف بالسحر وتنعم الجسوم واسترسال الشعور وطيب النثر وخفة الحركات ونبل الكلام وحسن المجاورة ، وقد بلغن من التفنن في الزينة في هذا العهد والمظاهرة بالمصبغات والتفريس بالذهبيات والديباجيات والتماجن في أشكال الحلى الى غاية نساء الله أن يفض عنهن فيها ويكفكف الخطب ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة» .

هذا كلام ابن الخطيب وهو معاصر لهذه البيئة وشاهد عيان وفي وصفه لها ما يجعل القارئ يستغنى عن حجج أخرى تثبت مدى الفرق بينها وبين المجتمع المغربي الذي عرفنا عن أخلاقه وعادات أهله ما يؤكد هذا الفرق وما يجسم هذه العوامل المختلفة التي كانت وراء ظهور انتاجين أدبيين اتفقا في الغرض واختلفا في الاسلوب والمنهج .

ولعل القارئ لنس معنا ونحن نستعرض هذه الابيات الشعرية من المغرب ومن الاندلس أن الاوصاف لا تكاد تختلف في جوهرها عن ما عهدناه في البيئات الأخرى حيث اقتصر التشبيه غالبا على المرئيات والمسموعات والملموسات وحيث انتزعت أوجه الشبه من الطبيعة ومظاهرها المختلفة . مثال ذلك (3) «شاذن يضحك عن الاقحوان ويتنفس عن الرياح ، أعلاها كالغصن ميال» ومطلع الشمس من وجهها ، وملقط الورد من خدها ومعرض الغصن من قدها «اختلسا قامة الغصن» ماء الجمال يترقرق في خده» .

هذه أوصاف كثر ايرادها في شعر ونثر كتاب القرن الرابع كما ذكر زكي مبارك ، وهي التي جاءت كما رأينا في كثير من الشعر المغربي والاندلسي في نفس

(1) نهاية الاندلس ، 248 (الطبعة الثانية) .

(2) ابن الخطيب ، الإحاطة ج 1 ص 17

(3) زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع صفحة 95 .

الموضوع ، لكن مع شيء من الاختلاف ، فالتأثر هنا واضح ولا نكلف أنفسنا عناء البحث عن أمثلة أخرى ترمى الى نفس الهدف .

فى المدح :

وفى المدح ايضا نجد الشاعر المغربى يتصف بنفس الصفة ويلتزم نفس الخطه ، وتسيطر على مشاعره وكلامه الروح الدينية التى توجهه توجيها وتوحى اليه بمعانى مدحه وأوصاف ممدوحه . وتتخذ هنا من شعر ابن المرحل نموذجا للاستدلال وللتأكد مما نذهب اليه فى هذا الموضوع . فبمناسبة فتح مراكش وجه شاعرنا الى أبى مالك يوسف قصيدة يهنئه فيها مادحا اياديه البيضاء وفضله على الاسلام والمسلمين ومما جاء فى هذه القصيدة على سبيل المثال :

أضحت له جنة الرضوان قد فتحت	يا خير من ولى الدنيا ومن حكما
الحمد لله هذا ما وعدت به	فاشكر يضاعف لك الحظ الذى قسما
لن يخلف الله وعدا كان واعده	يكابد الغم الا قلب من ظلما
بفتح مراكش عم السرور فما	حبا اياه فأسنى فتحها لها
حبا بها الله مولانا الامير كما	فى الفتح والنصر والتأييد بينهما
فدولة الدين والدنيا قد اختلفت	على يدك وان يكفيها النكما
من سنة الله أن يحيى خليقته	وأن يديم بك الاحسان والنعما
وان يقيم بك الاسلام من أود	لولاك لكان وجود الدين قد عدما
لله منك ملك لا نظير له	أعطاه نورا يحكى الظلم والظلما(I)
ومن يتخير له للدين خالقه	

فى هذه الابيات التى يمدح بها ابن المرحل أميره يجد القارئ ذكر الله فى كل بيت تقريبا ثم ذكر الاسلام . ان النصر الذى حققه أبو يوسف هو فى الواقع نصر للاسلام والمسلمين واحياء لدينهم الذى «لولا» لعدم . ان هذه المعانى التى أتى بها فى مدحه تكاد كلها تدور حول معطاة روحية خالصة فلا اثر فيها تقريبا للمادة ولقوتها ولا للجاء ولا للرئاسة وأبهة الحكم ورفاهيته ونعيم نتائجه المادية . ان الفتح وسيلة فقط لا غاية ، هى اقامة الاسلام للفوز بالثواب فى الآخرة . واذا تركنا ابن المرحل وإقينا نظرة على شعر عبد العزيز الملزوزى فى نفس الغرض ، نجده هو الآخر فى مدحه للسلطان يعقوب لا يكاد يخرج عن نفس الاطار . فلنستمع اليه اذن وهو يخاطب ممدوحه :

أرى كل جبار بسيفك يصغر	وكل ملك عن فعالك يقصر
تنام عيون الناس طرا وأنت فى	صلاح العلا والخلق ما زلت تسهر
بعثت الى يغمور بالصلح معلما	وقنت عساه بالبصيرة ينظر

(I) راجع القصيدة كلها فى اللخيرة السنية ص. 98

فلم يغتبط بالصلح جهلا وغلظة
أردت بأن تهديه للرشد والهدا
فأنك لا تهدي من أحبيت للهدا
ومن قوله أيضا في أرجوزته :

سيرة يعقوب ابن عبد الحق
سيرته أن يقرأ الكتابا
يقوم للكتاب ثلث الليل
حتى اذا ما أصبح لاح وارتفع
وضج بالتسبيح والتقديس
يعقد للكتب الى وقت الضحا

قد حاز فيها قصبات السبق
ويذكر العلوم والآدابا
وما له عن ورده من ميل
قام وصلى للاله وركع
حتى يتم الحزب في التغليس
ثم يصلحها كفعل الصلحا(2)

ان في هذه الابيات ، سواء منها ما يتعلق بالارجوزة أو بغيرها ، ما يكفي
للدلالة على ما كان يدور في خلد صاحبنا من معاني المدح وأوصاف الممدوح ، وسواء
كان صادقا في مدحه أو متكلفا فانما جرى على لسان غيره من أوصاف يتعلق كلها
بالدين وبالعامل من أجل الاسلام والآخرة انتقل اليه عن طريق الإيحاء والتأثير في
هذا الميدان .

ومن يطلع على أرجوزته يجد فيها من بدايتها الى نهايتها هذا الطابع الذي
تميز به الشعر المغربي في هذا العصر سواء في المدح أو في الغزل أو في غيرهما من
أغراض أخرى . وكذلك كان العبدري في رحلته(3) حيث يقول مادحا السلطان
أبا يعقوب :

فمن مبلغ عليام من نظمى
ضعيف القوى أودت بانضاء جسمه
الا لا تطل شكوى فلسست بمشئتك
فذاك الذي أفنى الطفافة بسيفه
طغى الكفر حتى صده بجيوشه
الى الملك السامي صعودا على الورى
الى يوسف سيف الاله الذي أتى

رسالة مستعد شكى ظلمة الظلم
فيافي برت أهوالها مصمت العظم
الى ملك البرين واسكت على رغم
فلم يبق منهم من يشير الى ظلم
كما صد ذو القرنين ياجوج بالردم
وليثهم في الحرب والغيث في السلم
لحسم العدا ان الحسام من الحسم

وهكذا يسترسل العبدري في قصيدته مستوحيا أوصاف ممدوحه ومعاني
مدحه من شخصية اسلامية نموذجية ، غايتها القضاء على الظلم والدفاع عن الاسلام

(1) نظمت هذه القصيدة سنة 669 ، انظر الاخيرة السنية ص 108

(2) نظم السلوك ص، 77-79

(3) انظر الرحلة المغربية للمؤلف نفسه ص 3 ، 4 ، 5 .

ومحو الطغيان مهما كان مصدره . وتلك هي تعاليم الشريعة الإسلامية التي تأمر الخليفة باتباع الحق وانصاف المظلوم اذ «العدل أساس الملك» . فالعبدري هنا خلافا لما جرت عليه العادة عند شعراء آخرين في مجتمعات أخرى معاصرة لم يحفل بأبهة الملك ولم ينحط في مدحه قصد الحصول على فائدة مادية أو مالية ، وانما الدافع هو في قرارة نفسه ، إيمانه القوي بالاسلام ، وشدة غضبه على من خالف أوامر الاسلام . انها العاطفة الصادقة التي تجدها هنا تنطلق للتعبير عن الواقع النفسى الذى كان يعيشه العبدري في ظروف عرف عنها القارىء في غير هذا المكان ما عرف من اضطرابات سياسية وأحداث اجتماعية كأن لها مفعولها القوى وأثرها المباشر في سلوك الافراد والجماعات .

في الهجاء

واذا تخطينا المدح الى الهجاء ، فاننا لن نصطدم بمظاهرة مخالفة او مناقضة لهذه الظاهرة الروحية التي وقفنا على بعض آثارها فيما سبق . قد نعثر على نقد لاذع وهجاء مر ، ولكننا لن نجد ما نهى الاسلام عنه من هتك للحرمان ونهش للاعراض وفجش في القول وتشنيع وتقبيح للصور البشرية ، لن نجد ما عهدناه في بعض البيئات حيث كثر السباب والحقد والظفينة التي تدفع بصاحبها الى المكر والخديعة والتعبير عن ذلك بكل صراحة وبكل واقعية لا تعرف معنى للحشمة والعفة والاخلاق الفضيلة بصفة عامة . ولذلك لم يجد هذا النوع من الشعر ميدانا خصبا ينطلق فيه وينتعش، لان المقومات التي كان يعتمد عليها في مجتمعات اخرى في انتعاشه وازدهاره لم تكن تساعد في نموه ومعرفة طريقه ، بل كانت على العكس تعرقل سيره وتقاومه اذا حاول النهوض . لذلك خلا (او كاد) الادب المغربى من الهجاء في هذا العصر ، او على الاصح لم يخلف الشعراء في هذا الميدان الا انتاجا ضئيلا لا يستطيع الباحث ان يعرف منه الا الشيء القليل ، وأغلب الظن أن السبب في قلته هو ، كما ذهبنا ، تلك القيود التي كان يفرضها المجتمع المغربى على أبنائه من رزاة واستقامة وتمسك بشعائر الاسلام ، اذ لم يكن في المغرب حينذاك صراع بين الاخلاق والادب كما راينا في مجتمعات اخرى . حيث غمت الخلاعة وحيث اطلق الشعراء العنان لعواطفهم فاستباحوا كل رذيلة وكل هنات وتتبعوا عورات الناس ، وصوروها ابشع تصوير واشنع ، وقبحوا وجه الانسان وأعضاءه ، فاذا هو قرد أو حيوان مفترس أو خليقة وحشية ، مخيفة ، تأتي من الافعال والسلوك ما يندى له الجبين وما يصم الأذان عند سماعه . لسنا هنا في حاجة الى ذكر امثلة عن تلك البيئات التي انتشر فيها هذا النوع من الادب المكشوف

وعم الاوساط المثقفة وغير المثقفة رغم ما قام حوله من ضجعات صاخبة يدافع اصحابها دائما عن مستوى الاخلاق ، في شيء من التفاؤل احيانا وفي كثير من اليأس والتشاؤم أحيانا أخرى . ان المصادر التاريخية حافلة بذلك النوع الادبي سواء كان ذلك مدحا او هجاء او غزلا . يكفي القارئ ان يرجع قليلا الى الوراء ليطلع مثلا على ما خلفه جرير والفرزدق والاخلط وغيرهم من تراث ادبي ضخم بقي مسجلا وتحمل صفحاته كثيرا من هذا الادب الذي لا يقيم وزنا للاخلاق ولا يعرف حدا للسباب والهجاء وتتبع الهنات والعورات وفضح الشهوات ، ويكفي القارئ كذلك مثالا ان يلقي نظرة على انتاج البيئة العربية في بغداد او غيرها من البيئات الشرقية العربية ليقف بنفسه على مدى استخفاف كثير من ادباء القرن الرابع او غيره بالاخلاق العامة واستهتارهم بأعراض الناس وتتبع سواتهم واحصائها بكل دقة ووقاحة وبكل سفالة وصراخة . فلا الاشارة تكفي ولا الثورية تجدى ولا الكناية تنفعهم في مقاصدهم الهجائية . ولعل من الموضوعية والانصاف ان ناتي ببعض الامثلة لشعرائنا كي نقف على مذهبهم في هذا الغرض من الشعر ولكي ندرى ما كانوا يختلفون به عن سواهم فيه .

من المعروف تاريخيا وادبيا ان ابن الخطيب حل بالمغرب في فترات منقطعة وفي ظروف مختلفة أشرنا اليها سابقا ، ومن المعروف ايضا ان ابن الخطيب عند حلوله بالمغرب سفيرا او لاجئا اتصل بملوك بنى مرين وبخلفائهم وبوجهاء الدولة وكبار مثقفيها من فقهاء وادباء احتك بهم احتكاكا كان احيانا مبنيا على الصداقة والمودة وأحيانا اخرى كان سببا في نشوب اصطدامات ومناوشات وخلافات سجلها التاريخ كما سجلها ابن الخطيب نفسه بما تركه من آثار في الموضوع الذي نحن بصددده . نذكر من تلك الصراعات ، على سبيل المثال والايجاز لا على سبيل الحصر ، ذلك الخلاف الذي وقع بينه وبين ابي العباس القباب . والموضوع يتلخص في كون ابن الخطيب استدعى القباب لزيارته ، لكنه لم يستجب لهذه الزيارة لسبب عاقه عن القيام بها . فما كان من ابن الخطيب الا أن قام وقعد ورأى في ذلك مسبة له واهانة لشخصيته الكبيرة وحطا من قيمته العظيمة ، فاعتبرها كبيرة وهي صغيرة وجعل منها كما يقال ، قبة وهي حبة ، فنهض وشمر عن ساعديه واستعد للانتقام وتسليح بسلاح الانفعال والانسياق وراء عواطف السخط والحقد والكراهية ، وقام بالمرصاد وتصدى له ولأمثاله بالنقد بل بالشتيم واللعن والقذف والظعن ، فنال منه ومن اعراضه كما نال من جميع المتهمين مهنته من الموثقين والعدول . ولم يترك لا كبيرة ولا صغيرة الا ونسبها لهم ولا عيبا الا اختصمهم به ، لا لذنب ارتكبهوه أو لمخالفة قاموا بها ضد من ناصبهم العداء وحشرهم كلهم بدون تمييز ولا تفاوت في طبقة سفلى من طبقات المجتمع الفاسي بل المغربي وانما لكونهم من نفس الطبقة التي ينتمى اليها من قامت ضده هذه الضجة الصاخبة وهذه الحملة العنيفة التي صلبها ابن الخطيب في قالب خاص وصاغها في كتاب مستقل سماه « مثل الطريقة في ذم الوثيقة » ، ورغم ما جاء في هذه الرسالة من

قذف وسباب نظم ابن الخطيب فضلا عن ذلك ابياتا تنم عن موقفه من ابن القباب وسخطه عليه والتعريض به والتشهير بمساوئه والى القارىء من هذه الابيات (I) :

وعلى من حاله مثل رقيقة	وغير غريبة ان رق حر
ويأبى ذاك دكان الوثيقة	واما زاجر الورع اقتضاها
يطالب بالجليلة والدقيقة	وغشيان المنازل لاخيار

الخ

ادرك القباب ما لهذه الحادثة من اثر فى نفس ابن الخطيب فاعتذر له قائلا : (2)

وكأنما تكهن بسوء العاقبة .	
رسولك لم يبين لى طريقه	تقرب من حديقتك الانيقة
فلا ماوى لدى ولا ابناء	ولكن ساء فى الغرض الطريقة
وهب انى أسات فكم صديق	تدل واعتدى فجفى صديقه
وانى فيك معتقد ولكن	أرى الايام حاكمة حنيفة
على ذى الود فى من ود حتى	يفارقه وان اضحى رفيقه

هذا كل ما جاء فى رد القباب على ابن الخطيب وهو ، كما يرى ، جواب يلتبس فيه صاحبه العذر ولا يتعرض فيه لاي نوع من الفحش والسوء ، كلام خال من التعريض والتشنيع والتقبيح ومع ذلك لم تهدأ ثورة ابن الخطيب ولم يهدأ وطيسه لانه لم يكفه ذلك التبرير وذلك الاستسماح لغروره وشدة اعتزازه بنفسه وقوة طغيانه وحدة مزاجه وسرعة انفعاله فاسترسل فى لومه بل فى هجائه المر قائلا :

من استغضب من هذه الخليفة	بمغضبه بانكار الخليفة
بعثت بمرسل لك مع عتيق	فلم تطع الرسول ولا عتيقه
وثوقت السفير الذنب لما	عجلت به ولم تبلغه ريقه
وقد عارضت عذرك باعتراف	فزدت مذمة تسم الطريقة
وهل بعد اعتراف من نزاع	وهل بعد انفصال من وثيقة(3)

فليقارن القارىء بين هذا الرد الجارح وبين رد القباب الهادى المسالم ليدرك الخلاف بين الرجلين ، بين مغربى وبين اندلسى تصادما فتعارضا شعرا ، فكان الاول هادئا ، ورعا ، مستسلما والثانى ثائرا ، حانقا ميالا الى الهجاء اللاذع الفاحش الذى يمزق الاعراض ويفتك بالاخلاق .

(1) الاحاطة ج ص 172

(2) نقلنا بعض هذه الابيات عن «ابن الطيب من خلال كتبه» للاستاذ محمد التطوانى (تطوان -

(1959) صفحة 152 .

(3) 153 ٠٥ ٠٢

ولعل من الانصاف كذلك ان نثبت هنا صدى ما جرى بين ابن رشيق التغلبي ومالك ابن المرحل لتقوية الحجة والتدليل على صحة الراى والتأكد من الاتجاه الذى ساد هذا العصر وطغى على الشعر المغربى مهما اختلفت اغراضه وانواعه ، ولنورد هنا بعض الابيات من قصيدة لابن رشيق نظمها فى هجاء ابن المرحل حيث يقول :

للاب سببة فى النباح مدارك	واشدها دركا لذلك مالـك
شيخ تفانى فى البطالة عمره	واحال فكيه الكلام الآفـك
كلب له فى كل عرض عضه	وفى كل محتنت لسان آفـك
احلى شمائله السباب المفتري	واعف سيرته الهجاء الماعـك
والذ شيء عنده فى محفل	لمز لاستتار المحافل هاتـك
يغشى مخاطره اللئيم تفكها	ويعاف رؤيته العالم الناسـك
فكانه تمساح تقذف جوفه	من فيه ما فيه ولا يتماسـك
انفاسه وفساؤه من عنصر	وسعاله وسراطه متشارـك
ان سام مكرمة جثا متثاقلا	يرغو كما يرغو البعير البارـك
والدهر باك لانتلاب صروفه	ظهرا لبطن وهو لاه ضاحـك
لا تأمن للذئب دفع مضرة	فالدئب ان اعفيت بك فاتـك
عار على الملك المنزه ان يرى	فى مثل هذا للملوك سالـك
فكلامه للدين سـم قاتل	ودنوه للعرض داء ناهـك

الخ (I)

لقد اتينا بهذه الابيات قصدا وتعمدا نقل ما جاء فيها من الفاظ نابية وعبارات وقحة تحريا للحقيقة ومراعاة لموضوعية البحث الذى نسعى فى أن يكون مجردا نزيها لا تعسف فيه ولا تحيز ، وما ايرادنا لمثل هذه الالفاظ المخجلة والمفسدة للدوق الا حرص منا على الامانة العلمية وعرض أمثلة كافية على أنظار القارئ كى يستطيع الحكم بعد الاطلاع عليها والمقارنة بينهما . اوردنا هذه الامثلة كما جاءت فى مصادرنا رغم كونها تظهر مناقضة لما ذهبنا اليه من كون الشعر المغربى ينطبع بطابع العفة والمروعة سواء كان شعرا فى الهجاء أو المدح أو الغزل . ذلك ما قد يلاحظه القارئ علينا بادىء ذى بدء ، ان ما اوردناه فى ابيات ابن رشيق يكاد يكون كله افحاشا وهتكا للاعراض وتشويها للانسان خلقيا وخلقا ومسا بكرامته ومروءته وسمعته ، وذلك صحيح الى درجة نجد فيها انفسنا وكأننا مع جرير والفرزدق فى نقائضهما ، ذلك ما يخالف الذوق ويعارض القيم الانسانية والمجتمعية ويمس فى الصميم الشريعة الاسلامية التى تنهى عن مثل هذا السلوك . الا ان حجتنا فى الدفاع هى ان ابن رشيق لم يكن كما ذكرنا فى ترجمته من صميم البيئة المغربية التى تشبعت بهذه الروح الاسلامية المتجلية فى سلوك ابن المرحل

والقبا ب وغيرهما . ان ابن رشيق عاش في سبئة بدون شك الا ان استيطانه بهذه المدينة الثغرية ونشأته بمرسية وكثرة تنقلاته بالاندلس واستقراره بها نهائيا ، كل ذلك جعله يتأثر بهذه البيئة وينزع منزع ابنائها في السلوك والاتجاه ، فكانت اخلاقها وعاداتها غالبية عليه ومؤثرة في ذهنه ونفسه . يذكر ابن الخطيب (I) «.... منتم الى صاحب الثورة على المعتمد» كما يذكر انه دخل الاندلس وحط بها بالمرية ، وقد اصيب بأسر عياله فتوسل الى واليها من قرابة السلطان الغالب بالله ، ولحق بغرناطة ومدح السلطان بها ونجحت له مشاركة الرئيس بالمرية ... وفي كلام ابن الخطيب ما يدل على ان صاحبنا قضى فترة كبيرة من عمره في الاندلس . واذا كان اتى بذلك الكلام البنيء ووصف ابن المرحل بتلك الاوصاف القبيحة ، فالغالب على الظن ان ذلك لا يعدو ان يكون من باب الاختلاق ومحظ افتراء لما نعرفه عن ابن المرحل من عفة ووقار ولما يتميز به ابن رشيق من طبع حاد يكاد يكون شاذا وسلوك يكاد يكون غريبا ، نتيجة لعوامل فيزيولوجية ونفسية اتينا على ذكرها في موضوعها . ثم ماذا كان بعد هذه السفالة التي اظهرها ابن رشيق في شعره وبماذا قابلها مالك ابن مرحل ؟ كل ما هنالك ، حسب ما وقفنا عليه ، انه لم يزد على ان اجاب بهذين البيتين .

كلاب المزابل اذيننى بـبوالهـن على دارى
وقد كنت اوجعها بالعصا ولكن عوت من وراء الجدارى

ذلك جواب ابن المرحل ، وردة على ابن رشيق ، وبذلك انتهت المعركة التي لولا رازنة الخصم الاول وعفته وحشمتة ومراعاته للاخلاق لسمعنا من اذيالها الكثير ، كما سمعنا عن المعارك اللفظية التي كانت تدور في بيئات اخرى بين جرير والاخلط . لكن روح التسامح والتسامي تغلبت على روح الحقد والظغينة بفضل التربية الاسلامية .

اننا لا ننكر رغم ذلك وجود شعراء نظموا في الهجاء كما لا ننكر ما قد يكون في هجائهم من نقد جريح . نجد ذلك عند العبدري المعروف بحدة طبعه وبتشاؤمه وبسرعة انفعاله ولوعه بالنقد الذي قد يكتسى صبغة لاذعة ، كما نجده عند غيره من الادباء الذين تعرضنا لهم في هذا البحث او الذين لم نجد متسعا من الوقت في هذا البحث لدراساتهم ومعرفة آثارهم . لكن ذلك لا يقصد قصدا ولا يلتزم فيه اصحابه ما التزمه غيرهم من معاني شنيعة ، والفاظ نابية ، تخرج من المعهود والمألوف . قد يكون ذلك من قبيل الصدف وفي ظروف يشتد فيها خصام ويحتدم فيها صراع بين ادبيين او فقيهين ، فينطلق الانفعال وينطلق معه السخط والغضب من كلا الجانبين . وتلك حالات نفسية ووجدانية تعترى جميع الافراد مع فرق في درجة الاثر والحساسية والانفعال ، وسرعة رد الفعل ، ان ذلك من الظواهر

الاجتماعية التي لا يفلت منها فرد من افراد مجتمع ما ، ان الاخلاق الحسنة ،
والتربية المتينة ، والتمسك بالمبادئ الاسلامية وتقليده ، كل ذلك
يهدب السلوك ويضبط على الغرائز ويحد من شذوذا وقوة جموحها ، ويضبط
العلاقات بين الافراد على اساس المساواة والعدل والتسامح والتعاطف ، ويحل
المودة والاخاء محل العداوة والبغضاء والتراعى بالصفات المخجلة وبكل ما نهى عنه
الشرع الاسلامي .

آآب الرحلات

ان الرحلة انواع كما يعلم القارىء ، منها ما هو سياسى ، ومنها ما هو
دينى ، ومنها ما هو تجارى ، ومنها ما هو تعليمى او سياحى او سفارى الى غير
ذلك من الانواع التي تعددت وتنوعت بتعدد وتنوع الاغراض التي كانت تقصد من
ورائها .. ان طبيعة المجتمع واخلاقه وعاداته وظروفه السياسية والاجتماعية
والاقتصادية وظفوسه الدينية هي التي كانت ولا تزال تحدد طبيعتها وتكيف
محتوياتها وتطبعها بالطابع الذى تفرضه روح العصر . وقد وجدت هذه الرحلات منذ
زمن بعيد عند الامم الاجنبية (بطليموس) ، كما وجدت عند العرب فى الجاهلية
وخصوصا منذ ان انتشر الاسلام ، واصبح المسلمون ، نظرا للعوامل التي ذكرناها ،
يطوفون بالبلاد المجاورة لهم او البلاد التي فتحوها . وعلى سبيل المثال نذكر من
الرحلات التي سجلها التاريخ العربى رحلة ابن حوقل (المسالك والممالك) ورحلة
اليعقوبى (كتاب البلدان) ورحلة المسعودى (مروج الذهب) ورحلة المقدسى (احسن
التقاسم فى معرفة الاقاليم) ورحلة ياقوت الحموى (معجم البلدان) الى آخر ما خلف
من ثرات فكرى من هذا النوع الذى يعتبر من اهم ما جادت به قرائح الرحالين
العرب فى القرون الوسطى(I)

وليس يهنا ان نستقصى كل هذه الرحلات ونلم بجوانبها والظروف التي
ألفت فيها ، لان ذلك يتطلب ان نفرء له بحثا خاصا ومستقلا لا يتسع مءاء
لموضوعنا . وانما الذى نهتم به فى هذه الظروف هو محاولتنا اعطاء فكرة للقارىء
عن هذا النوع من الانتاج الفكرى فى عصر بنى مرين .

ان من المسلم به ان الرحلات تمتد جذورها الى ما قبل الاسلام رغم آثارها
ثم الى ما بعد ظهور الاسلام عند العرب ، كما يرجع تاريخها الى عهود سحيقة
عند الامم الاخرى . الا اننا نرى انها اصبحت فنا قائما بنفسه ، مستقلا بذاته
له خصائصه ومميزاته ، ورواده الذين قصدوه قصدا والتزموا ما التزموه لتحقيقه
والتفانى فى اجادته والعمل على تخليده قدر الامكان . ولا اءل على ذلك من تلك
الاهوال والمخاوف والاطار التي كانوا دوما يتعرضون لها ويتحملونها لتحقيق

(1) ظهر بحث جديد ، هذا الموضوع - وهو جدير بالدراسة :

André Miquel, La géographie humaine du monde musulman, Paris, 1967.

غايتهم بشيء كبير من الصبر والتجلى والصمود امام العراقيل التي كانت تعترض سبيلهم حتى لكادت تصبح رحلاتهم نوعا من المجازفة والمغامرة التي لا يستطيع القيام بها الا نفر قليل من الشجعان والابطال .

فما هي اذن الدوافع لذلك ؟ ما هي الاغراض التي كان الرحالون المغاربة يرمون اليها من وراء مغادرتهم لبلادهم وتنقلاتهم عبر المدن والاقطار ، بل القارات ؟ لقد تعددت الآراء واختلفت الاقوال حول ذلك وظن البعض ممن تعرضوا لهذا النوع من الانتاج الفكرى ان الدوافع هو مجرد اشباع غريزة حب الاستطلاع واكتشاف المجهول والتأكد من صحة الروايات والاتصال باجناس أخرى الى غير ذلك من الاسباب . واذا كان هذا الراى ينطبق على بعض الرحلات فى عصر من العصور ، فان لنا رأيا فى الموضوع تكون لدينا على ضوء الاحداث التي كان المغرب يعيشها.

ان الرحلات المغربية فى عصر بنى مرين تستمد مقوماتها من البيئة المغربية قبل كل شيء ، ثم من خارج هذه البيئة ، ومن المسافة التي كانت تفصل بينها وبين الاماكن التي كان يقصدها كل مسلم لاداء فريضة الحج . ان المجتمع المغربى كما وقفنا على كثير من جوانبه ، كان يشكل عاملا اساسيا فى بروز هذا الفن . ان المغربى كان يعيش فى جو من الروحانية النافذة الى الاعماق والتربية الاسلامية الخالصة التي تشبع بها الافراد والجماعات فى هذا العصر الذى تؤرخ له . لذلك نرجح ، خلافا لما ذهب اليه بعض من كتب عن الرحلات المغربية ، ان الدافع دينى قبل كل شيء وان الرغبة الملحة التي كانت تساور النفوس هي مغادرة الاوطان تأدية لفريضة الحج ، والحج من اركان الاسلام التي يتم بها اسلام المومن اذا توفرت لديه الاستطاعة . لذلك كان تحقيق هذه الرغبة بالنسبة له شيئا واجبا ، لا يطمئن له بال ، ولا يخلص له ضمير الا اذا ادى هذا الواجب ، واذا لم يؤده فذلك لعجز مادي او مرض او لمانع قاهر لا يمكن التغلب عليه . فلا السياخة اذن ولا التجارة ولا المغامرة كانت غاية لهذه الرحلات التي خلفتها لنا البيئة المغربية على عهد بنى مرين . ان العبدري وابن رشيد وابن بطوطة كلهم غادروا اوطانهم للقيام بهذه المهمة الدينية . لقد عبر كل منهم عن هذه الرغبة فى رحلته التي يمكن للقارئ ان يرجع اليها ليرى ذلك بصريح العبارة ، وبصفة مقصودة لا لبس فيها ولا غموض ، نعم ، قد تظهر اغراض أخرى فى محتوى هذه الرحلات لكنها قد تاتي عفوية ، قد تكون وليدة الظروف التي احاطت بالرحالة المغربى عند ما كان مقيما ببلدة غير بلده ، فاضطر ، نجاة بنفسه أو تحقيقا لبعض الحاجيات المتولدة عن مقامه ، ان يسلك سلوكا آخر يكتسى صبغة سياحية أو تجارية أو استطلاعية أو غيرها . لكن ذلك حسب رأينا يدخل فى اطار عام ويعتبر مسببا لاسباب او نتيجة حتمية لم تكن تخطر بباله ولا تدور بخلد و رب معترض يلاحظ فى هذا شيئا من التعسف او التطرف ويقول ان هؤلاء الرحالين كانوا يقصدون كذلك اغراضا أخرى ، منها الاتصال بالعلماء والشيوخ وكبار الفقهاء والمجدئين للاخذ عنهم والتحقيق في سندهم والروايات التي قد تكون صدرت عنهم . وجوابنا على هذا الاعتراض هو أن

ذلك صحيح لكننا نرى ان الغاية كانت لا تختلف جوهريا اذ العلوم التي كان يقصدها الرحالة المغربي تكاد لا تتجاوز ميدان الشريعة الاسلامية ، من فقه وحديث وتفسير وقرآن . فليس هناك اذن فرق ما دامت الغاية ترمى الى التضلع والتبحر في العلوم الدينية . فليرجع القارئ كذلك ، ان شاء ، الى هذه المخلفات الادبية المغربية ليتحقق من هذه الظاهرة التي اشرنا اليها في انتظار التعرض اليها بشيء من التفصيل فيما سيأتي . واذا كان بعضهم قد استغرب من كون ابن بطوطة ذهب بعيدا واجل رحلته الى الاندلس رغم كون المسافة قصيرة والوسائل متوفرة ، فاننا لا نرى ، والحالة هذه ، داعيا للاستغراب اذ الرحالة المغربي لم يكن في نيته ، في بداية الامر ، سوى زيارة قبر النبي واداء مناسك الحج ، لذلك فضل الامتحان والمغامرة والتعرض للاخطار واجل زيارة الاندلس التي كانت قريبة من مسقط رأسه وموطنا لكثير من أصدقائه . لم يكن في البيئة المغربية كما نرى اليوم او في ذلك العصر في بيئات أخرى تصارعا حادا او تنافسا شديدا بين الافراد قصد تكديس الاموال وتحقيق الارباح الباهظة ، ان ذلك يعد في نظر الشرع الاسلامي غرورا كما جاء في القرآن الكريم (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) «انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد» .

على أننا نعود فنقرر ان هذه الاهداف اذا كانت دينية في صميمها ، فهي كغيرها من الظواهر الاجتماعية تدخل في نطاق عام وفي اطار اجتماعي اكسبها قوة واضفى عليها صبغة المجد والاحترام والتقدير والسمعة الطيبة التي لا يمكن ان تأتي عن طريق الفرد وحده ، بل تنتج عن روح الجماعات وتفاعل الطبقات والتكيف السائد والساثر مفعوله بين الناس ، احب الفرد ام كره . فالباعث هنا مهما ظهر دينيا محضا قد امتزج بقوة اجتماعية قد تختفي وراءه في الظاهر ولكنها تظل تحركه وتنميته فيتعاونوا معا على خلق ما يسمى بالدافع حسب اصطلاح علماء النفس او العامل حسب علماء الاجتماع . فلولا البيئة التي كانت متشبعة بروح اسلامية متينة ، ولولا انصرافها بصفة عامة عن المادة وتخلصها من سيطرتها على التفكير والسلوك في مرافق الحياة الاقتصادية والسياسية ، لولا ذلك لما قوى ذلك الباعث ولما اكتسبت هذه الصبغة القوية الدافعة .

ازدهار أدب الرحلة في عهد بني مرين

ازدهر أدب الرحلة على عهد بني مرين ازدهارا لم يسبق للمغرب أن عرفه في العصور التي مضت ، فلم يذكر لنا التاريخ ، بل لم يسجل لنا من هذه الرحلات منذ بداية الاسلام في المغرب حتى العصر المريني ، اى ما يقرب من سبعة قرون الا عددا قليلا لا نكاد نعرف منه بالنسبة للمغاربة سوى رحلة نزهة المشتاق للشريف الادريسي والمعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي

والمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد المغربى . انه زمن طويل اذا ما قيس بالزمن الذى استغرقته دولة بنى مرين التى لم يتجاوز عهدها قرنين ونصف قرن ، ومع ذلك ألفت فى هذه المدة القصيرة ثلاث رحلات تعتبر اهم واعظم ما ألف فى هذا الفن فى تاريخ المغرب . ألفت فيها الرحلة المغربية للعبودى وملء العيبة فى طول الغيبة لابن وشيد الفهرى وتحفة النظار فى عجائب الامصار لابن بطوطة .

وليس بخاف ما لهذه الرحلة من شهرة طبقت الآفاق ، كان لها اثر فى مختلف المجتمعات العربية وغيرها ، اذ شغل بها كثير من المثقفين وغير المثقفين الذين وجدوا فيها ما يناسب مستواهم الفكرى وما يخاطب خواطرهم ويجول فى انفسهم . ان أعظم رحلة خلفتها لنا البيئة المغربية (ملء العيبة) ترجع الى هذا العهد الذى نتحدث عنه . وأشهر رحلة شغلت الناس فى كل مكان هى رحلة ابن بطوطة التى لا يزال النقاد والادباء والمؤرخون من العرب والمشرقين يخصصونها بعنايتهم وبأبحاثهم المتنوعة الى اليوم . هذا التراث الفكرى الخالد هو من انتاج قرائح مغاربة عاشوا كلهم فى ظل بنى مرين ، وتكيفوا ببيئتهم المغربية متفاعلين مع معطياتها الاجتماعية والمادية . فالمسألة هنا بالنسبة لهذا العصر مسألة كيف وكم : انتاج ضخم من مستوى على اعتراف به كثير ممن تصدوا لهذا النوع من الفنون الادبية بالدراسة والنقد والتحليل . فالرحلة اذن بلغت مستوى النضج وارتفعت الى قمة الشهرة والصيت الدائع فى هذا العصر الذى نؤرخ له . وما نظن أنفسنا فى حاجة الى اعطاء أمثلة على هذه الشهرة التى نالتها الرحلات التى انتجتها البيئة المغربية فى عهد بنى مرين ، اذ الامر معروف فى التاريخ وتاريخ الرحلات على الخصوص . فلنكتف اذن بما أوردناه ولنتساءل الان عن عوامل هذا الازدهار .

ان هذه العوامل تكمن فى البيئة نفسها . ان الظروف السياسية التى كان المغرب يعيشها والازمات التى كان يتخبط فيها والمشاكل التى كانت تحدث له مع غيره من الدول المجاورة كل ذلك أدى بالاضافة الى عوامل أخرى دينية واجتماعية الى بعث هذا الفن وتطويره وتشجيع رواده لتجود قرائعهم ومواهبهم الفكرية والارادية بما خلقوه لنا من آثار فى هذا الميدان . لسنا ننسى ما هو نوع العلاقات التى كانت قائمة بين المغرب والاندلس من جهة ، وبين المغرب الاقصى والمغربين الاوسط والادنى من جهة أخرى . انها علاقات كثيرة ما اصطبغت بطابع الحدة والتوتر ، بل بالقوة والعنف اذ كان تدخل بنى مرين فى سياسة بنى عبد الواد تدخلا سافرا يعتمد على القوة والبطش والسلاح لاختضاع هاتين الدولتين للسيطرة المغربية المركزية . لسنا ننسى ما كان ينتج عن هذه العلاقات من تنقلات ورحلات فردية واجتماعية تلقائية أحيانا ومفروضة أحيانا أخرى . ان القوات المغربية كانت دائما على استعداد لخوض المعارك كما كانت تخوضها بالفعل داخل المغرب وخارجه ؛ أما العدو الاندلسى فعلاقاتها مع المغرب علاقات تارة ودية وأخرى عدائية نتيجة لسياسة بنى الاحمر

المتقلبة والمتلونة حسب الظروف والاعراض السياسية والمصالح الشخصية .
فالتنقلات بين العدوتين كانت جارية وسهلة لقرب المسافة ولاعتماد المغاربة في كثير
من الظروف على الشواطئ البحرية في تنقلاتهم الى الشرق وغيره .

على أن هذه المعطيات البيئية والاجتماعية التي تكتسى صبغة غير مباشرة
لم تكن وحدها كافية بخلق حركة مقصودة وتشكيل عوامل رئيسية من شأنها أن
تنهض بأدب الرحلة وتتقدم به الى الدرجة التي نالها . ان أدب الرحلة وجد في بنى مرين
خير مشجع ، وأقوى مساعد مباشر ؛ وأكثر من ذلك أن أبا عنان المريني كان قد
خصص لصاحب رحلة تحفة النظر وهو عائد من سفره استقبالا حارا تقديرا لجهوده
وتشجيعا لانتاجه ، فلما حضر الى فاس «قبل يده الكريمة وتيمن بمشاهدة وجهه
المبارك وأقام في كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما أولاه من جزيل
احسانه وسابغ امتنانه» . وكان أبو عنان المريني قد أخذ العدة وأعطى الاوامر لكاظم
محمد ابن جزى لتناول الرحلة بالتدوين والتنسيق حفظا لها من الضياع وتخليدا لذكر
مؤلفها . وطبقا لتعليمات ملكه «نفذ ابن جزى الاشارة الكريمة بأن كتب ما شاهده
في رحلته من الامصار وما علق بحافظه من نوادر الاخبار ويذكر من لقيه من ملوك
الاقطار وعلماؤها الاخيار وأوليائها الابرار »ان الامر العالي صدر للعبد المنقطع الى
خدمة مولاه بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه
معتمدا ايضاحه وتقريبه» . اليس في هذا كله ما يدل على العناية الخاصة التي أولاها
الملك المريني للرحلة ولصاحبها ؟ . وعلاوة على ذلك ، فان القارئ يجد في نصها
كثيرا من الاسئلة التي كان أبو عنان يطرحها على ابن بطوطة بقصد الاستفسار
والاستيضاح ، مما يدل على شدة رغبة أبي عنان في الاطلاع على ما احتوته من اخبار
ووصف للامصار .

واذا كان ابن بطوطة قد نال هذه الخطوة عند أبي عنان تقديرا لانتاجه ، فان
ابن رشيد ، هو الآخر ، قد سبق له في ظل السلطان أبي الربيع أن حظى بنفس
العناية المولوية ، ولا أدل على تلك العناية التي لقيها وتلك المكانة التي أدركها في
البلاط المريني من تحقيق رغبته في الانتقال الى مراكش بعد الاختيار الذي تركه له
السلطان في الاستقرار حيث شاء. انها التفاتة ملكية خاصة توجت باستدعاء الرحالة من
مراكش وجعله من خواص البلاط ، ذلك تشجيع مباشر نعتبره من العوامل الرئيسية
التي نهضت بمستوى أدب الرحلة في هذا العصر .

أما الآن فيحق لنا أن نتساءل عن خصائص هذا الفن الذي يتميز به عصر
بنى مرين .

ان الرحلة تمتاز ، بخصائص عامة ومشاركة تنطبق على جميع الرحلات التي

الفت في هذا العصر ، رغم كونها تختلف في جزئيات تنفرد بها هذه عن تلك ، كان يكون مثلا أحد العناصر المكونة لها جميعا أقوى أو أضعف في هذه أو في الأخرى .

فما هي إذن هذه الخصائص ؟

ان من يتصفح رحلات هذا العصر ويمعن النظر فيها ، يجدها تمتاز بطابع خاص هو بروز العنصر الذاتي ، وتغلبه على العناصر التي تكون أسسها . ان الرحالة نفسه هو مصدر الملاحظات والوصاف والمشاهدات ، وعنه تصدر الآراء والافكار والانتقادات الموجهة تارة للأشخاص وأخرى للأشياء ؛ كثيرا ما يمدنا بانطباعه ، واحساساته ، ومشاعره المختلفة المتولدة عن احتكاكه بالأشخاص وبالأشياء . ان ما نجده في الرحلة قد لا يتعدى هذا الميدان ، ميدان تفاعله مع البيئات التي يزورها أو الأفراد الذين يتصل بهم ، انها شخصية الرحالة بطبيعته ومزاجه ، وبوجدانه ويفكره ، بحالاته النفسية المتقلبة ، بعاداته الذهنية والمجتمعية بعواطفه الخاصة ، بميوله الفطرية والمكتسبة ، التي تغطي على الحوادث فتصفها كما تشاء وكما يتفق لها لا كما هي في الواقع ؛ ان ما نجده في هذه الرحلات من أوصاف وحكايات وأخبار أو مشاهدات للدور والبيئات لا يتعدى في غالب الأحيان العنصر الذاتي الى العنصر الموضوعي . ان للخيال أثره وللعاطفة والثقافة الشخصية دورهما فيما يحكى وما يوصف وما يستقبح وما يستملح . ان الرحالة في هذه الظروف قلما يستطيع التجرد عن ذاتيته في حكمه على الأشخاص والأشياء ، فلا محل للفكرة المجردة الا في ظروف خاصة وميادين معينة . انه من الصعب عليه أن يتحرر من هذا العنصر ويتصدى لرحلته بروح علمية أى يوصف ما هو كائن فعلا وما هو موجود لا ما يظنه كائنا أو يتمنى أن يكون ، الشيء الذى يشوه الحقيقة ويحرف الاحكام ويخل بالموضوعية والحياد الفكرى ، لذلك اتصفت رحلة العبدى بالمبالغة والتطرف في الحكم على سلوك الأفراد الذين لقيهم في طريقه كما اتصفت أحيانا بالعنف والنقد الجريح ، والوصف الشنيع للاماكن التي مر بها ، فاذا بها في نظره خالية قفراء لا انسان فيها ولا حيوان ، لا نبات ولا حجر ، تبكى حظها وكأنها شخص أصيب بأذى أو فقد عزيز لديه . فلنستمع اليه وهو يتحدث عن مدينة قيروان : «ثم وصلنا الى مدينة قيروان فدخلتها مجدا في البحث غير وال ، فلم أر الا رسوما محتها يد الزمان ، وأثارا يقال عنها كان وكان ، والاحياء من أهلها جفاة الطبع ، ما لهم من رقة الحضارة باع ، ولا فى معنى من معانى الانسانية انطباع وكسدت سوق المعارف بينهم .. والمدينة ليس لها بر ولا بحر ، ولا شجر ولا نهر ، وضعت فى سجنه قرعاء لا ماء فيها ولا مرعى» الى أن قال وهو يصف طرابلس : «ثم وصلنا الى مدينة طرابلس وهى للجهل مآثم وما نلعلم بها عرس أفقرت ظاهرا وباطنا وذمها الخبير بها سائرا أو قاطنا ، اكتنفها البحر والقفى ، واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر وتفرقت عنها الفضائل ، لا ترى بها شجرا ولا ثمرا ولا تخوض فى ارجائها حوضا ولا نهرا بل

أقفر من جوف حمار وأهلها سواسية كاسنان الحمار الخ... وهكذا يسترسل العبدري في وصفه للديار والامصار ولاهلها ناسبا لهم ولها كل رذيلة وكل سيئة فهي قفراء وهم حمر ؟ . هل هذا هو الواقع ؟ هل كان العبدري غضبان يوم زار طرابلس والقيروان ؟ كم مكث في تلك الديار للحكم عليها وعلى أهلها الذين أصبحوا كلهم في نظره جهالا .

وذا كان ابن بطوطة أكثر مسالمة وأقل حدة في نقده وأميل الى القص والاختبار ، فإنه لم يسلم رغم ذلك من تأثير الانفعال وسلطة العادات وضغط العاطفة ، مما قاده الى التسرع في الحكم حتى اعتبرت كثير من مشاهداته وأوصافه للأشياء وللأشخاص نوعا من الخرافة والغربة ، وعد ذلك بعض النقاد من المعاصرين وغيرهم مجرد أوهام وأحلام . ولقد سبق لابن خلدون أن شك في أحاديث ابن بطوطة واعتبرها كذبا كما رماه بنفس التهمة ابن الخطيب الذي لم يتورع هو الآخر عن الحط من قيمة ابن بطوطة والشك في أخباره .

ونحن ، وإن كنا لا نستبعد ما جاء في هذه الرحلة من مبالغات وأخبار قد تكون بعيدة عن الواقع ، إلا أننا لا نعتبر ذلك كذبا أو تلفيقا مقصودا نظرا لما عرف به الشيخ ابن بطوطة من استقامة ونزاهة وأمانة في نقل ما سمع وما شاهد . وإنما الذي حدث هو أن مؤلف الرحلة لم يستطع التحرر من سلطة «الاناء» الجبارة لياتي بالفكرة المجردة ، والمشاهدة الواقعية ؛ لان الوصف الواقعي يحتاج الى شروط ذهنية ونفسية ووسائل أخرى خارجة تتضافر كلها وتعاون في الجهود الذي يبذله الواصف كي يؤدي مهمته العلمية بكل تجرد وموضوعية . فالمسألة هنا مسألة سوء فهم وقع فيه من تصدوا لرحلة ابن بطوطة . لان الكذب نوعان : نوع يتعلق بعلم الاخلاق ، ونوع يتعلق بعلم النفس . لذلك يجب أن لا نطلق الكلام على عواهنه كما يقال . ان الحواس قد تخطيء وقد تصيب في وظيفتها ، وان الحالة الذهنية قد تتأثر بالحالة النفسية الطارئة على الفرد ، فتشوه تفكيره وتحرف أحكامه من حيث لا يشعر . ومع ذلك فلا يجب أن نرمي الفرد الذي وقع في هذه الاغلاط بالكذب والتلفيق . ومهما يكن ، فما نسب للعبدري ولابن بطوطة ولابن رشيد من غرابة أو مبالغة أو تحريف لا يعدو في نظرنا أن يكون نتيجة من نتائج تغلب العنصر الذاتي وتحكمه في كثير من محتويات الرحلة . وهو الطابع الذي تنطبع به كما رأينا في بداية هذا التحليل .

النزعة الدينية

تتسم الرحلة المغربية ، الى جانب ما أوردناه ، بسمه دينية نلمسها في كل فصل من فصولها ولدى كل مناسبة او حادثة وعند كل مؤلفيها ؛ ولا غرابة في

ذلك ، فان القوم كانوا من صميم البيئة المغربية ، تشبعوا بتربية اسلامية متينة . كما تشبعت بيثتهم بها ، ولقد رأينا في الفصول السابقة الى أى حد كانت هذه الروح متغلغلة في النفوس والى أى درجة كانت مسيطرة على العقول والسلوك الفردي والجماعي . ان هذه الرحلات سجل لعبارات دينية كثيرة وآيات قرآنية وأحاديث نبوية والفاظ اسلامية تاتي عفوا في سياق الكلام ، كما يقصدها مؤلفو الرحلة قصدا حامدين الله تعالى في كل وقت ومصلين على نبيه المصطفى . هذا من حيث الاسلوب اللفظي والتعبير الصريح ، أما السلوك الذي يكتسى صبغة عملية كتلاوة القرآن ، أو القيام بالصلاة والصيام ، أو أى فعل يدخل في دائرة التقوى والعبادة ، فانك تلمس ذلك في كثير من فقرات وفصول الرحلة . والامثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة . ولا يسعنا أن ننقل منها الا ما يتسع له مجال هذا البحث . ولقد أعطى ابن بطوطة المثل بنفسه في هذا الميدان حيث أورد في رحلته ما يغني عن كل شرح وتحليل . لقد كان في سلوكه مثالا للاخلاق الفاضلة وللعفة والرزانة وحسن المعاملة ، فكان كلما نزل بالمدينة قصد مسجدها ليصلي فيه ويذكر كتاب الله ، وقصد أوليائها وصلحاءها وزهادها ، تبركا منهم ، واثقافا بوعظهم . يحكى ذلك بصراحة في رحلته ويقول : «انه زهد في الدنيا وولي وجهه نحو الآخرة يصوم خمسة أيام بدون انقطاع ، ويعتكف في المساجد حتى أصبح وهو نازل بدلهى رجلا صوفيا ، اعتزل الناس وخلا بنفسه مدبرا عن الاكل والشرب . وفي ما يلي يقف القارىء بنفسه على هذه الروح الدينية وهذا السلوك الاسلامي الذي يتجلى بكل بساطة وصراحة في هذا النص : «عندما وصلنا ، يقول ابن بطوطة ، في الصباح الى البلد الامين مكة المكرمة شرفها الله تعالى ، فوفدنا منها على حرم الله تعالى ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنا ، من باب بنى شيبه ، وشاهدنا الكعبة الشريفة ، زادها الله تعظيما وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال ، وترفل في برود الجمال ، وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا بأسطار الكعبة وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسب ما ورد عن النبي والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم...» (I) هذا مثال أوردناه مقتبسا من رحلة ابن بطوطة ويلاحظ القارىء اخلاص صاحبه لدينه وتشبثه القوى بمقيدته كما يلاحظ التكرار اللفظي للكلمات والعبارات الدينية التي يصطبغ بها هذا النص .

ولم يختلف العبدري عن ابن بطوطة في هذا الميدان ، في هذا السلوك الروحي الذي يتميز به هذا الفن الادبي كسائر الفنون الاخرى ، فهو رغم قلة تحذته في رحلته عن عبادته ، صلاته ، صيامه ، زهده ، ورغم أنه لم يكثر كابن بطوطة من الذكر الحكيم والالفاظ والعبارات الدينية التي وجدنا منها كمية كبرى في تحفة النظار ،

فإن رحلته لا تخلو من آثار هذه الظاهرة الروحية التي انطبع بها سلوكه كما انطبع بها سلوك غيره من مؤلفي الرحلات . ولنا في مؤلفه أمثلة كثيرة بعضها جاء عفويا وبعضها قصده الكاتب قصدا ، من ذلك قوله عندما وصل الى تلمسان : «ولما وقفنا على باب تلمسان صادفتنا العادة الكريمة من لطف المولى سبحانه فالفينا قافلة تخرج وهي كبيرة تزيد على الالف وقال لنا قائل على الباب ان له في محاولة الخروج نحو من ثلاثة أشهر ، فدخلنا الى البلد وخرجنا ساعة دخولها الى زيارة قبر الصالحين بالموضع المعروف بالعباد ووزرت قبر الشيخ الصالح آية زمانه أبى مدين رضى الله عنه» (1) . ثم يضيف : «ثم وردنا على مدينة أزموور وزرنا قبر السادة المدفونين بها من الصالحين نفعا الله ببركاتهم وختمنا الرحلة بزيارة قبر شيخ الصالحين وقودتهم ، شرف المغرب الأقصى وفخر شمس زمانه أبى محمد صالح بن ينصارن أفاض الله علينا من بركاته وأمد بصائرنا بنور يستمد من مشكاته ثم من الله علينا بجمع الشمل والاجتماع بالاهل له الحمد والشكر كثيرا» (2) من هذه الأمثلة التي سقناها على سبيل الاختصار ولم نراع في نقلها لا دقة ولا اختيارا يتضح للقارئ كيف كان سلوك العبدري وكيف كانت أخلاقه التي انطبعت بروح الاسلام وبتعاليمه التي أثرت في فكره وفي نفسه وجعلته يهتم هو الآخر بالاولياء والصالحين باحثا عن قبورهم لزيارتها ، مكثرا من الحمد والشكر لله . ولعل القارئ يزيد اقتناعا اذا ما اطلعناه على نص آخر للعبدري وهو يتمثل في قصيدة نظمها صاحبها وبعث بها من مدينة القيروان الى ابنه محمد تقتطف منها هذه الابيات ، يقول بعد المطلع الآتى : (3)

اصغ سمعا أوصك يا بنى	وصية والدبر حفى
وقد شاهدت فى الدنيا أمورا	محرضة على نهج التقى
فكن بالله عنها مستعيضا	كفى عوضا به من كل سى
ولا تأسف لفرقتها ففيها	وصال تواصل العيش الهنى
فلا تك يا بنى بها ولوعا	وان أبدت مطاوعة الابى
وكن بالله ذا ثقة تقيا	ولا تغبط بنى سوى تقى
وباعد ما استطعت حليف دنيا	تعلق حبها من فرط غيى
بنى تسوؤنى منك المعاصى	لغير الواحد الصمد العلى
بنى يسوؤنى منك المعاصى	فلا عبرت حنانك يا بنى
قبيح أن أكون عصيت ربى	وتقفو أثر والدك العصى

أليس فى هذه الابيات ما يدل على تلك التربية الروحية التي كونت شخصية العبدري وطغت على تفكيره ووجدانه . فهو ، كما يرى القارئ ، يوصى ابنه باتباعه

(1) الرحلة المغربية ص. 132

(2) ن. م. ص. 133

(3) ن. م. ص. 66

في نهجته وفي سلوكه نحو ربه . يوصيه بالطاعة وبالتمسك بدينه وبالنصراف
عن مشاغل الدنيا وشهواتها ومادياتها ، بل يذهب الى أبعد من ذلك ويقول له
بصراحة : « كن زاهدا لتناول المرتبة العليا » .

فالمعبدري لم يكن بأقل من ابن بطوطة تربية اسلامية وسلوكا روحيا وان
كنا نعترف ان تحفة النظار أحفل وأزخر بالمعاني الاسلامية والالفاظ والعبارات الدينية ،
والسبب في ذلك كما أشرنا ان ابن بطوطة كان كثير الثقة بالاولياء والصالحين
وغيرهم الى درجة جعلت بعضهم يتهمونه بالسذاجة والاعتقاد في الخرافات والاهام
وكلام المشعوذين ، مما أدى به الى نقل بعض الحكايات وبعض الاخبار التي تدل على
ان ناقلها لم يتحر فيها الواقعية ولم يفحصها ، ولم يخبرها قبل نقلها لتكون أكثر
مطابقة للواقع ، وتناسبا مع المنطق والحكم السليم . وهنا كان يجب على هؤلاء النقاد
أن يفرقوا بين الهدف الناتج عن قوة العاطفة والصدق الذي يمليه العقل المتحكم في
الامور والاشياء . فالمسألة ليست مسألة صدق أو كذب كما يظن البعض وانما كان
يجب أن يرجع في ذلك الى ابن بطوطة لتحليل شخصيته قبل اتهامه بالكذب أو
الصدق ، فكان ذلك واجبا تحريا للموضوعية ، للالمام بالعوامل النفسية والمواهب
العقلية التي كانت تنبئ عليها هذه الشخصية . وقد سبق أن تعرضنا لبعض هذه
العوامل في ترجمتنا للرجل .

أما ابن رشيد ، فقد كان ، كما رأينا في ترجمته ، رجلا متدينا عرف بتخصسه
في علم الحديث ، فضلا عن ماله من اطلاع وتفوق في علوم أخرى . وفي رحلته ما
يجسم هذه الثقافة ويدل على هذا التكوين الذي لقيه هو وغيره من أبناء وطنه . نكتفي
هنا ، رغبة في الاختصار ، بإيراد مثال نظنه كافيا لاعطاء فكرة للقارئ عن هذا
الاتجاه الذي لم يختلف فيه صاحب «ملء العيبة ..» عن غيره . قال ابن رشيد :
« وبمقربة من العين أصل شجرة يابس ، فيه غصن كبير ناعم أظنها سدرا يزعم
الناس انه (صلعم) قعد هناك فاقتربت الشجرة والله أعلم ، ولقد اتفق لي هناك
أن أخذت شيئا لاني رأيت بعض من حضر هناك أخذ شيئا منها متداركا فرأيت شخصا
قد أقفل الى ولم أعرفه من قبل ولا بعد ، فقال حتى أنت تفعل ذلك ، فعلت ولم !
وما تنكر من ذلك فقال ان كان حقا ما ذكر فيقتدى الناس بك في الاخذ منها فيفنيها
الناس فيذهب هذا الاثر المبارك فتكون سبب ذهابه فشكرته وانصرف » (I) وهذا كلام
كما نرى حافل بالمعاني الدينية ودال على رسوخ عقيدة صاحبه . وكنتيجة لهذه الروح
الدينية التي طبعت مؤلفي الرحلة كما طبعت رحلاتهم المختلفة ، يلاحظ أن انتاجهم
هذا خلا أو كاد يخلو من كل سلوك غايته تجارية أو اقتصادية . فلم يكن يخطر ببال
الرحالة ولا يدور بخلد أن يتجر أو يقيم علاقة اقتصادية مع من يتصل بهم من سكان

[1] راجع ميكرو فيلم الخزانة العامة بالرباط نقلا عن مخطوط الاسكوريال .

البلاد التي يزورها . ومع ذلك فالفرصة كانت سانحة والوسائل متوفرة للحصول على المال . لقد حظى ابن بطوطة على الخصوص بمقابلة الملوك وذوى الرئاسة والمال فولج البلاط الهندي ، ولذلك كان فى استطاعته أن يستثمر هذه الظروف وهذه المناسبات . الا أنه كغيره من مؤلفى الرحلات لم يكن يفكر هذا التفكير ؛ لم يرد استغلال هذه المواقف التي كان يتعالى عنها ويتخذها وسيلة لغاية معروفة . ولذلك يمكننا القول ان رحلات المغاربة فى هذا العصر خلت من عنصر المادة بجميع مظاهرها وأشكالها ، وأعنى بالمادة هنا كما أسلفت ما يدر ربحا ، ما يغنى الفقير ، ما يكسبه مالا أو عقارا أو جاها أو قوة أخرى من هذا النوع .

عنصر الوصف

أما العنصر الثانى الذى تتكون منه هذه الرحلات فهو اعتمادها بصفة اجمالية على الوصف، وصف البيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية ، الشيء الذى لم نظفر به فى فنون أخرى ، شعرا كانت أم نثرا . فكثيرا ما كنا نأمل ونحن ندرس الانتاج الادبى أن يتعرض الشاعر أو الناثر لوصف الطبيعة وأحوال المجتمع المغربى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بوجه عام . وقد سبق أن لاحظنا نفس الظاهرة فى المؤلفات التاريخية التى كتبت عن المغرب فى هذا العصر أو غيره . لقد رأينا أن المؤلف كثيرا ما يهتم بالجانب السياسى أو العسكرى ولا يتعرض لما سوى ذلك من المعطيات الاجتماعية الا بصفة عفوية أو عابرة . ان الشاعر كما رأينا يكاد يقصر انتاجه على المديح الدينى أو النظام التعليمى سواء كان الامر يتعلق باللغة أو بالنحو أو بالبيان والعروض . أما فى الرحلة فكثيرا ما نظفر من صاحبها بمعلومات اضافية عن الاماكن التى زارها أو الطرق التى مر بها أو العادات والتقاليد التى لاحظها لدى كثير ممن احتك بهم من السكان . فكثيرا ما أطلعنا — على الخصوص — ابن بطوطة على أحوال الهند والصين وغيرهما من الاقطار التى لم نكن نعرف عنها الا الشيء القليل . فجاء خبره ممتعا ومفيدا ، فظنه الناس غريبا وخارجا عن العادة لانهم ما تعودوا عليه أو ما سبق لهم أن سمعوا عنه شيئا ، فالشيء النادر كثيرا ما يستغرب ويعد قبيحا أو حسنا حسب الاهواء والنزعات والميول والاذواق المختلفة . وتلك نتائج الذات القاعلة والمنفعلة وبها يفسد الحكم على الاشياء أو يصلح . وعلى كل حال فقد أمدتنا هذه الرحلات بمعلومات غنية كنا فى أشد الحاجة اليها : معلومات بيئية ومعلومات بشرية تتعلق بالسكان وبثقافتهم العامة ، بأذواقهم ومشاربهم . ورغم كون هذه المعلومات ليست عامة وشاملة ، بمعنى أنها لم تكن تتصف بالطابع الموضوعى المجرد ، فانها ساعدت كثيرا من المؤرخين والجغرافيين والادباء على أداء رسالتهم ؛ وكما نود أن نتناول هذه الرحلات المجتمع المغربى فتصفه ماديا واجتماعيا كما فعلت بالنسبة

للمجتمعات الأخرى ، لكنها لم تنصب إلا على خارج المغرب ، على المقازات ، على المدن الواقعة في طريق الرحالة أو الأماكن التي حل بها مرغما أو بقصد الضيافة . تفوق في هذا الميدان ، كما أشرنا ، ابن بطوطة ثم يليه في الترتيب العبدري ثم ابن رشيد الذي لم يغفل هذا الموضوع رغم اهتمامه بمواضيع أخرى استأثرت بعنايته ، ومع الاعتراف لابن بطوطة بالاكثار من إيراد الأخبار والأوصاف والأتيان بالجزئيات والتفاصيل التي قد لا نجدها عند غيره من الرحالين ، فإننا نلاحظ أن العبدري في وصفه أكثر دقة وتلخيصا وفنية إن صح التعبير ، وأشد تعمقا في النظر إلى الأشياء ، أيكون ذلك راجعا لاختلاف ثقافة الرجلين ؟ أو لأسباب أخرى قد تخفى علينا ؟ وعلى كل حال ، فليس من السهل تحليل ذلك الفرق وذلك التفاوت بين رجلين ما دام ابن جزى هو الذي حرر رحلة ابن بطوطة ونقحها ونسقها ووبرها . فله إذن يد في ما جاء من الأوصاف والأخبار رغم ما التزم به في مقدمتها من مراعاة للنص وتحري للدقة والموضوعية . وكلامه الصريح في ذلك يدل على أنه أضاف أشياء ونقص أخرى توضيحا للحماني وتقريبا للرحلة من أدهان الناس . فالتوضيح قد يتناول الأسلوب كما يتناول الجوهر ، وخير حجة هي أن نستمع إلى ابن رجي وهو يتحدث عن مقاصده وأهدافه وتحديد التزاماته (I) .. «نقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها وموضحة للمعاني التي اعتمدها وربما أوردت لفظا على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه وأوردت جميع ما ورد من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لأبحث عن حقيقة ذلك وقيدت المشكل من أسماء المواضيع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت ما أمكنتني شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس» . ففي هذا النص الصريح ما يغني عن التعليق ، ويكفي للدلالة على ما أشرنا إليها سابقا .

وقبل أن نتخلص إلى جوانب أخرى ، نرى من المفيد هنا إيراد أمثلة خاصة بوصف منار الإسكندرية ، ذلك المنار الذي تحدث عنه كل من ابن رشيد والعبدري وابن بطوطة . وقصدنا في ذلك هو إعطاء فكرة عن أسلوب كل من الرحالين الثلاثة في موضوع واحد تناولوه كل منهم بالحديث والوصف . أما ابن رشيد (2) فقد قال فيه « يعجز عنه الوصف ويحار فيه الواصف وضخامته من داخله أكثر مما هو عليه من خارجه وهو من عجائب المصنوعات وغرائب المراتب » وأما العبدري فيصفه كما يلي : «وأما المنار فقد كتب الناس فيه وسطروا ما فيه الكفاية وقد دخلته وتاملته وما وصلت إلى أعلاه إلا بعد جهد ولا يظهر له من خارج قرط علو وهو خارج المدينة على أزيد من ثلاثة أميال وعلى تل مرتفع بشمال البلد وقد أحاط به البحر شرقا وغربا حتى

(1) تحفة النظار ، ص. 21

(2) بحث للاستاذ محمد الفلّس في مجلة دموه الحق المجلد الثاني السنة الثالثة صفحة 76 .

تأكل حجراته من الناحيتين فدعم منها ببناء وثيق اتصل الى أعلاه وزيد دعما بدكاكين متسعة وثيقة وضع أساسها في البحر ورفع عنه نحو ثلاث قامات وباب المنار مرتفع عن الأرض نحو أربع قامات ..» (I) ويستمر العبدري في وصفه لهذا المنار آتياً بكل جزئية وتفصيل رغم كونه يقول ويكرر.. «ان الناس كتبوا عنه وسطروا ما فيه من الكفاية، ولعل القاريء لاحظ ما في هذه اللوحة من انتباه ودقة ملاحظة واختيار للالفاظ الموحية التعبيرية ، ذلك ما لم نجده في وصف ابن بطوطة الذي غالباً ما اقتصر فيه على ما ذكره سلفه وللقاريء أن يرجع ان شاء الى رحلته ، فهي منشورة لا تكاد تخلو منها مكتبة أو خزانة أما نحن فقد تعمدنا نقل كلام العبدري لان رحلته ما زالت غير معروفة ونسخها قليلة ولم تنشر نشرا كاملا بعد(2) .

وهكذا يتضح للقاريء الفرق بين هؤلاء الرحالين الثلاثة في موضوع معين ويدرك مدى اختلاف أسلوبهم في جانب من جوانب انتاجهم وهو وصف الاماكن والآثار . يختلفون كما وكيفا ، قوة وضعفا . فالعبدري أكثر دقة كما قلنا ، وأرقى درجة في هذه الناحية ؛ وابن بطوطة يميل الى البساطة والاكتار من العناصر المتعلقة بالاشياء ، والتفاصيل السطحية ، الناتجة عن الانطباعات الاولى . الا أنه يمتاز عن غيره باعطاء فكرة كافية عن العادات والتقاليد الاجتماعية المختلفة ، المتبعة مثلا في الاكل أو اللباس أو الشرب أو حلق الرأس أو الحفلات التي تقام بالبلاد الاجنبية ، وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية المتنوعة ، سواء كان الامر يتعلق بالميدان الاجتماعي الصرف أو بميداني الاقتصاد والثقافة . فرحلته من هذه الناحية حافلة زاخرة بالمعلومات التي قلما نجدها في رحلة أخرى . أما ابن رشيد فقد كان في رحلته ميالا الى الاختصار في هذه الناحية وكنتيجة أخرى يلاحظ أيضا أن مؤلفي الرحلة كانوا في حديثهم منصرفين عن الجانب الاجتماعي الذي يتمثل فيه الصراع القائم بين الطبقات الاجتماعية والمعارك التي تخوضها هذه الطبقات في مرافق الحياة الاجتماعية وتحليلا خاصا لهذه المجتمعات التي لاروها وأقاموا بها مدة قد تطول أو تقصر . ورغم بصفة عامة . فلم نجد في هذه الرحلات بصفة مقصودة أو غير مقصودة وصفا دقيقا ما ظفرنا به في هذه الرحلات من معلومات تتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية وبعض الانظمة السائدة ، فان الرحالة المغربي قليلا ما يتعرض لوصف دقيق لحوال أفراد المجتمع المادية ووسائل كسب العيش ، وأنواع المعاملات التجارية ، وطرق استغلال ثروات الارض ، ووسائل الانتاج ، ومستوى الدخل الفردي ، ومستوى التعليم والثقافة بصفة عامة كاملة ؛ كما لم يتناول بالوصف الدقيق والتحليل الشامل الجوانب الخلقية التي كثيرا ماتكون منحلة في بعض البيئات. هذان الجانبان الجانب المادي والجانب الاجتماعي ، وان لم تخل منهما هذه الرحلات كانا جديرين باكساب هذا الانتاج

(1) الرحلة المغربية ص 137 .

(2) لم تمكن من الاستفادة من تحقيق الاستاذ محمد القاسي الذي نشرها بعد انجاز هذا البحث

الادبي المغربي قيمة خاصة وفائدة كبرى ، لو حلا من طرف الكاتب بصفة أدق وأشمل . ولكن لكل عصر طاقاته ومستواه ومفاهيمه وطقوسه الخاصة . ولا يمكننا أن نحكم في عصر بنى مرين مفاهيم ومقاييس وقيم العصر الحالى . وانما أبدينا هذه الملاحظات بقصد المقارنة وإيثار بعض الاسئلة المتعلقة بالفروق بين المجتمعات الناتجة عن التطور الذى يخلق هذه المجتمعات ويكيفها .

النزعة التعليمية

ومن خصائص فن الرحلة الاهتمام بالناحية التعليمية كفاية مقصودة يهدف اليها الرحالة وهو يقوم برحلته كى ينمى معلوماته وينهض بمستواه الثقافى عن طريق الاتصال بكبار العلماء والفقهاء والشيوخ وأساطين المعرفة . فالرحالة كان سعيه وهو ينتقل من مكان الى آخر من مسجد الى مسجد ، مجالسة هؤلاء العلماء للاخذ عنهم والتدقيق فيما يروى عنهم من سند أو قول . فالتنقيب عن المشايخ وذوى الصيت والشهرة الواسعة فى ميدان العلم والمعرفة كان من الاهداف التى ينشدها الرحالة المغربى . ولذلك كان يستسهل الصعوبات ويتحمل المشاق الجسام ويكابد ويعانى من الازمات والنكبات ما يجعل حياته أحيانا فى خطر محقق ، ولكن الامر كان هينا بالنسبة اليه ، ما دام يجد لتحقيق غايته وسيلة من الوسائل التى كان يغامر فى التوفر عليها . وسواء كان الامر يتعلق بالعبدى أو بابن رشيد أو بابن بطوطة ، فالظاهرة عامة وسائدة فى هذا النوع من الادب الذى خلفه لنا هؤلاء المغاربة فى عصر بنى مرين ؛ فالرحلات التى كتبت فى هذا العصر نجدها كلها حافلة بذكر أسماء العلماء والمشايخ وكبار الفقهاء والمحدثين والصلحاء ، بل نجد فيها من التراجم لكثير الشخصيات ما لا نجده أحيانا فى المؤلفات الضخمة التى كتبت خصيصا لهذه الغاية ولا أدل على ذلك من ملء العينة لابن رشيد ، فهى زاخرة بالاعلام وسجل ضخمة لكبار الفقهاء والعلماء والمحدثين . انها نموذج ومثال فائق . يكفى القارئ دليلا على ما نزع ويرجع اليه متى شاء التأكد من صحة هذا الرأى . ان أول نظرة نلقها على هذه الرحلة تعطينا فكرة واضحة عن مقاصد صاحبها ونواياه الحقيقية ، حتى ليكاد القارئ يحكم عليها بأنها تقتصر على ذكر أسماء العلماء والادباء والمشايخ والكتب التى كان المؤلف يكثر من قراءتها واستنساخ العدد الكبير منها . فابن رشيد هنا أصدق مثال لهذه الظاهرة لان ما ذكره من أعلام وما لقيه من شيوخ وما قرأه واستنسخه من كتب يكاد يشكل صلب الموضوع ويكون الاساس لرحلته ؛ تقرأ الجزأ الاول أو الثانى أو الثالث من رحلته فلا تكاد تجد فيها سوى هذا النوع من المعلومات ، وكل ما سواه قد يأتى عرضا أو فى اشارة عابرة أو كلمة خاطفة . فاذا قيس بغيره من مؤلفى الرحلات فى هذا العصر ، اعتبر متفوقا فى هذا الباب اذ اهتم به

اهتماما خاصا وأفرد له أكبر قسط من انتاجه فكثيرا ما تجد وأنت تطالع رحلته هذه العبارات «وممن لقيناه بالقاهرة والاسكندرية» التي يفتح بها كلامه ثم يسير بعيدا في سرد العلماء والفقهاء وذكر نسبهم ومكانتهم العلمية ورواياتهم وسندهم الى غير ذلك من المعلومات التي تتجاوز أحيانا حدود الترجمة المألوفة .

ومن خلال تلك التراجم التي حفلت بها هذه الرحلات المغربية نستطيع أن نقف على نوع الاتجاه الثقافى الذى كان سائدا فى عصر بنى مرين ، فالثقافة التى كان المغاربة يجدون فى اكتسابها ثقافة دينية قبل كل شىء ثم لغوية وأدبية فلم يكن يهمهم غالبا سوى العلوم الدينية (القرآآت ، الحديث التفسير) والعلوم اللسانية (النحو والنحو والبيان والصرف والادب) وكتب الفقه على مذهب مالك . وهذا النوع من الثقافة هو الغالب فى الرحلات والجانب الذى يكون نزعها التعليمية . هناك فروق يلاحظها القارىء بين مؤلفى الرحلة أنفسهم فى اتجاهاتهم الفكرية لكنها فروق كمية لا تخرج عن هذه الدائرة التى كانت تقريبا المجال الوحيد لنشاطهم الثقافى . فابن رشيد كانت غايته ترمى على الخصوص الى الحديث والتفسير اذ كان ذلك هو مجال اختصاصه ، فمؤلفاته كلها كادت تقتصر على هذا الجانب من العلوم ، ترك منها حسب ما وقفنا عليه ، الحاكمة بين البخارى ومسلم ثم ترجمان التراجم فى ابداء مناسبة تراجم صحيح البخارى ثم السنن الابين فى السند المعنع ثم ايضا المذاهب فيمن ينطبق عليه اسم صاحب الخ ...

أما العبدري فهو كذلك يهتم بالروايات وبالقرآآت ويعتنى بالتحقيق فى الحديث والسند الا أننا نراه يتجه اتجاهها أدبيا مركزا كما يصرف عنايته الى علوم اللغة والنحو والبيان فهو فى هذه الناحية أبرز وأكثر ميلا الى ضبط القواعد والتراكيب النحوية واللغوية حتى يخيّل اليك وأنت تقرأ رحلته أنك أمام أستاذ فى النحو وفى اللغة وفى الادب والبيان . ان رحلته عبارة عن دروس فى هذه العلوم التى اضطلع فيها وأكثر من الخوض فى جوانبها وفروعها . تجد فيها من الشواهد النحوية واللغوية والعروضية كمية كبيرة ودقيقة ، مما يدل على نبوغ صاحبها وسعة أفقه فى هذا الميدان .

ومما يتصل بهذا الاتجاه الفكرى أن العبدري كان فى رحلته (نتيجة حتمية لذلك) من النقد الذين يتتبعون بكل دقة وشدة ملاحظة ما يقع فيه الادباء من الاغلاط والهفوات التى تخالف قواعد النحو والصرف والبلاغة ؛ كان غير متساهل ، شديد الحساسية لكل ما يقال نثرا وشعرا قوى الحرص على تقويم المعوج من الكلام ، حاد النقد لادّعه ، صارفا عنايته كلها الى ما يصدر عن الادباء من نثر وشعر ليضع كلامهم فى الميزان ثم يحكم لهم أو عليهم حكما صريحا قاسيا مبنيا على الحجج وشواهد قوية يستدل بها للدفاع والاقتناع ، وهو فى نقده هذا لا يتورع عن ذكر جميع المثالب

والعيوب ، لا يعرف الجمالة واللباقة أو التسامح ، يصدر حكمه على الخطى كسهم خارق يصيب من أخطأ أو نسي أو خالف رأيه . بهذا الاتجاه الادبي تميز صاحبنا عن غيره من مؤلف الرحلات . لقد كنا نود أن نورد أمثلة كثيرة لكن مجال هذا البحث لا يتسع لها ولذلك نوجه عناية القارئ الراغب في التوسع الى الرجوع الى انتاج العبدري ليقف بنفسه على هذا الاتجاه ، على هذه الثقافة الادبية واللغوية المتينة التي عرف بها مؤلف الرحلة المغربية ، ومع ذلك فلا نريد أن نمر بدون أن ناتي هنا وسر بمثال واحد لاعطاء فكرة ولو وجيزة عن رأينا ومذهب العبدري في رحلته .

فلتستمع اليه وهو يتحدث في رحلته عن ابن خميس بعدما أنشده قصيدة من شعره (I) : «قلت هذه القصيدة مهذبة الالفاظ والمعاني وألذ من نغمات المثلث والمثاني . ان مقطعا قلب ناب ، لا يلين ولو مضغ بدرس وناب ، ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج ولا يزال السمع به يقلق وينزعج وقد راودته أن يلتحم فأبى وحاولته يلتئم فبنا ، ...» وهكذا يجد القارئ رحلة العبدري ، في كل صفحة من صفحاتها بل في كل فقرة من فقراتها نقدا مركزا ينصب على الالفاظ كما ينصب على المعاني ، يتناول الكلمة والجملة والعبارة كما يتناول التركيب النحوي واللغوي والوزن الشعري لتمييز صحيحه من فاسده .

وباختصار ، فالعبدري في رحلته هذه كان شاعرا وأديبا ولغويا ونحويا اختلف عن ابن رشيد بعض الشيء في الاتجاه الفكري كما اختلف عن ابن بطوطة الذي لم يتعرض لهذا الجانب الا في ظروف خاصة وقليلة .

بعد هذا العرض الوجيز ، يحسن بنا أن نتساءل عن الاسباب التي جعلت مؤلفي الرحلة يبحثون في تنقلاتهم عن العلماء والسيوخ والفقهاء للاتصال بهم . ذكر بعضهم أنهم كانوا ينزعون هذه النزعة لانهم يرون في علماء المشرق أساتذة يجب الاخذ عنهم لانهم سبقوهم الى الميدان ونهلوا من المورد الاصيل(2) أما نحن ، وان كنا نرى في هذا الرأي حظا من الصحة ، فلا نجده كافيا لتبرير هذا الموقف وتعليقه اذ السبب في رأينا أعمق وأبعد مدى ، ذلك أن الغاية من كثرة الاتصالات والاحتكاكات الفردية والجماعية كانت تهدف الى نتائج تربوية تعود على الرحالة المغربي بتكوين شخصيته ، وتدعيم مركزه وتمتين ثقافته ، كما كانت ترمي الى ربط صلات مع أعلام في المشرق أو في غيره ، توسيعا للافق وتوثيقا للعلاقات الثقافية التي كانت في العصر الوسيط جارية بصفة فردية وتلقائية ، اذ العلم حسب تعبير أنصار هذه الاساليب التربوية يؤخذ من أفواه الرجال لا من الكتب ، ولا زالت هذه النظرية

(1) انظر الرحلة المغربية ص 127 .

(2) شعر المغرب الاسلامي بشغل هذه التبعية وبخطرها على شخصيته فأصبح ابتلاء من القرن الحادي عشر يتحرر منها . انظر مقدمة الاخيرة لابن بسام .

ساندة الى اليوم ، لاسيما في بعض مراحل التعليم حيث يعتبر الكتاب مصدرا ضرره أكثر من نفعه في بعض الاحيان ، وهى نفس النظرية التى آمن بها روسو (فى القرن الثامن عشر) الذى اعتبر الكتاب باعثا على الكسل والملل ودعا الى جعل الطفل بين أحضان الطبيعة ، يتعلم منها بواسطة الحواس وعن طريق الملاحظة المباشرة .

ومهما يكن فهذه الاساليب التربوية والتعليمية التى ظهرت فى الرحلات المعربية فى زمن بنى مرين تنطوى على فوائد جمة يعترف بها الآن علم التربية وعلم النفس الحديث . ولقد سبق لابن خلدون ان أعطى رأيه فى الموضوع حيث قال : «ان الرحلة فى طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعليم فالرحلة لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال» (2) ، فابن خلدون بكلامه هذا ما زاد على أن عبر عن الاتجاه المغربى فى ميدان التربية والتعليم وهو رأى سديد من الوجهة التربوية والتعليمية لا زال علماء العصر الحديث يعملون به حتى الآن .

وبما امتازت به الرحلة المغربية فى هذا العصر أيضا تضمنها لآليات شعرية من نظم المؤلف نفسه أو من انتاج غيره . وأول من برز فى هذا الميدان هو العبدى الذى أكثر من النظم فى رحلته فكان شاعرا مجيدا ، ذا قلم سيال كما يقال . فالشعر بالنسبة اليه يصدر عن طبع سليم وعن تذوق للفن الادبى بصفة عامة ، ولا غرابة فى ذلك ، فالرجل كما رأينا كان يتوفر على ثقافة أدبية ولغوية متينة ، جعلته قادرا على نظم القصائد الطوال فى مواضيع مختلفة ومتنوعة ، فالسهولة كانت تطبع انتاجه ، والمرونة والفرازة كانتا الصفتين الغالبتين على هذا الانتاج . فقد رأينا وهو يؤلف رحلته بتصرف فى اللغة والنحو والعروض والبيان تصرفا مطلقا اذ كانت هذه الوسائل أداة طيعة فى يده ، يسخرها متى شاء وحيث اراد ، فلا تكاد تقرأ صفحة أو فقرة من رحلته دون أن تعثر على بيت أو أبيات أو قصائد كاملة من بنات فكره . ينظمها نقدا أو معارضة أو تعقيا على انتاج الغير ؛ أو لاعطاء مثال فى موضوع معين ، وهكذا نجد فى رحلته ، فضلا عن كثرة أبيات قالها فى عدة مناسبات ، ثلاث قصائد طوال : الاولى مدح بها أبا يعقوب يوسف والثانية بعثها كوصية لابنه والثالثة وهى آخر ما نظم به الرحلة نفسها التى حرص على تدوينها شعرا كما دونها نثرا . فالأمثلة اذن كثيرة ومتنوعة فى رحلته ، ولا يمكن أن نورد منها الا نسبة قليلة خوفا من الاطالة والاطناب .

فمن القصيدة الاولى قوله فى مدح السلطان المرينى أبى يعقوب يوسف :

فمن مبلغ علياه عنى من نظمى رسالة مستعد شكاً ظلمة الظلم (2)

(1) المقدمة . ص 148 .

(2) الرحلة ص. 2

الى ان قال :

الى الملك السامى صعودا على الورى وليتهم فى الحرب والغيث فى السلم

ومن قوله بها الى ابنه :

اصغ سمعا اوصك يا بنى وصية والد بر حفى
جرى القدر المتاح لنا بيبين قضاء جاء من ملك على

ومن قصيدته التى ختم بها رحلته :

لسان حال ابلغ من بليغ وفى ذى الجهل أعنى من عيسى
مسحت الارض غربا ثم شرقا أسائل عن عواقب كل حى

واذا كانت رحلة العبدى مرصعة بالابيات الشعرية حافلة بالقصائد الطوال
حتى كادت تصبح ديوانا لصاحبها فان رحلة ابن رشيد تضمنت هى الاخرى أبياتا
كثيرة منها :

تغرب ولا تحفل بفرقة موطن فلولاً اغتراب المسك ما حل مفرقا
ولولا اغتراب ما حل فى تاج

ان ابن رشيد ضمن رحلته ابياتا كثيرة وان لم يكن يعنى بقرض الشعر كما
عنى به العبدى ، فقد عرفنا له قصيدة فى رثاء ابنه أوردها الاستاذ كنون فى كتابه
مشاهير رجالات المغرب ، يقول فى مطلعها :

شباب توى شابت عليه المخارق وغصن دوى تاقت اليه الحداثق

الى أن قال :

محمد ان الصبر فيك مصارم محمد ان الوجد فيك مواقف
محمد ان الصبر صبر وعلقم على أنه حلو المتابى سابق
فان جزعا فالله للعبد صابر وان جلدا فالله للوعد صادق
عليك سلام الله ما ان حن عاشق وما طلعت شمس وما ذر شارق(2)

الخ

(1) فابن رشيد كان اذن شاعرا .

(2) انظر المرجع المذكور ، ص .

أما بالنسبة لابن بطوطة فالامر واضح ، اذ أن ما عرفنا عنه أنه لم يقل شعرا الا بمناسبة اتصاله بملك الهند ويستنتج من رحلته أنه نظم قصيدة طويلة بهذه المناسبة غير أننا لم نجد في هذه الرحلة سوى الابيات التالية :

اليك أمير المومنين المبجلا	أتينا نجد السير نحوك في البلا
فجئت فحلا من علاك زائرا	ومغناك كهف الزيارة أهلا
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة	لكنت لأعلاها اماما مؤهلا
ولي حاجة من فضل جودك أرتجى	قضاها وقصد عند مجدك سهلا
أذكرها أم قد كفاني حياؤكم	فان حياكم ذكره كان أجمل
فجعل لمن وانا فحلك زائرا	قضى دينه ان الغريمة عجلا

والغالب كما يتضح من هذه الابيات ان ابن بطوطة رغم تكلفه وتصنعه مارس نظم الشعر قبل هذه المناسبة التي اضطرته الى التمسك بواسطة المدح . ولولا الحاجة الملحة والظروف المادية القاسية التي كان يتخبط فيها ، لما ظفرتنا من صاحبنا بهذه الابيات التي قالها تحت الضغط ، ضغط الديون التي ارتكبها واستعجله أصحابها . أيكون ابن بطوطة في هذه الابيات رغم قدرته على نظم الشعر يتحاشى خوفا من هذا الميدان ويتعالى عن الانتساب الى زمرة الشعراء كما فعل غيره في هذا العصر . وفي عصر آخر ؟ ذلك ما لا نستطيع الاجابة عنه الآن ، لان الوثائق التي بين أيدينا لا تساعدنا على القطع ما دمنا لم نلم بجميع ما يتعلق بحياة الرجل وبظروف نشأته . كل ما أمكننا الوصول اليه لحد الآن هو أن الرحالة المغربي يجيد الشعر رغم كون رحلته لم تتضمن من انتاجه في هذا الفن الا تلك الابيات التي أوردناها آنفا .

وهكذا يتضح لنا أن الرحالين المغاربة في هذا العصر كانوا الى جانب ثقافتهم الدينية واللغوية يتوفرون على ثقافة أدبية ظهرت آثارها جلية في رحلاتهم ، فكانوا يمزجون النثر بالشعر ، وتلك ظاهره أدبية ظهرت في الشرق العربي قبل هذا العصر منذ القرن الثالث والرابع قبل أن تستفحل في القرون التالية وتصبح أمرا مقصودا يلتزمه الكتاب للترصيع والتنويع وتبيين قدرتهم على الجمع بين الفنون الأخرى . ونتيجة لذلك ، تضمنت هذه الرحلات المغربية كما رأينا ، لاسيما رحلة العبدري ، أبياتا وقصائد طويلة في بعض الأحيان .

والنتيجة التي نخرج بها من هذا البحث الذي خصصناه لفن الرحلة في المغرب هو أن هذا الفن اكتسب شخصية قوية قائمة على أسس متينة مشتركة وامتازت بخصائص معينة نجدها في جميع الرحلات التي ألفت في عصر بني مرين ، فالرحالة المغاربة كما رأينا اتحدوا في كثير من هذه الخصائص واتجهوا في رحلاتهم انجاسا يكاد يكون واحدا . أما الفروق التي استنتجناها من المقارنة التي عقدناها أحيانا بينهم فهي فروق كمية في أغلب الظروف ، راجعة الى رغبة هذا أو ذلك في

التركيز والاهتمام ببعض النواحي التي قد تستأثر بعناية الرحالة وتظهره متفونا على صاحبه في هذا الجانب أو ذلك . فالميدان واحد رغم تعدد جوانبه وتشعبها ، والخصائص مشتركة لا تنفرد بها رحلة دون أخرى . كل ما هنالك أن رحلة العبدري غلبت عليها النزعة الادبية ورحلة ابن رشيد طغت عليها النزعة العلمية الدينية . أما رحلة ابن بطوطة فقد امتازت بطابعها الاجتماعي وهكذا نصل الى نتيجة وهي أنه اذا اجتمعت هذه الرحلات كونت وحدة كاملة متكاملة الجوانب متناسقة الاطراف متماسكة الاجزاء تشبه دائرة معارف أو موسوعة حسب الاصطلاح الحديث .

وهكذا تخلف لنا البيئة المغربية في عصر بني مرين تحفة نفيسة وأثرا ادبيا خالدا يمثل في ادب هذه الرحلات القيمة التي اغنت التراث الفكري المغربي واكسبته شهرة واسعة بفضل جهود هؤلاء الرحالين المغاربة وعبقريتهم . وناهيك بابن بطوطة الذي أصبح ذكره تردده السنة الطلبة والمثقفين وتحدث عنه الاوساط الشعبية في المغرب وخارج المغرب .

نظرا لما احتوت عليه رحلته من فوائد جغرافية واجتماعية تتصل بخياة المجتمعات البشرية بثقافتهم بأخلاقهم ، بعاداتهم ، بتقاليدهم بنماذج حضارتهم الخ... تلك المعلومات التي لم يكن من الممكن الحصول عليها في ذلك العصر لولا هؤلاء الرحالة الذين أفادوا الطالب والاستاذ والعالم الجغرافي والاديب وعالم الاجتماع والمؤرخ والفقيه .

الباب الرابع

مظاهر أخرى للحياة الادبية

- (1) العلوم الدينية
- (2) العلوم العربية
- (3) العلوم البحتة
- (4) الرياضيات
- (5) العلوم الطبيعية

العلوم الدينية

جرت العادة عند مؤرخي الآداب العربية أن يقسموا العلوم الى قسمين قسم يتضمن العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وقسم آخر يشتمل على ما سوى العلوم الدينية من طب وفلسفة ورياضيات وكيمياء وفيزياء وتنجيم ، وباختصار قسموا العلوم الى عقلية وعقلية بمعنى أن النوع الاول يكتفى فيه المسلم باستيعاب ما وضع في الميدان الديني والالمام بما خلفه الاجداد الواضعون لهذه العلوم للحفاظ عليها والدفاع عنها في كل مناسبة وكل ظروف . أما النوع الثاني فهو يتطلب مجهودا فكريا آخر نظرا لاعتماده على العقل واهتمامه بالبحث والنقاش والاختراع والاستكشاف .

وواضح من هذا التقسيم ، كما يستفاد من موقف بعض مؤرخي الاسلام (I) أن العالم فيما يرجع للعلوم الدينية يكتفى ، كما أشرنا الى ذلك ، بمعرفة ووعي ما تركه السلف مقصرا مجهوداته الفكرية ولادارية على فهم هذا التراث الديني وفحصه وتتبع مراحل وضعه والتأكد من سلامة أسسه .

ومهما يكن من أمر فالعلوم الدينية في الشرق العربي خبطت منذ الفتح الاسلامي ، خطوات جريئة وأرست قواعدا وتبثت أركانها ، وحافظت على كيانها عبر العصور والظروف العصبية التي اجتازتها فخرجت منها ظافرة منتصرة ، معززة الجانِب وقوية الشخصية ، فلم يكد يشرف القرن الثالث الهجري على النهاية حتى كانت هذه العلوم قد فضجت ، واكتسبت شخصيتها واستقلالها ، وأدركت مكانتها المنيرة وتحصنت بحصن حصين . لم يكد ينتهي هذا القرن حتى كان الطبري قد أنجز مشروعه الضخم في التفسير وحتى كان مالك قد أتم مؤلفه الضخم في الحديث كما ظهرت الكتب الصحاح التي ظلت الى اليوم المرجع الاساسي في هذا الميدان الاخير . وفي القرن الثالث تم كذلك تأسيس المذاهب الفقهية الاربعة التي انفردت بالسلطان وبالزعامة . وسيطرت على العالم ، وتنازعت اجزائه ، رغم ظهور مذاهب أخرى سرعان ما خفت صوتها ، واندثرت معالمها ، وتركزت الميدان فسينحى للمذاهب الاخرى كي تكتسحه وتظل مهيمنة عليه الى اليوم .

ومن هنا يتضح أن العلوم الدينية الاسلامية اُتمت بناءها وشيدت صرحها بسرعة أثارت اعجاب كثير من مؤرخي الديانات الاخرى ومؤرخي الاسلام أنفسهم . ان علماء الاسلام لم ينتظروا طويلا في هذا الميدان . ولم يضيعوا وقتهم في الجدل

[1] ابن خلدون نفسه في المقدمة حيث ثار بهذا التقسيم للعلوم انظر الفصل الخاص بالعلوم .

والنقاش ، فبادروا الى رسم الطريق بصفة نهائية ، وكأنهم خلفوا على مستقبل هذه العلوم فأنجزوا بتلك السرعة ما أنجزوه من أسس ومشاريع ، وكأنهم أرادوا أن يغلقوا الابواب كي لا تتسرب اليها يد عابثة ..

أما القرون التالية ، أى ما بين الثالث والثامن هجرى فلم تزد هذه العلوم الا تباثا واستقرارا ومناعة رغم محاولات المعتزلة والصوفية الجريئة ، ورغم نداءات ابن حزم وابن تيمية المتكررة للرجوع الى الاصل وفتح باب الاجتهاد ، رغم تلك المواقف الجريئة ، ورغم تلك المجهودات الجبارة التى قام بها بعض الفلاسفة بصفة أخص ، بقيت العلوم الدينية محافظة على كيانها وعلى اطارها الاساسى ، ممتنعة من كل تجديد يرمى الى العنق وقلب الاوضاع .

ذلك ، بصفة اجمالية ، هو الوضع الذى ساد الشرق العربى فيما يرجع للعلوم الدينية . فماذا كانت عليه الحالة بالنسبة للمغرب ؟ ان المغرب الاقصى جزء لا يتجزأ من العالم العربى ، وبهذه الصفة خضع لما خضعت له باقى الاجزاء المكونة لهذا العالم ، ليس بخاف ما كانت عليه الاقطار العربية ، لا سيما فى انقرون الوسطى ، من روابط دينية متينة وعلاقات ثقافية وحضارية جمعت اواصر المسلمين ووحدت صفوفها سواء كانوا فى الشرق أو فى الغرب ، فكان طبيعيا أن يتأثر المغرب بما كان يجرى فى الشرق ، بل كان حتميا ان يتأثر به نظرا لنفوذه المعنوى وزعامته الدينية وسلطته الروحية التى ظل المغرب يستمد منها تعاليمه وقيمه الى عصور متأخرة . ان الشرق العربى هو مهبط الوحي والقبلة التى كان المغاربة يولون وجوههم شطرها فى الحبل والترحال لياخذوا منها قوتهم ويقتبسوا منها طريق الرشيد والمعرفة الصحيحة كى يقوموا سلوكهم وينهجوا الطريق المستقيم التى رسمها لهم أساتذتهم فى العلوم الدينية على الخصوص . ألم يكثروا من الرحلة الى هذا الشرق رغم المشاق والخسائر التى كانوا يتكبدونها ، لالاخذ عن هؤلاء الاساتذة والرجوع الى بلادهم وهم مزودون باقوى سلاح .

الا ان ما حدث فى الشرق العربى لم يحدث مثله فى المغرب الاقصى بالنسبة للعلوم الدينية . لم يعرف المغرب تلك الصراعات العنيفة وتلك الخلافات الحادة التى كانت تقوم بين علماء الدين والمعتزلة والفلاسفة على الخصوص ، والتى عرضت العالم العربى ، غير ما مرة ، الى أزمات سياسية خطيرة ، لم يعرف المغرب من ذلك أى شئ تقريبا بالنسبة لما كانت عليه الحالة فى الشرق فكانت النتيجة ان قويت هذه العلوم وسيطرت على ما سواها ، كما أشرنا الى ذلك فى فصل سابق ، نظرا لخلو الميدان من تلك النزاعات العنيفة وتلك المعارك الطاحنة التى كانت تتنازع الشرق العربى بوجه أخص . وفى مقدمة هذه العلوم نرى مذهب مالك فى الفقه يأخذ المكانة الاولى ، بل ينفرد بالميدان ويهيمن على البيئة المغربية منذ قيام دولة المرابطين،

ورغم الإصلاح الذى قام به بنو عبد المومن والاجراءات العنيفة التى أخذوها للقضاء على مذهب مالك وعلى أنصاره فان الحالة فى جوهرها بقيت كما كانت عليه الى أن استولى بنو مرين على الامر فازدادت عمقا وتركزت فى جميع القطر المغربى على الصعيد الرسمى وعلى الصعيد الشعبى .

فانتصر المذهب المالكى وانتصر اصحابه من جديد ، ولم يكن غريبا ان تبطل المجهودات الجبارة والعناية الخاصة لوقيته ولرعايته ، وللالمام باصوله وفروعه ، فكان الامر كذلك فى الواقع اذ اصبحت الدولة والايوساط العلمية وطبقات الشعب المختلفة لا تفكر فى سواء ، ولا تقتبس معلوماتها الدينية والدينية الا منه ، باذلة أقصى الجهود لتفهم نصوصه واحكامه ، مطبقة بالحرف ما جاء فى أصوله وفروعه . فكثرت عدد الفقهاء وضخم انتاجهم حتى اصبحت من العسير احصاؤهم بالضبط كما اصبحت مؤلفاتهم تقدر بالكميات الوفرة التى لا يمكن الاتيان على ذكرها وجمعها فى قائمة محصورة . لذلك نرى من المناسب هنا ان نذكر بعض الشخصيات المغربية البارزة فى عصر بنى مرين قصد اعطاء فكرة للقارىء عما ذهبنا اليه .

وقبل ذلك نلاحظ اولا هنا ان التخصص بمعناه الحديث لم يكن معروفا فى ذلك العصر اذ كنت تجد الفقيه أدبيا ، والشاعر فيلسوفا والصوفى عالما رياضيا وفقهيا وطبيبا فى نفس الوقت ، كما كنت ترى بعض الشخصيات التى سنتعرض لها فيما بعد تلم بعلوم كثيرة وتتقن فنونا مختلفة ، مما يثير الاعجاب اليوم ، ويدعش علماء النفس والتربية خصوصا المتطرفين فى الدفاع عن ميدان التخصص فى سن مبكرة ، الا أن المهم بالنسبة لموضوعنا هنا هو أن الثقافة الاسلامية فى عصر بنى مرين اصبحت تعتمد على الفقه المالكى كأساس للمعرفة واصبحت المناهج تنحى عليه كمادة رئيسية لذلك كان الطبيب فقيها والشاعر فقيها والفيلسوف والكاتب والحسابى وغيرهم كانوا فقهاء قبل كل شيء . كذلك كان ابن المرحل والعبدري وابن رشيد وابن بطوطة وابن البناء (I) وغيرهم من اعلام هذا العصر . يكفى أن نشير الى أن هذا الاخير ، رغم اشتهاره بالعلوم الرياضية وبروزه فيها ، ترك لنا مؤلفات فى التفسير وفى الحديث وفى الفقه ، نذكر منها تفسير الباء من البسملة ، الجزء الصغير على سورتي انا أعطيناك الكوثر ، والعصر ان الانسان لفى خسر . حاشية على كشف الزمخشري ، الاقتضاب والتقريب للطالب اللبيب فى أصول الدين ، المقالة فى الرد على مسائل مختلفة فقهية ونحوية ، كتاب تسمية الحروف وقضية وجودها فى اوائل صور القرآن ، رسالة فى اسماء الله

(I) انظر ترجمة هذه الشخصيات فى الباب الثانى .

الحسنى ، هذه كلها مؤلفات تعالج مشاكل دينية من تفسير وحديث وفقه ، وهى ان دلت على شىء فانما تدل على ان صاحبها كان يتوفر على ثقافة دينية وعلى تضلع كبير فى الفقه واصوله بالاضافة الى تبحره فى علوم اخرى سنرى فى موضع آخر ما هو نوعها .

الا ان علماء آخرين ، فضلا عن مشاركتهم فى علوم مختلفة ، برزوا فى ميدان الفقه ، واشتهروا به وصالوا وجالوا فى ميدانه ، فكانوا أساتذة عصرهم وأئمة لمن جاء من بعدهم ، نذكر منهم على سبيل المثال العلامة الفقيه عبد الرحمان بن عفان الجزولى المتوفى سنة 741هـ بفاس اتفق مترجموه على أنه كان ذا منزلة رفيعة فى الاوساط العلمية بفاس وشهرة واسعة فى ميدان الفقه . ذكر صاحب الجذوة (1) انه كان اعلم الناس بمذهب مالك وان مجلسه كان يضم اكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر المدونة ، كما حكى ان السلطان ابا الحسن المرىنى نزل عن عرشه عند ما لقيه ، اجلاله وتعظيما لمقامه ، ومنهم الفقيه موسى بن محمد بن المعطى العبدوسى المتوفى سنة 776هـ ، وحكى عنه مترجموه أنه كان من أئمة الفقهاء فى عصر بنى مرين ، ويكفى دليلا على ذلك ان عددا كبيرا من الفقهاء والمدرسين وحفاظ المدونة تتلمذوا له رغم مكانتهم العلمية وثقافتهم الدينية العالية . ومنهم القباب أبو العباس احمد ابن عبد الرحمان (2) المشهور بحفظه لمذهب مالك وتأثيره المباشر على فقهاء عصره . لقد كان هو الآخر اماما من أئمة الفقه المالكى فى عصر بنى مرين كما بذل نشاطا فى ميدان البحث والنظر . وقد توفى بفاس سنة 779هـ . ومنهم محمد بن الفتوح التلمسانى المتوفى بمكناسة الزيتون سنة 818هـ ، وهو فى نظر كثير من المؤرخين أول من ادخل مختصر خليل ابن اسحاق المالكى الى فاس ، عاصمة المغرب العلمية ، وقلبها النابض ، ومهد حضارتها وازدهارها العمرانى فى هذا العصر الذى مؤرخ له . كما نبغ فى هذا العهد عالم آخر من اعلام الفقه المالكى ، اعنى به ابا الحسين الصغير الزرويلى المتوفى سنة 719هـ ذكر ابن القاضى (3) انه كان يفتح فى مجلسه ما ينيف على الثمانين ديوانا فيعرضها حفظا عن ظهر قلبه ، وقد ولى القضاء بتازة ثم بفاس ، ومن اعلام هذا العصر فى الفقه كذلك محمد بن سليمان الشطى الفاسى شيخ الفتيا وامام المذهب اختاره أبو الحسن سفيرا له بتونس سنة 746هـ لينخطب الاميرة عزونة الحفصية ثم قفل راجعا .

(1) ابن القاضى ، جلدو الاقتباس (المطبعة الحجرية بفاس) صفحة 251 .

(2) انظر ترجمته المفصلة فى الباب الثانى من هذا البحث .

(3) الجلدو (المطبعة الحجرية) صفحة 278 .

لكنه غرق في البحر سنة 750هـ . ولا يجب أن ننسى هنا العلامة الشهير ابن الشاط اباالقاسم بن عبد الله بن محمد الانصارى السبتي ، كان من ائمة مالك واستاذ عصره ، تتلمذ له عدد كبير من الفقهاء والقضاة والمدرسين . ولو بسببة سنة 643هـ وتوفى بها سنة 723هـ ، أما ابن غازى المكناسى فشهرته في الفقه والاصول لا تخفى على ذي اطلاع على الحركة الفكرية في هذا العصر . هو أبو عبد الله محمد بن احمد ابن علي بن غازى نشأ بمكناس ثم رحل الى فاس واستوطنها الى أن توفى بها سنة 918هـ كان له امام كبير بالعلوم اللسانية والتفسير والحديث الى جانب شهرته الواسعة وتبحره في الفقه وأصوله . كان من الفقهاء البارزين في عصر بني مرين . اما الكتب التي ظهرت في هذا العصر والتي تعالج مسائل دينية وفقهية فهي كثيرة كما ذكرنا . لذلك نكتفي ببعضها فيما يلي :

مؤلفات ابن البناء المراكشي : تفسير سورة الكوثر : تفسير سورة العصر ، حاشية على الكشف ، تفسير الباء في البسملة ، المتشابه اللفظ في القرآن ، كتاب تسمية الحروف وخاصة وجودها في اوائل السور : الاقتضاء والتقريب للطالب اللبيب في اصول الدين رسالة في اسماء الله الحسنى . منتهى السهل في علم الاصول مؤلفات ابن رشيد ، المحاكمة بين البخارى ومسلم : السنن الايبين في السند المعنعن ، ترجمان التراجع في ابدال وجه مناسبة تراجم صحيح البخارى ، مؤلفات ابن غازى العثماني المكناسي ، التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد ، شفاء العليل بشرح خليل . تكميل التقييد وتحليل التعقيد ، كليات في الفقه المالكي ، نظم على الطرق العشر . ارشاد اللبيب الى مقاصد الحبيب ، اسعاف السائل ، امتاع ذوى الاستحقاق ببعض زوائل الرادى وفوائد أبى اسحاق المرادى . مؤلفات مالك ابن المرحل : التوشيات النبوية : الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة . العشریات الزهدية : ارجوزته المسماة بسلك النخل : نظم كتاب التيسير ارجوزة عارض بها الشاطبية : قصيدة الفرائض المسماة بالواضحة : نظم غريب القرآن لابن عزيز شرح حرز الامانى في القراءات والبارع في قراءة نافع ابن جروم ، تقييد على المدونة ، شرح الرسالة ، شرح التهذيب لابن أبى يحيى التسولى المتوفى سنة 749 ، الدر النثير ، تقييد على المدونة ، تقييد على الرسالة تقييد على التهذيب لابی الحسن الصغير ، تقييد على المدونة ، تقييد على الرسالة ، تقييد على التهذيب لابی عمران العبدوسى المتوفى سنة 776هـ ، شرح مختصر خليل للقورى المتوفى سنة 872هـ . تعليق على المدونة للسطى المتوفى سنة 750هـ (I) .

(I) ارجع الى التبوغ الغربى ج 1 ص 181 - 190 للتوسع في الموضوع .

هذا بعض من كل جزء من مجموعة الكتب التي ألفت في هذا العصر في الميدان الديني بصفة عامة وهي ، كما يلاحظ القارئ تعطينا فكرة واضحة عن نوع النشاط الفكري الذي بذله فقهاء هذا العصر . انه نشاط كمي قبل أن يكون كيفيا بمعنى ان المجهودات الجبارة التي بذلوها كانت كلها تقريبا منصرفة نحو الجمع والحصر . والتعليق والشرح ، والتفسير والتقييد على الهوامش والاختصار والمقارنة واختصار المختصرات مجهودات هامشية قلما تعالج الموضوع في جوهره لتخرج بنظريات جديدة أو إصلاح جذري يتقدم به البحث النظري خطوة الى الامام ولعل القارئ لاحظ من خلال الكتب التي سردناها أنها تدور كلها تقريبا حول مدونة سحنون ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وكتاب ابن يونس وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن الحاجب في الفقه كما كانت تدور في التفسير حول الزمخشري والطبري وفي ميدان الحديث لم تكن تتجاوز الموطأ وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم وسنن النسائي وباقي الكتب الاخرى المعتمدة في الحديث لم تكن تتجاوز هذه المراجع الاساسية التي ظلت المحور الرئيسي الذي تدور في فلكه . نعم لقد بذل هؤلاء الفقهاء جهودا لا تنكر في الجمع والتأليف والشرح والتحليل فانتجوا مؤلفات ضخمة جديرة بالاستحقاق لكن يلاحظ عليهم انهم لم يستطيعوا تحطيم القيود والاعلال والخروج بنظريات جديدة من شأنها أن تخلق تيارا جديدا وتطويرا للمفاهيم والاحكام الفقهية لجعلها ملائمة للظروف التي كانت تجتازها البيئة في عصر بني مرين ، لم يستطيعوا التحرر من القيود والتقدم بالبحث كما فعل ابن حزم وابن تيمية ، وبذلك بقيت مجهوداتهم رغم قيمتها الادبية محدودة الافق راجعة الى الوراء في معظمها ، فكانت النتيجة ان ساعدوا على الاستقرار ثم الخمود الذي أصاب العالم العربي كله في هذا العصر قبل أن يصاب بالانحلال في ميدان العلوم الدينية وفي غيره من الميادين الاخرى التي تمثل حضارته ، فماذا فعل هؤلاء الفقهاء اذ تركنا جانبنا تلك المجهودات التي بذلوها في الجمع والتأليف والشرح والتحليل ؟ لم يقوموا بشيء يذكر اذا استثنينا نظرية العدوسي التي تعتبر جريئة لاسيما في عصر بني مرين حيث الابواب مغلقة وحيث «الاجتهاد مستحيل» : ويتعلق الامر هنا بعبد الله محمد بن موسى بن معطي العبدوسي الخطيب بجاهم القرويين ذكر عنه ابن القاضي (I) انه كان اماما في نصيح الامة وانه امتاز كثيرا من البدع الكائنة بالمغرب وأقام الحدود والحقوق ، واذ كانت هذه النظرية البريئة لم يكتب لها النجاح ولم تخلق تيارا فكريا أو عمليا فان صاحبها يعطينا فكرة عن بعض المحاولات التجديدية التي كانت تظهر في بعض الاحيان لتحطم القيود وتحرير الوضع من سيطرة سلطة الفقهاء وجمودهم . «خصوصا اذا تصورنا الوضع القائم في عصر بني مرين من الناحية

الدينية واستطعنا تقدير خطورة الموقف بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يحاولون التجديد في بعض الظروف» .

ومع ذلك فالأوضاع في جوهرها بقيت هي هي ، مستقرة ، جامدة لم تات بشيء جديد بل كانت تحاول الرجوع الى الوراء والتشبث بالقديم والاعتصام به كي لا تتزحزح أركانها وتضيع آثاره .

فمن المسؤول اذن عن هذا الجمود ؟

ليس من السهل هنا تحليل جميع الاسباب التي كانت وراء هذا الجمود الذي أصاب العلوم الدينية في الصميم . ومع ذلك فمن الممكن اذا أردنا الاختصار، ان نرجعها الى عوامل رئيسية نحصرها في النقاط الرئيسية التالية :

- (1) بنو مرين
- (2) الوضع الاقتصادي
- (3) الوضع السياسي
- (4) سلطة الفقهاء
- (5) المذهب المالكي نفسه
- (6) طرق التربية والتعليم

ان بنى مرين بوصفهم ممثلي السلطة المرينية والروحية شجعوا العلوم الدينية تشجيعا خاصا الا ان تشجيعهم كان من حيث لا يشعرون ، عاملا من عوامل الاستقرار والجمود الذي طبع هذه العلوم في عصرهم . فما أن استولوا على أرض الدولة حتى أصبحوا ينادون ، بكل قواهم ، بالرجوع الى مذهب مالك . والعمل على تقويته وصيائمه ، وتركيز أسسه في جميع القطر المغربي انتقاما من بنى عبد المومن المنهارين ، وأصحاب الدعوة الجديدة ، والنزعة الخطيرة التي كانت وبالا على فقهاء مالك في ذلك العصر حيث كانت كتبهم تحمل آكادسا لتحرق على مرأى ومسمع منهم ومن سائر طبقات الشعب ، شجعوا بأموالهم وبتفوذهم الطلبة والعلماء على نهج طريق واحد واتباع خطة واحدة وهي الاكتفاء بما سبق أن قرره فقهاء مالك وما سبق أن فرعه في عهد المرابطين . كان باستطاعتهم ، نظرا لما كانوا يتوفرون عليه من سلطة مادية ومعنوية أن يحولوا الاتجاه ويغيروا الأوضاع ويصرفوا أنظار الفقهاء الى البحث والنظر للقيام بمحاولات جديدة أو أى اصلاح ، كما فعل بنو عبد المومن لكنهم لم يفعلوا ، بل حددوا الافق ، وضغطوا على التفكير فوجهوه توجيهها «رجعيا»

فصرفت الهمم والطاقت العقلية في المجمع والحشر والتكديس والبحث عن القديم ، وهكذا كانت الوظائف لا تسند الا لمن تأكدوا من سلامة عقيدته ، وصفاء اتجاهه ولا أدل على ذلك مما حكاه ابن مرزوق في مسنده عن أبي الحسن المريني الذي كان ينفر من كتاب أبي العباس احمد بن شعيب الجزنائي ، روى ابن مرزوق أن اسلطان المريني كان يميل عن هذا الكتاب لسبب يجهله ، رغم غزارة علم صاحبه ومشاركته في فنون مختلفة كالطب والكتابة والادب وغير ذلك - فلماذا كان أبو الحسن لا يعطف عليه كسائر الكتاب ؟ يجيب ابن مرزوق «انه لم يعرف سبب هذا النفور وأنه ما عرف عن أبي العباس شيئا يخل بالعقيدة وأنه تحدث معه وجربه في أمور كثيرة فلم يلاحظ فيه ما يتنافى والاتجاه المستقيم» (I) «والاتجاه المستقيم» في نظر ابن مرزوق هو تطبيق أحكام مالك بالحرف والنص ، وإذا كان ابن مرزوق يحار في تحليل هذا النفور ، فالسبب في نظرنا راجع الى ان الجزنائي كان يشتغل ، كما سنرى فيما بعد ، بعلوم أخرى ربما كانت تتعارض مع ما قرره الفقهاء .

أما العامل الثاني الذي شجع هذا الجمود هو الفقهاء انفسهم وتعاونهم مع رجال الدولة من ملوك وعمال وغيرهم ، فالفقهاء ، كما أشرنا الى ذلك ، استرجعوا قوتهم التي أصبحت في عصر بني مرين أقوى مما كانت عليه في أي عصر آخر ، فاستبدوا بالرأى العام ، وسيطروا هم الآخرون على الاتجاه السائد في العقيدة وفي الأحكام الشرعية ، ونعتوا كل من خالفهم في التفكير وفي العقيدة وفي السلوك العملي ، بالسلوك القبيح ، ورموه بأوصاف من شأنها أن تعرضه لانتقادات كثيرة ، فلنتذكر بهذا الصدد ما وقع لابن الخطيب في المغرب الأقصى حيث هدر دمه وأحرقت جثته ، لا لذنب ارتكبه ، وإنما كان ذلك بإيعاز من الفقهاء الذين رأوا في شخصه خطرا على مصالحهم ، قلفقوا ، تحقيقا لغايتهم ، وانتقاما منه ، أقاويل ، وحبكوا المؤامرات ، واتهموه ، باسم الدين ، في عقيدته حتى أصيب بما أصيب به في العاصمة العلمية المغربية في عصر بني مرين على مرأى ومسمع من الملأ ، ان سلطتهم ، بعيدة عن النقد والمناقشة ، معصومة من الخطأ والعيوب ، فكان الفقيه إذا أفتى أو تدخل في قضية ما سمع وأطيع ونفذ أمره في الحين ، بدون مراجعة واستثناء . فلنتذكر هنا أيضا ما وقع بين القاضي أبي الحسين الصغير والوزير ابن يعقوب الوطاسي وما دار بينهما من خصومات عنيفة أدت الى تدخل السلطان نفسه للبت في الامر ، فما كان من هذا الاخير إلا أن انتصر للقاضي الفقيه ضد وزيره الذي أصبح معزولا منذ ذلك الحين ولنفس السبب أيضا أصبح في استطاعة الفقهاء أن يثوروا حتى على الملوك أنفسهم نظرا لما كانوا يتمتعون به من نفوذ معنوي ومن سلطة لدى الشعب . يكفي ، كمثال آخر ، أن نشير هنا الى

(I) راجع المسند الصحيح الحسن مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ورقة 65 ، انظر أيضا بحثا للفي بروفانسال في مجلة هيسبريس سنة 1925 ج 5 ص 58 .

المؤامرة التي حبكها الفقيه عبد العزيز الورياغلي ضد السلطان عبد الحق المريني الذي فقد عرشه اثر هذه المؤامرة التي دبرت بايعاز من فقهاءه .

ونتيجة لما سبق لم تكن تسمح في أيامهم ، كما يحدث في الشرق العربي ، لا خلافات مذهبية ولا صراعات عقدية ولا لنفي معارضة فكرية الا في القليل النادر . فبقوا وحدهم في الميدان فارضين سلطتهم على غيرهم ، سالكين سياسة ثقافية دكتاتورية ان صح التعبير .

أضف الى ذلك أن الحالة السياسية بالبلاد لم تكن من شأنها أن تساعد على خلق جو يناسب التفكير الحر ، ويشجع باب الاجتهاد والاعتماد على العقل . ان الحروب والاضطرابات والفتن الداخلية والخارجية لم تكن قط عاملا مشجعا للحركة الثقافية بصفة عامة وللتفكير الحر بصفة خاصة . لقد سبق أن رأينا في الباب الاول من هذا البحث ما كانت تجتازه البيئة المغربية في هذا العصر من أزمات سياسية خطيرة وأحداث انقلابية كثيرا ما عرضت البلاد ، لاسيما في البداية وبعد انقضاء عهد أبي عنان ، لخطر العواقب وأسوأ النتائج ، لقد رأينا ما كانت عليه هذه البيئة من صراع حاد بين بنى مرين وبين بنى عبد الواد بالجزائر من جهة وبين قبائل عبد المومن من جهة أخرى ، أما الحرب في الاندلس فكانت تكون مستمرة ومهددة ، فالدولة ورجالها كانوا دائما في شغل شاغل ، وفي استعداد دائم لمواجهة الحروب والفتن والاضطرابات الداخلية في السهول والجبال ، حتى العلماء والفقهاء أنفسهم كانوا يشاركون الجنود ويصحبونهم هنا وهناك ، ألم يكن أبو الحسن يصحب معه عددا كبيرا من هؤلاء الفقهاء في كثير من تنقلاته وتحركاته العسكرية حتى ان عددا لا يقل عن اربعمئة ذهب ضحية هذه التحركات العسكرية وغرق في البحر (I) وغنى عن البيان أن جو عسكريا مثل هذا لا يساعد على تحرير الفكر وعلى راحة البال اللازمة لكل نشاط ثقافي . فلم تكن من مصلحة الدولة أن ينشغل خدامها ورجالها بأمور أخرى غير الوضع الراهن والاستعداد لحالة الطوارئ ، ولم يكن يهمها الا أن تبقى ما كان على ما كان كما يقال .

وأهم من ذلك ، وكنتيجة لهذه الحالة السياسية المضطربة اصبح المغرب يعيش من الناحية الرسمية في عزلة شبه تامة عن الشرق الذي كان يستمد منه كثيرا من قيمه ومثله ، اصبح يعيش وحده بعد ان كانت صلاته وثيقة مع الشرق ، نعم لقد وقع الانفصال منذ انسحاب الفاطميين من المغرب : لكن العلاقات المشرقية المغربية ازدادت فتورا وضعفا بحيث أصبحت مقتصرة على علاقات فردية تتمثل

(I) ابن القاضى الجذرة (المطبعة الحجرية بفاس بدون تاريخ) صفحة 248 .

فى بعض الاشخاص المغاربة الذين كانوا يسافرون بقصد الحج او يقصد الاخنة عن العلماء ، وفى بعض المشاركة الذين كانوا يفدون على الاندلس او المغرب لاسباب لا مجال لتفصيلها هنا ، ويقطع النظر عن هذه الصلات الفردية لم يبق للمغرب اى اتصال على بالشرق ، والا ، فكيف يمكن ان تبقى المواصلات مستمرة والمغرب يجتاز آنذاك ظروف عصبية من أقصاء الى أقصاء وحتى اصبح السافر القاصد بيت الله الحرام لا يأمن على نفسه ولا على متاعه وهو لم يبعد عن فاس الا بمسافة قصيرة (I) . فالطرق اذن كانت مخيفة والاهوال محيطة بالسافر اينما ولى وجهه وارتحل الا فى أماكن قليلة يجد فيها الراحة والامن الضرورى لوقاية نفسه من شر العابثين وظلم الفاسدين واجرام قطاع الطرق . ولذلك وقع بالمغرب الانكماش ، وحل به الانطواء الذى اصابه فى ثقافته وفى اقتصاده ، فكانت النتيجة أيضا هى الجمود والركود فى ميدان العلم والمعرفة بصفة عامة وفى ميدان العلوم الدينية بصفة خاصة .

ولو بقى المغرب على اتصال وثيق مع الشرق العربى لا استفاد من تلك الصراعات العنيفة وتلك المعارك الطاحنة التى كانت رجاها تدور هناك بين الفقهاء وبين المعتزلة والفلاسفة ، ولو قدر له ذلك لا استفاد ايضا من الاحتكاك المباشر الذى كان قائما بين العرب وبين الاجانب ممن يتوفرون على ثقافات مختلفة نظرا لما للاحتكاك بين عناصر مختلفة من آثار ايجابية على الفكر والعاطفة اذ بفضل يقبع الجدل والنظر والتفكير ، ووردود فعلية من الطرفين تعود على البحث والصادات الذهنية بفوائد جمة ، لو وقع ذلك لغير المغرب من وجهة نظره وتطور فكره وانطلق من عقائه الى آفاق بعيدة ربما كانت السبب فى فتح أبواب جديدة امام الفكر الدينى .

اما الحالة الاقتصادية فكانت هى الاخرى تشكل عاملا أساسيا فى هذا الركود الذى تميزت به العلوم الدينية فى عصر بنى مرين . ان الازدهار الاقتصادى يبعث على التفاؤل ويخلق النشاط للبحث العلمى ، لكن الحالة فى مجملها لم تكن تبعث على الارتياح والاطمئنان النفسى والهدوء الفكرى نظرا لهيمنة بعض الاشخاص على ثروات الشعب وعلى خيراتهم ونظرا لما كان ينتج عن نظام الاقطاع وتعالى مختلفة السائدة آنذاك من تقير وتجويع بالنسبة للطبقات الشعبية ، لذلك لا تلمس الازدهار الثقافى الا حيث الازدهار العمرانى والاقتصادى . ان المراكز الثقافية التى اشتهرت على عهد بنى مرين كانت فى اغلبها مراكز تتوفر على امكانيات اقتصادية كافية (اكبر حجة عاصمتهم العلمية ومهد حضارتهم) فالمعامل الاقتصادية مرتبط ارتباطا وثيقا بالعامل الثقافى:

I، انظر رحلة المبدى مخطوط الخزائن العامة بالرباط حرف د 55 صفحة 14 .

ان معظم شخصيات المغرب وكبار رجاله المثقفين كلهم نبغوا في فاس أو نشأوا فيها أو وردوا عليها من أقطار أخرى نظرا لما كانت تتوفر عليه هذه المدينة من فوائد مادية ومعنوية تجلب هذه الشخصيات وتقربها . وإذا استثنينا فاسا وبعض المدن الرئيسية لم نجد سوى شغف العيش ان لم نقل الجوع والبؤس والفقر المدقع الذي يحول دون نمو الفكر وازدهاره . ان المادة تضغط على التفكير دينيا كان أم فلسفيا وتوجهه توجيهها معينا فتحتكره وتجعله أداة طيعة في يد أصحاب الثروة الذين كانوا يسخرون لخدمتهم الفقهاء والعلماء وغيرهم ، وذلك ما وقع تقريبا في هذا العصر .

ويرجع السبب أيضا في هذا الجمود الى طرق التربية والتعليم التي كانت سائدة في عصر بنى مرين اذ من المعلوم أن أهل هذا العصر كانوا يعتمدون في تعلمهم وفي تعليمهم على الذاكرة وعلى الاستظهار قبل كل شئ ، وكثيرا ما كانوا يحفظون ويستظهرون دون ان يفهموا ويعرفوا ما كانوا يحفظونه ويستظهرونه . ولقد كانت هذه الطريقة حتمية في جميع مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والعالي ، فكان الطفل يبدأ بحفظ القرآن ، حفظا عن ظهر القلب ثم يعمد الى حفظ الامهات في الفقه وفي اللغة والنحو والادب ، وكان يقضى السنوات الطويلة في ذلك الى أن يبلغ من العمر أشده فيقعد به ذلك الحفظ عن متابعة دروسه لكبر سنه ، واشتغاله بأمور حياته المعاشية التي لم يكن له مناص من مواجهتها لكسب قوته وفي المراحل الأخرى أيضا كان الطالب يهتم بالحفظ والاستظهار ويكتفى في غالب الأحيان بذلك رغم الشروح التي كان يتلقاها من أساتذته الذين كانوا هم الآخرون يعلقون أهمية كبرى على الذاكرة ، ألم يكونوا يحفظون المدونة ونوادر ابن أبي زيد وكتاب التهذيب للبرادعي والتسهيل لابن مالك والشافعية والالفية له ، كل هذه المتن كانت تحفظ وتستظهر وربما أضيفت اليها حواشي كثيرة كان المتعلم يطالب بها ويقاس نبوغه بها ، وكنت اذا طلبت منه تفسير مسألة فقهية أو حسابية أو نحوية سرعان ما رجع بذاكرته الى هذه العلوم التي حفظها ليستمد منها الجواب ويستدل بشواهدها بل ينصها الحرفي دون أن يحاول التفكير والتحليل وربط المصلات والخروج عن النص المؤلف ، والدائرة التي كان يدور في فلكها . أما اذا أعوزه النص أو خائنته الذاكرة فالهوة كانت عميقة أمامه والعجز واضحا في جوابه ، لانه لم يتعود المناقشة والتحليل والتعليل المنطقي الا في نواذر الاحوال ، ولم يكن يستطيع التكيف مع ظروف حياته رغم علمه الغزير الا في أحوال شاذة . بمعنى أن علمه الواسع لم يكن ينفعه في حياته العملية الا اذا بذل أقصى الجهود ليتحرر من سيطرة الذاكرة ومن تأثيرها القوي في سائر الملكات العقلية ، وحتى فيما يرجع للشرح الذي كان يقوم به الاستاذ لتوضيح النصوص ، فان الطريقة كانت لفظية ، شكلية أكثر منها موضوعية جوهرية ، فكثيرا ما كان الطالب ، نتيجة لذلك ، يكتفى بالعروض التي تلقى عليه ، فيقبلها بدون مناقشة ولا اعمال فكري ، الا اذا كان

يتوفر على استعداد فطرى وذكاء ثاقب يؤهله لمحاولة فهم ما يلقي عليه . وحتى البرامج نفسها لم تكن ترمى الى اكثر من حفظ ومعرفة ماسبق ان قاله الفقهاء ودونوه بصفة نهائية ، ان سلطة الفقهاء وغيرهم ، كما رأينا من قبل ، لا تقبل لا مناقشة ولا مراجعة وبالأحرى النقد والنسخ . فكان الهدف اذن هو حمل الطالب على الرجوع الى القديم وحصر ذهنه فيه كي يعرفه ويستظهره لا أقبل ولا أكثر ، وليس بخاف ما لهذه الطرق من اثر سىء على التفكير ، وعلى روح الملاحظة والنقد والتعليل وعلى تكوين الشخصية بصفة عامة . ولقد تنبه ابن خلدون الى هذه الاساليب التربوية السائدة فى عصره فانتقدها مرارا فى مقدمته حيث عقد أكثر من ثلاثة فصول (I) للتحديث عن هذه الطرق بتفصيل ، وابداء وجهة نظره فيها بعد ابراز عيوبها واثرها السيء بالنسبة للتعليم والمتعلم فى الفصل السابع والعشرين (2) يتحدث ابن خلدون عن كثرة التأليف ومساوئها بالنسبة للتعليم قائلا : « مما اضرب بالناس وتحصيل العلم والوقوف على غاياته ، كثرة التأليف وتعدد ضروبها واختلاف اصطلاحها ثم مطالبة المتعلم باستحضارها ، ومثل لذلك فيما يرجع للفقه المالكي بكتاب ابن يونس وكتاب اللخمي ، وفيما يرجع للعلوم العربية يذكر كمثال كتاب سيويه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين وكتب ابن الحاجب وابن مالك التى كان على المتعلم أن يحفظها ويقضى عمره فى تحصيلها . ثم يتعرض فى الفصل الثامن والعشرين (4) من مقدمته الى ما ينتج عن اختصار الكتب ومطالبة المتعلم بحفظها من نتائج سيئة للتعليم وللثقافة بصفة عامة . وفى هذا الموضوع يقول : «ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق الى أن قال : «وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم ، وربما عمدوا الى كتب الامهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعل ابن الحاجب فى الفقه وابن مالك فى العربية ، وهو فساد فى التعليم ، وذلك لان فيه تخليطا على المبتدىء بالقاء الغايات عليه وهو لم يستعد بعد لقبولها ، واذا كان ابن خلدون يكرر ويعيد ما قاله فى الفصول السابقة ، فذلك لسبب واحد هو أن هذه الطرق العقيمة أثرت فيه تأثيرا سيئا جعله يشور عليها وينادى فى الفصل التاسع والعشرين باصلاح التعليم وطرقه . ومما هو ظريف جدا فى هذا الفصل هو أن ابن خلدون يدعو الى ترك الاعتماد على الذاكرة وحدها كما يلج على السير بالطفل

1! المقدمة (مصر المكتبة التجارية بدون تاريخ) صفحة 531 .

2! نفس المصدر صفحة 532 .

3! نفس المصدر صفحة 533 .

4! نفس المصدر صفحة 534 .

تدريجيا مع مراعاة سنه ومستواه العقلي واستعداده الفطري وامكانياته الوجدانية
وقدرة ذكائه وميوله الى غير ذلك من المبادئ التي أصبحت التربية الحديثة
ننادى بها وكأنها تبنتها ولم تضيف اليها الا بعض الجزئيات ؟

على أن المهم فيما اوردناه هو ان ابن خلدون وهو معاصر لبنى مرين ومن صميم
البيئة المغربية ، أثار انتباهنا الى هذه الاساليب التربوية الفاسدة التي لاحظها
في عصره ، وهي أساليب ، في الحقيقة ، عتيقة خالت دون السير بالتفكير الحر
الى الامام وقعدت بالهمم ، وجعلت الجهود الفكرية والارادات القوية تدور حول
الشكليات والطاقت تبذل وتستنزف في الهوامش والتعاليق وحصر المعلومات
وجمعها في شبه قواميس ودائرة معارف ، مما ساعد على الركود والجمود رغم
بروز شخصيات لامعة في الفقه وفي التفسير وفي الحديث تركت لنا مؤلفات
ضخمة نفيسة قد لا توجد بها القرائح اليوم في هذا الميدان .

العلوم العربية

عرفت الحركة اللغوية في هذا العصر نشاطا لا يقل عن النشاط الذي
عرفته العلوم الدينية فكان «هذا عصرها الذهبي(I)» ، واستمرت هذه الحركة
منذ قيام دولة بنى مرين الى أن أصابها الخلل والانحيار ، بذلت ، في أيام عزها
وعظمتها ، الجهود الجبارة للنهوض بمستوى اللغة ، ولتبسيطها وجعلها في متناول
المتعلمين وغيرهم . وليس من شك في أن هذه الحركة كانت أقوى وأكثر انتشارا
من الحركة التي عرفتتها البيئة المغربية على عهد بنى عبد المومن الذين كانوا ،
كما أشرنا الى ذلك في فصل سابق ، يعتمدون على الازدواج اللغوي باستعمالهم

(1) عبد الله كنون ، النبوغ المغربى ج 1 صفحة 195 .

اللهجة البربرية الى جانب اللغة العربية الفصحى . فكانت المناظرات ، كما سنرى ، تعقد بين العلماء والادباء في موضوع لغوى أو نحوى قصد التحقق والتأكد من سلامة اللسان وصفائه وخلوه من التحريفات والتشويهاات التي كثيرا ما تصيب اللغات بحكم الاحتكاكات العنصرية وامتزاج الثقافات المختلفة . فكانت تقام حول هذه المناظرات ضجعات شفهية وقلمية تسترعى الانظار ، وتحرك الهمم وتجت الناس على تتبع ذيولها ومعرفة آثارها فيتدخلون مؤيدين أو معارضين ، فيزداد النشاط وتنوع مظهره ، وتتسع آفاقه ويصل صده من المراكز الرئيسية الى أماكن بعيدة ما كان لها أن تستفيد من هذا النشاط اللغوى لولا هذه المناظرات التي كانت تعقد من حين لآخر . كما تجلت معالم هذه النهضة في الشخصيات التي لعبت في هذا الميدان دورا ايجابيا وخدمت اللغة خدمة بقيت آثارها واضحة في ما نتوفر عليه الآن من أبحاث أو مؤلفات .

ومن العوامل التي ساعدت على تنشيط الحركة اللغوية وتوسيع دائرتها ، بنو مرين أنفسهم اذ كانوا ، كما أسلفنا ، يتصفون بكثير من صفات العرب وأخلاقهم ، ميالين بطبعهم وبكوينهم الاجتماعى الى اللغة العربية وكل ما يرتبط بها . ويكفيك منهم أنهم اتخذوها لغة رسمية للبلاد بحيث لء تكن تحرر المراسلات الرسمية وغير الرسمية ولا القرارات القانونية الا بها . فتفرغ لدراستها كثير من ملوكهم ضاربين المثل بأنفسهم ، كما شجعوا الطلبة وغير الطلبة على اتقانها وأغذقوا الاموال والهدايا لكل من كان له المام بها ، فوقع التنافس والاقبال عليها والتفنن في اجادتها لجعلها أداة طيعة فى يد الكتاب والادباء والشعراء والفقهاء الذين برهنوا فى مختلف الظروف عن خبرتهم الكبيرة فيها وتصرفهم فى فروعها .

ثم ان هناك عاملا آخر كان له تأثير مباشر على هذه الحركة ، ألا وهو ارتباط العلوم العربية بالعلوم الدينية ارتباطا وثيقا ومستمرا ، ذلك أن لغة البلاد كانت هى لغة القرآن والشريعة والاسلام فكان طبيعيا أن تنهض هذه العلوم كما نهضت الاخرى ، فسارت جنبا الى جنب الى الامام ، لم تعرف عقبة فى سيرها ولا عرقلة من أى نوع كانت تخل بتطورها كما كان الشأن بالنسبة للعلوم الفلسفية وما يرتبط بها . واذا تذكرنا ، من جهة أخرى ، أن البيئة المغربية كانت فى عصر بنى مرين محافظة أشد المحافظة على دينها وتقاليدها الاسلامية ، وتذكرنا تمسكها المتين بالكتاب والسنة ومقاومتها لكل بدعة أو ظاهرة اصلاح أو تجديد . اذا تذكرنا ذلك زدنا يقينا وإيمانا بما كانت تتوفر عليه هذه العلوم من حظوظ ، ومن امكانيات مختلفة كفيفة بتنميتها وتطويرها .

والى جانب ذلك يجدر بنا أن لا نغفل حركة التعريب التي انتشرت فى هذا العصر أكثر من غيره ، وامتدت الى آفاق بعيدة كانت منزوية منطوية على

نفسها ، لا تعرف الا لهجتها البربرية وتمسكها بها ، ورغم كونه هذه الحركة كانت تلقائية ، خاضعة لعوامل اجتماعية معينة بمعنى أنها لم تكن تعتمد على جهود ارادية مقصودة ، فان فضلها على لغة الضاد كان قويا وذا تأثير بعيد المدى ، ان كثيرا من القبائل البدوية العربية انضمت الى بنى مرين وعاشت في ظلهم مستغلة نفوذهم وثقتهم وتأييدهم لها (1) ، الشى الذى جعلها تتحرك فى تنقلات كثيرة وتنتشر انتشارا واسعا فى أماكن قريبة وبعيدة ما كان لها أن تصل اليها لولا تأييد بنى مرين لها ، ومتحهم اياها اقتطاعات أرضية كثيرة يتعيشون عليها فى مختلف نواحي القطر المغربى ، وبفضل استقرارها فى بعض الاماكن عممت المغرب موجة من الاستعراب بحيث وقع اندماج كثير من القبائل البربرية التى أصبحت بحكم هذا الاحتكاك لا تعرف سوى اللغة العربية ، بل أصبحنا نلاحظ ظاهرة عكسية تجلت فى مقاومة كل ما من شأنه أن يمس بسلامة اللغة العربية أو يحرفها أو يخرج بها عن اطارها الاصلى ، فكان ذلك رد قتل لهذا النقص الذى كان يشعر به أولئك المستعربون الجدد الذين ما فتئوا ، تعويضا لهذا النقص ، يكدون ويجهدون عاملين على تخليص اللغة مما أصابها من تحريف ودخيل . وفى هذا الصدد تحدثت بعض المصادر التاريخية عن محاولات قام بها بعض المغاربة حفاظا على سلامة اللغة وإبعادا عنها كل شبهة وشائبة ، من ذلك ما ألفه فى هذا الموضوع ابن هاشم اللخمي السبتي المتوفى سنة 575هـ ومؤلفه الذى يهمننا فى هذا الميدان هو «المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان» وقد ألفه تحقيقا لهذا الغرض الذى اشرنا اليه ، اى لمحاربة اللحن الذى لاحظته على السنة بعض العامة . ولقد كان لهذا العالم مؤلفات أخرى قيمة تدل على بابه الطويل فى علوم اللغة ، منها : «شرح الفصيح لثعلب وكتاب الفصول والجمال فى شرح أبيات الجمل وفى اصلاح ما وقع فى أبيات سيبويه وشرحها للاعلام من الوهم والخلل» (2) ولقد تطور مؤلف ابن هاشم فى لحن العامة ، فتناولته الاقلام (نظرا لقيمتها وأهميتها) بالبحث والدراسة حتى غدا مرجعا أساسيا اهتم به المتقدمون والمتأخرون ، وهكذا قام بترتيبه وتنقيحه العالم اللغوى ابن هانيء اللخمي المتوفى سنة 733 هـ حيث أخرجه فى مؤلف قيم تحت عنوان : (3) «انشاد الضوال وارشاد النسؤال» ثم قام باختصاره عالم لغوى آخر ، ابن خاتمة الانصارى المتوفى سنة 775 هـ وسمى هذا الاختصار «إيراد اللثال من انشاد الضوال» ونظرا لأهمية هذا الموضوع

(1) انظر فى هذا الموضوع الباب الاول من هذا البحث .

(2) محمد الفاسى ، تاريخ الدراسات اللغوية . بالمغرب الاقصى (مجلة دعوة الحق عدد 10 ، الرباط سنة 1960) صفحة 36 .

(3) انظر م . د . صفحة 37 .

قام الاستاذ كولان بنشر هذا المؤلف الاخير (I) ويحدثنا الاستاذ محمد الفاسي أن هذه التأليف توجه منها نسختان مخطوطتان بخزانة الاسكوريال وثالثه عند الاستاذ كولان بالرباط (2) وما هذه التأليف كلها الا أمثلة وجيزة تعطى القارئ فكرة عن مدى اهتمام المغاربة باللغة العربية ومدى دفاعهم عنها وإخلاصهم لمبادئها كي لا يتسرب اليها دخيل أو لحن أو عجمة أو غير ذلك من الشوائب . وكثيرا ما كانت هذه التأليف تصدر عن شخصيات كانت الى زمن قريب متشبثة بلهجتها البربرية ، محافظة على تقاليد العتيقة . مما يدل على استعراب القوم استعرابا كليا .

ومن أهم العوامم التي كان لها فضل على تقدم اللغة العربية تلك الحركة النشيطه التي عرفها فقه مالک وفروعه على يد رجال الدولة وخدامهم ، وعلماء وأدباء ورجال الفكر المغاربة بصفة عامة ، لقد مر بنا ونحن نتحدث عن هذه العلوم أن هذه الحركة عرفت تقدما منقطع النظير ، وإن جل الأبحاث والتأليف الضخمة الوافرة العدد كلها كانت تدور حول مذهب مالک ، وأصوله ، وفروعه لقد كان جل المنقذين فقهاء وجل المؤلفات في الفقه والتفسير والحديث حتى أصبح من المستحيل احصاء هؤلاء الفقهاء وعد مؤلفاتهم التي بلغت كمية وافرة لا تكاد تعد ، لقد رأيناهم يختصرون ويفسرون ، ويعلقون ، وينظمون ويجمعون الشتات ويبسطون المؤلفات الصخمة القديمة ، ويحللون ، يضعونها وينتقدونها ويذيلونها ويكملونها ، مضيفين اليها ما عندهم وما عند غيرهم . فكانت هذه الحركة ، بصفة غير مباشرة ، عاملا أساسيا في خدمة اللغة وتطويرها وإحياء ما مات منها وما ضعف خصوصا وإن الجهود التي بذلت في هذا الميدان كانت في أغلبها منصبة على الجانب الشكلي ، وهو اللغة العربية ، فالشروح والتحقيقات والتعليقات والمختصرات والحواشي كانت تقتضي ، بصفة منطقية النظر في الكلمة وتحديد مفهومها ومعرفة التغيرات التي طرأت عليها ، وتمييز صحيحها من فاسدها . والوقوف على أوجه الاختلاف التي كانت تفرق بين مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ومذهب البغداديين وغيرهم . لقد رأينا غير ما مرة في بحثنا هذا أن الجانب الشكلي تغلب على الجانب الجوهرى في أبحاث علماء وفقهاء هذا العصر حتى كاد يقضى عليه وحتى كاد الفقهاء يضحون به . فكان الربح ، في الواقع ، للغة العربية التي استفادت أكبر استفادة من جهود الفقهاء الجبارة ، وعنايتهم الخاصة بالالمام بمذهب مالک وفروعه وأصوله .

(1) هيسبريس سنة 1931 م 10 - 24 .

(2) انظر دعوة الحق العدد العاشر سنة 1960 صفحة 36 .

وهكذا يتجلى بوضوح ما كانت عليه العلوم العربية من ازدهار نظرا للظروف الاجتماعية التي كانت تسود البيئة المغربية في زمن بني مرين وللعوامل المباشرة وغير المباشرة التي اجتمعت كلها وتضافرت في زمن واحد لفائدة الوضعية اللغوية .

وجريا على الطريقة التي سرنسا عليها في هذا البحث سنتعرض هنا لبعض الشخصيات المغربية التي اشتهرت بنشاطها في ميدان العلوم العربية كي نعطي للقارىء فكرة ولو موجزة عن بعض هؤلاء الاعلام وما قاموا به من جهود عملية او نظرية .

نبدا بذكر شخصية كبيرة نظرا لما لها من صيت ذائع وشهرة كبيرة وسمعة عظيمة فاقت حدود المغرب الاقصى وتعدته الى المغربين الاوسط والادنى ثم الى الشرق ، انها شخصية ابي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن أجروم المولود بفاس سنة 672 هـ « في السنة التي توفي فيها ابن مالك صاحب الالفية في النحو » (I) . هو صاحب المقدمة المشهورة التي لا يكاد يجهلها أحد في الشرق وفي الغرب نظرا للطريقة التي استعملها صاحبها في صياغة قواعد النحو ، وهي طريقة مبسطة خالية من التعقيدات والتعاليق والاستطرادات والاطنابات المملة ، تتناسب وعقل المبتدئ في النحو لانها تراعى مستواه وامكانياته الذهنية ولانها تصرفه عن عالم المجردات الى عالم المحسوسات في الامثلة التي ياتي بها لشرح القواعد التي تريد من الطالب اتقانها . وبالجمل ، كانت ، في جوهرها مراعية لقواعد علم التربية وعلم النفس الحديث اذ لا زلنا نراها الى اليوم تغزو معاهدنا ومدارسنا نظرا لما اتت به من جديد وما قامت به من ثورة ضد المصنفات الطويلة المعقدة التي كانت مستعملة في عصر ابن جروم . والواقع ان هذا الاخير حقق بفضل مؤلفه البسيط معجزة في ميدان النحو الذي أصبح مقرونا باسم أجروم أو الاجرومية هذه اللفظة التي أصبحت تجارية على اللسان على مر العصور وفي مختلف البيئات . ونظرا لكل ما ذكر أصبحت مقدمة ابن جروم مقررة في مرحلة التعليم الابتدائي يتناولها الطالب بالحفظ ثم بالشرح بعدما يتم حفظ القرآن الكريم ، وبعد الالمام بها ومعرفة محتواها والقدرة على تطبيق قواعدها ينتقل الى المرحلة الثانوية في النحو حيث يشرع في دراسة ألفية ابن مالك التي تعتبر امتدادا وتوسيعا للقواعد التي سبق له أن درسها بواسطة مقدمة ابن أجروم .

1، ابن القاسي ، الجلود 138 .

فابن أجروم اذن يعتبر من الشخصيات المغربية التي أسدت لعلوم اللغة في عصر بني مرين خدمة لا تكاد تقدر قيمتها . وبذلك خلد اسمه على مر الدهر واستطاع غزو كل بيت وكل مدرسة وكل مكتبة .

لم تذكر المصادر التي عرضت لترجمته شيئا كثيرا عن حياته ونشأته . كل ما هنالك أن ابن القاضي ذكر في جذوته أنه كان من مؤذني مدينة فاس وانه توفي سنة 723هـ (I) لا أقل ولا أكثر ولعل السر في ذلك راجع الى كون صاحبنا لم يتصل اتصالا مباشرا بالبلاط المريني ولو فعل ذلك لتعرضت له المصادر التاريخية بشيء من التفصيل نظرا لاعتناء هذه المصادر خصوصا بالبلاطات وما يجرى فيها وما يتصل بالملوك وما يتعلق بشؤونهم الدينية والدنيوية .

ومن بين هؤلاء الاعلام نذكر كذلك أبا عبد الله بن عيد المنعم الصنهاجي السبتي المتوفي سنة 750هـ كان عالما لغويا شهيرا بمدينة سبتة : أخذ عنه كثير من الطلبة ودرس كثيرا من الفنون لا سيما علمي اللغة والنحو اللذين اشتهر بهما ونبغ فيهما نبوغا جعلت بعض المصادر تهتم بهذا الجانب من ثقافته . ولعل من المفيد أن ننقل هنا ما حكاه عنه صاحب «بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب» (2) الذي تعرض له بشيء من التفصيل والتعظيم وفي ذلك يقول : «... حافظ للغات العرب متفطن يقول الشعر واتفق له أنه توجه الى حضرة فاس في وفد أهل سبتة في أيام السلطان أبي الحسن وكان قد تقرر لديه حفظه فذكر ذلك لبعض كتبه فأراد الكاتب أن يفض منه فقال نصركم الله ان الرجل يحفظ لغة حوشية وان شئت أن تعرفها عنده فلخترع له اسما وسله عن معناه فقال له السلطان وما يكون الاسم . فقلل : يا مولاي سله عن التمركل ففعل فقال مجيبا : هو التلغح في الكساء واستشهد له عليه بشواهد للعرب فعرف السلطان مكانته «في الحفظ وقام الدليل عنده على ذلك رحمه الله» الى أن قال استنادا الى ابن خميس : « وكان يحكم قراءة كتاب سبويه اتم احكام ويستظهر شواهد كلها ويطرح ما عده من مصنفات فنه وكان يقدم صحاح الجوهري على سواها من كتب اللغة ويستظهر شواهد كلها» (3) هذه قصة ظريفة ومفيدة في نفس الوقت تدل على مدى تضلع مترجمنا في علوم

1 انظر الجدولة صفحة 131 -

2 توجد منه نسخة محفوظة بقسم المخطاطات في الخزنة العامة بالرباط تحت رقم ... وقد اعتمد عليها الاستاذ البهانة محمد بن تاويت في تحقيق ونشر هذا الكتاب الذي ظل اسم مؤلفه مجهولا الى اليوم رغم بعض التخمينات التي نسبت لابن عبد الملك الانصاري السبتي . انظر مجلة تطوان (عدد 9 سنة 1864 صفحة 174 - 188) حيث نشر الاستاذ ابن تاويت هذا المؤلف القيم .

3 م . ن . صفحة 176 .

اللغة ونبوغه فيها نبوغا جعل السلطان أبا الحسن المرينى يهتم به ويعنى عناية خاصة بمعرفته اللغوية .

ومنهم أبو يحيى أبو بكر الشريف الحسنى الاديسى العالم اللغوى الشهير ، الفقيه المحدث ، المشارك فى علوم كثيرة وفنون مختلفة ؛ كانت مكانته عالية بسبته وسمعته منتشرة فى جميع القطر المغربى بفضل علمه الواسع ومعرفته اللغوية الغزيرة . ذكر عنه مؤلف بلغة الامنية (1) انه كان قاضى سبته واماما فى العربية والقراءات السبع والحساب والفرائض ... كان يقرئ من كتب العربية جمل ابى القاسم والفية ابن مالك وياتى بكلام الطائفة الشلووية وبابن ابى الربيع وابن عصفور وابن الضائع وابن خروف وسواهم . ولصاحبنا أيضا مؤلفات أخرى كلها فى هذا الباب ، منها : ترتيب كتاب الامثال لابي عبيد على حروف المعجم ، ونظم كتاب الفصيح لابي العباس ثعلب وشرحه ، وهى مؤلفات قيمة موجودة الآن بخزانة الرباط قسم المخطوطات .

ومن المشاهير المغاربة الذين عاشوا فى هذا العصر وأثروا فى ثقافته تأثيرا قويا يجدر بنا أن نذكر اسما آخر لامعا خالدا وهو النحوى الكبير المكودى الفاسى المتوفى سنة 807 هـ . هو ابو زيد عبد الرحمان بن على بن صالح من قبيلة بنى مكود المشهورة بالعلم والورع . وهى من القبائل التى نزحت من نواحي فاس الى العاصمة العلمية حيث أدركت شهرة واسعة فى خدمة العالم والثقافة . يعتبر المكودى اماما فى النحو واللغة الى جانب فنون أخرى كان مشاركا فيها أكبر مشاركة . عرف بفاس أستاذا عظيما يفصده الطلبة من فاس ومن الفناوى البعيدة ليتعلموا عليه وينتفعوا بعلمه وبمعرفته اللغوية والنحوية الكبيرة . تذكر بعض المصادر أنه كان « يدرس كتاب سبويه بمدرسة العطارين وهو آخر من درسه وبعده صار العمل على الفية ابن مالك » (2) ومن آثاره الجلييلة شرحه لافية ابن مالك ، ذلك الشرح الذى اعتمد عليه المغاربة فى دراستهم النحوية منذ ذلك العصر الى يومنا هذا ، ثم أضافوا اليه شرح ابن عقيل ، على نفس المتن . ولمترجمنا أيضا شرح الاجرومية المشهورة وشرح المقصور والممدود لابن مالك .

ولا يجب علينا أن ننسى هنا الدور الفعال الذى قام به مالك بن المرحل السبتي (3) فى خدمة اللغة وفروعها . اشتهر ، الى ثقافته الادبية ، بثقافة لغوية

(1) م . ن . صفحة 184 .

(2) عبد الله جنون ، النبوغ المغربى ، ج : 1 صفحة 210 .

(3) انظر الفصل الذى خصصناه للتراجم .

واسعة مكنته من القيام بمناظرات في الموضوع ومناقشة كثير من علماء عصره في مواضيع لغوية محددة ، مما يدل على طول بآعه في هذا الميدان ، من ذلك ما وقع بينه وبين أبي الربيع النحوى الشهير الذى لاحظ على مترجمنا استعماله هذا التركيب النحوى : « كان ماذا » جرت هذه المناظرة التى أشرنا إليها بسببته وقامت حولها ضجة جلبيت لابن المرحل أنصارا وخصوما فقام للدفاع عن نفسه وألف كتابا حول « كان ماذا » أتيا بكلام العرب ومستشهدا بأقوالهم المختلفة وبأبياتهم الشعرية ردا على خصمه ابن أبي الربيع . وفى ذلك يقول :

عاب قوم كان ماذا ليت شعرى لم هذا ؟
وإذا عابوه جهلا ودون علم كان ماذا ؟

والقصة مشهورة فى كتب التراجم والتاريخ التى تعرضت لترجمة ابن المرحل ، هى ان دلت على شيء فانما تدل على تمكن ابن المرحل من اللغة وتصرفه فيها تصرفا مطلقا جعله يأتى بحجج قوية مستمدة من القرآن ومن كلام العرب والشعراء كما جعله يتصدى لمام النحاة ابن أبي الربيع ليرد عليه وينقض كلامه .

ونجد فى هذا العصر شيئا آخر من شيوخ اللغة والنحو : عرف بثقافته الواسعة فى هذا الميدان وبأستاذيته لكثير من الطلبة الذين تخرجوا عليه فى اللغة والنحو ، وأعنى به أبا عبد الله محمد ابن يحيى العبدري الفاسى المعروف بالصفدى . وكان اماما فى العربية ، ذاكرة للغة ، أخذ العربية والادب عن ابي الحسن بن خروف وعن النحوى الاديب أبى ذر الخشنى ، واكمل الكتاب تفقها وتقييدا (2) .

ونرى من قول ابن القاضى انه كان يعتمد فى تدريسه النحو على كتاب سيويه الذى كتب عليه تقييدا . أما أستاذه ابن خروف فهو من كبار النحاة فى هذا العصر ومن مشاهير أئمة اللغة العربية اذ ترك لنا مؤلفات قيمة فى اللغة وفى النحو الى جانب نشاطه الكبير فى التدريس بفاس وبمراكش ؛ شرح كتاب سيويه وسمى شرحه هذا : « شفى الالباب فى شرح غوامض الكتاب » كما شرح الجمل للزجاجي . ولقد توفى العبدري سنة 615هـ كما توفى أستاذه سنة 609هـ على حد قول ابن القاضى (2) .

(2) ابن القاضى جلوة الانتباس ، صفحة 138 .

(1) م . ن . صفحة 307

وهكذا نرى الى أى حد كان المغاربة يعتنون بالعلوم العربية كما يتبين لنا من خلال عرضنا السابق وهذه الامثلة التى سقناها الدور الايجابى الذى قاموا به فى التدريس ، والتأليف وشرح كتب الامهات واختصارها وتبسيطها كى تصبح فى متناول الطالب المبتدىء الذى يقبل عليها بكل شغف وشوق .

العلوم البحتة

نعنى بالعلوم البحتة الفلسفة ، والطب ، والرياضيات ، والتنجيم ، والكيمياء ، والفيزياء ، وغير ذلك من العلوم المجردة . ولقد عرفت هذه العلوم فى الشرق نوعا من الرقى والازدهار بعد حركة الترجمة النشيطة التى قامت بها عناصر مختلفة ، تلك الحركة التى أطلعت العرب على فلسفة اليونان وحكمة الهند وغيرها من الامم التى خضعت لسلطانهم ، فاستطاعوا ان يلموا بجوانب تلك العلوم ويضموها بعد مجهودات جبارة قاموا بها فى نقل هذه العلوم الى لغتهم ؛ ثم بعد ذلك قامت حركة التنقيب والبحث فى هذه العلوم مكنت العرب من التقدم فيها والانطلاق منها الى آفاق أخرى واسعة تمثلت فى الاكتشافات والاختراعات التى أنجزوها للنهوض بمستواهم الفكرى ، وتحقيقا لتقدمهم العلمى ؛ فساروا بخطوات جريئة الى الامام مضيفين الى هذه العلوم المترجمة نظريات جديدة ما كان لهم بها علم من قبل ، فبرهنوا عن مقدرة جبارة ، وفكر خلاق تجلت معالمه فى اختراعهم وفى انتاجهم الضخم ، فنبغت منهم شخصيات لامعة ، سجل التاريخ فضلها على تقدم العلوم وتطويرها . يكفى أن نذكر منها الكندى والفاربى والخوارزمى وعمر الخيام وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وغيرهم من مشاهير العلماء العرب الذين ذاع صيتهم فى الشرق وفى الغرب .

ورغم ما قيل عن هؤلاء الاعلام من تأثرهم بالفلسفة اليونانية ودورانهم فى فلكها وعدم التحرر من سيطرتها فى أبحاثهم ونظرياتهم ، ثم عدم استطاعتهم تحطيم قيود التفكير الدينى ؛ ورغم ما نعتوا به من قصور فى ميدان التفكير المجرد الذى يترك جانبا كل ما له صلة بالدين ، رغم ذلك كله لا يمكن أن ننكر جهودهم الجبارة فى التوفيق بين الفلسفة والدين كما لا يمكن أن ننكر انتاجهم العلمى الضخم وفضلهم على الثقافة بصفة عامة وعلى الحضارة الانسانية جمعاء .

ومن الملاحظ أيضا أن هذه العلوم كانت فى أغلب الاحيان فى صراع عنيف

مع العلوم الدينية وسلطة الفقهاء بصفة أخص ، تلك السلطة التي حاولت ما أمكنها ، وبشتى الوسائل ، القضاء على التفكير الحر والفكر الفلسفي بصفة خاصة .

تلك فكرة موجزة عن حالة العلوم البحتة في العالم العربي بصفة عامة . أما في المغرب الأقصى الذي يهنا هنا فلقد عرفت هذه العلوم تطورات خاصة وخضعت لعوامل مختلفة سنحاول التعرض لها فيما يلي :

رغم كون هذه العلوم كلها تتصف بالترايط والتكامل والتداخل فإن منها ما عرف ازدهارا ملحوظا ، ومنها ما لم يكتب له النجاح ، كما أن منها ما كان بطيئا في نموه وتطوره .

الفلسفة

أما فيما يرجع للفلسفة فقد كانت أسوأ حظا وأقل انتشارا من سائر العلوم الأخرى ، وأكثر تعرضا لتهجمات الفقهاء ورجال الدين بصفة عامة ؛ عرفت محنا كثيرة في الشرق العربي ، فعذب أصحابها واضطهدوا وقتلوا في بعض الأحيان شر قتلة ، نظرا لمحاولتهم الخروج عن الحدود المألوفة ، تلك الحدود التي رسمها الفقهاء بصفة نهائية ؛ فكانوا ، خوفا على أنفسهم ، يعملون في الخفاء ، ويتسترون وراء الخلفاء والملوك بدعوى أنهم كانوا يدافعون عن سياستهم ونظمهم ؛ ووراء علوم أخرى كانوا يتقنونها في نفس الوقت ومع ذلك لم ينجحوا من هؤلاء الرؤساء أنفسهم الذين كثيرا ما فتكوا بهم لاقبل الأسباب وأتفه الأحداث . وإذا كان مصيرهم هذا في الشرق حيث الخلافات ، والامارات ، والمؤامرات والانقسامات السياسية ، ونوع من الحرية . فإن مصيرهم بالمغرب الأقصى كان أقسى وأمر ، بل لم يجدوا مكانا لهم فيه ، لأن الابواب كانت مغلقة والميدان شائكا لا يسمح ولو حتى بالظهور . ذلك ، كما قدمنا ، أن سلطة الفقهاء - العدو اللدود - كانت قوية الى درجة الطفيان والجبروت . ولذلك يمكن القول ان المغرب لم يعرف من الابحاث الفلسفية شتا جديرا بالذكر .

يمكننا ان نستثنى من ذلك ما وقع في زمن الموحدين ، في زمن ابي يعقوب يوسف وابنه يعقوب المنصور على الخصوص ، حيث كان ابن طفيل وابن رشد ينعمان بالاستقرار والطمانينة ، والهدوء ويجدان لدى هذين الخليفين تأييدا مكنهما من مواصلة أبحاثهما الفلسفية ، فاستطاعا أن يخلقا لنا أروع مثال وأضخم انتاج في الميدان الفلسفي حتى قيل «ان الفلسفة ماتت بموت ابن رشد (1198م) وفي الحقيقة ان هذين الفيلسوفين نعا في هذا العصر بحياة حادثة في ظل ابي يعقوب

المنصور اذ كاتا من المقربين اليهما ؛ الا انهما كثيرا ما انقلبا عليهما وفتكا بهما فتكا . يكفى ، مثالا على ذلك ، أن نشير الى أن يعقوب المنصور اضطهد الفيلسوف ابن رشد وأمر باحراق كتبه ما عدا مؤلفاته : العددية والطبية .

لقد حدث هذا الاضطهاد في زمن الموحدين حيث كانت الحرب قائمة ضد فقهاء مالك وكتبهم وحيث كانت الابواب مفتوحة للتجديد والاصلاح ؛ فماذا كان يمكن ان ينتظر من عصر بنى مرين حيث بلغ طغيان فقهاء مالك حده ، وتعصبهم درجته القصوى . لا يمكن فى الحقيقة ، أن ننتظر من هذا العهد الا نتائج سلبية ، بل سيئة بالنسبة للعلوم الفلسفية . ولا غرابة فى ذلك ما دمنا قد اطلعنا ، فيما سبق ، على الجو الذى كان يسود البيئة المغربية من الناحية الدينية عموما ومن حيث الفقه بوجه خاص ، اذ العوامل السلبية كانت كلها متوفرة فى هذه البيئة التى قيدت الجهود الفكرية وخنقت الاجتهاد الحر .

ونتيجة لذلك ، أصبحت العلوم البحتة تدرس فى أماكن ثانوية بعيدة عن جامعة القرويين التى كانت خاصة بالعلوم الدينية بمذهب مالك ، والقرويين كانت اذن محل تبجيل وتعظيم وتشريف بحيث لم تكن تدرس فيها الا العلوم التى تستحق الاحترام والتعظيم .

ونتيجة لذلك ، أصبحت العلوم البحتة تدرس فى أماكن ثانوية فكان الفلاسفة ، تبعاً لذلك يمتقنون من طرف ملوكهم رغم الخدمات الجليلة التى كانوا يؤدونها. وهكذا أصبح أبو العباس بن شعيب الجزنائي الفاسي ، العالم الشهير والفيلسوف الكبير المتوفى سنة 749هـ يمقت من طرف مخدومه السلطان أبي الحسن المريني رغم الاخلاص التام الذى كان يكنه له . وقد شهد بذلك معاصره ابن الخطيب الذى قال عنه فى احاطته (I) : «وتهتك فى علم الكيمياء وخلع عليه العذار ، فلم يحصل بطائل» الى أن قال : «والغالب عليه العلوم الفلسفية وقد مقت لذلك» ولم يختلف الامام ابن مرزوق فى مسنده عن ابن الخطيب فى هذه الشهادة حيث يقول (2) : «وكان مولانا (3) رضى الله عنه ينفر منه لموجب الله أعلم بحقيقته ، ولا يبدو على ظاهره ما يدل على طعن فى طريقته فى المعتقد ، ولقد خبرته وذاكرته وباحثته فما اطلعت ، والله ، منه الا على ما يرضى» . ولقد تساءل الاستاذ كتون فى استغراب

(1) الاحاطة فى اخبار غرناطة (طبعة القاهرة بدون تاريخ) ج 1 صفحة 188 .

(2) ابن مرزوق المسند الصحيح . مخطوط الخزائن العامة بالرباط صفحة 198 .

(3) يعنى أبا الحسن المريني .

عن سبب النفور قائلا : (I) فليت شعري من الذي مقته وقد كان بحيث يتنافس فيه الخلفاء ويخدم في خاصة رجال البلاط كاتبا وطيبا ، ولم يستغن عنه أبو الحسن حتى صحبه في معركته وهلك بمعيته في الكائنة المشهورة بتونس» ثم يضيف ردا على ابن الخطيب (2) : «والمقصود أن لا يتقول متقول على عصر التقدم في الحضارة والعرفان بالمغرب وهو عصر بنى مرين فينسب اليه استنادا على قول ابن الخطيب أن الاشتغال بالعلم والفلسفة فيه كان من أسباب المقت ويسجل عار ذلك على رجال الدولة والشعب» .

وإذا كان الاستاذ كنون يشك في شهادة ابن الخطيب ؛ فهل يمكنه أن يشك كذلك في الخطيب ابن مرزوق الذي كان من الملازمين الاولين لابي الحسن ؟ أما نحن فنرى أن موجب هذا المقت والنفور ليس هو الاشتغال بالطب او بالحساب ، بل بالفلسفة التي كانت تشكل أكبر خطر بالنسبة للفقهاء وللملوك أنفسهم . وإذا كانت العلوم قد تقدمت في هذا العصر على حد قول الاستاذ كنون ، فإن الفلسفة لم تكن ضمن هذه العلوم التي تقدمت في هذا العصر .

وإذا كان بعض الملوك يفضون الطرف ويتسامحون في بعض الاحيان ، فذلك لمدة مؤقتة ولاغراض شخصية قاهرة ، لا من أجل الابحاث الفلسفية بل للانتفاع بالعلوم الاخرى التي كانت مجتمعة في شخص الفيلسوف الذي ، كما قدمنا ، كان ملما بعلوم كثيرة : منها الطب والرياضيات والفلسفة وغيرها . فالسخط كان ينصب أولا وبالذات على الجانب الفلسفي لا على الجوانب الاخرى التي تجتمع كلها في شخص واحد . وإذا كان التسامح قد بدا في بعض الاحيان اتجاه فيلسوف ما ، فما ذلك الا لكونه ينفع بطبه أو بحسابه أو بجانب آخر من علمه . أما اقتصاره على الفلسفة وحدها أو تبرزه فيها واشتهاره بها فكان ذلك وبالا عليه . ولعل أقوى دليل وأكبر مثال نورد هنا لتعليل ما سبق هو ذلك الحادث الخطير الذي ذهب ضحيته العلامة الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب الذي قتل شر قتلة في العاصمة العلمية المغربية حيث أضرمت النار في جثته نظرا لكونه ، يشتغل بالفلسفة و «ينحرف عن العقيدة الخالصة» على حد زعم بعض فقهاء الاندلس والمغرب الذين وجهوا ضده تهمة الزندقة والالحاد .

ورب معترض تساءل ، في استغراب ، عن عدم تعرضنا في هذا الحديث لابن خلدون ، فيلسوف المغرب في القرن الرابع عشر (م) . نعم ان ابن خلدون يعتبر أكبر

(1) النبوغ المغربي في الادب العربي . ص

(2) المصدر السابق . ص

شخصية عرفتھا البيئۃ المغربیة فی زمن بنی مرین فی میدان العلوم البحتة والمعرفة الواسعة ، ونحن لا ننكر دقة ملاحظته ، وقوة ذکاؤه ، واستعداده الفطري ، ومواهبه العقلية الخارقة نعترف بزعامته الفكرية وبقصب السبق الذي حصل علیه فی میدان العلوم الاجتماعية ، اذ هو مؤسس علم الاجتماع وواضع أسسه المتينة قبل أحيست كونت ؛ الا أننا نستبعد أن يكون قد نهج نهج الفلاسفة وحذا حذوهم فی میدان البحث المجرد والنظر الى الكون والإنسان وعلاقة بعضهما ببعض نظرة فلسفية محضة . لقد فلسف التاريخ وأبرز قواعد علم الاجتماع ، وبين لنا القوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية لكنه لم يسر بعيدا ولم ينطلق الى آفاق أخرى تقتصل بالوجود ، بالله بالطبيعة وبما وراء الطبيعة . لم يتعرض للمذاهب الفلسفية التي كانت موضوع النقاش والبحث فی عصره من طرف فلاسفة عرب ، أمثال ابن طفيل وابن رشد . فلماذا تغاضى عن هذه المعطيات الفلسفية التي كانت رائجة فی عصره ولم يتعرض لها لا بالسلب ولا بالإيجاب ؟ آكان ذلك تجنباً منه وخوفاً من الظروف القاسية على من يخوض غمار هذه الأبحاث آنذاك ؟ أم كان نفورا وتعصبا مقصودا أو عجزا ؟ ذلك ما لا يمكن الاجابة عنه اليوم بالقطع رغم كوننا لا نجهل ما كان يتوفر علیه ابن خلدون من طاقة عقلية خارقة للعادة تؤهله لمثل هذه الأبحاث وبعد ، ذلك هو نصيب الفلسفة والفلاسفة من البيئۃ المغربیة فی عصر بنی مرین ، وهو نصيب ضئيل . هزيل لا يحسد علیه . وقد كنا نود ان ناتي هنا ، كما فعلنا بالنسبة للعلوم الأخرى ، بقائمة تعطينا فكرة واضحة عن بعض فلاسفة المغرب فی هذا العصر وعن اتجاهاتهم المذهبية والایدولوجية ، لكننا ، فی بحثنا هذا ، اصطدنا بعقبات كثيرة جعلتنا لا نطمئن الى بعض الاشارات الخفيفة والكلمات العابرة التي وجدناها فی ثنايا بعض المصادر بصفة عفوية ؛ فهي لا تمثل بالنسبة لبحثنا حججا كافية نبني عليها أحكامنا ونستدل بها فی تعليقاتنا وفي وصفنا لهذه الظاهرة أو تلك . الا أن هذا لا يعنى مطلقا أن هذا العصر لم يعرف فلاسفة فقد يكون نبغ عدد قليل أو كثير ، لكن الاضطهاد والتعسف غطيا عليهم وخنقا أنفاسهم حتى أصبحنا نرى المصادر تتعرض بتفصيل للفقهاء وعلماء الدين وتتعمد السكوت عن ذكر الفلاسفة الا فی أحيان نادرة تشير اليهم اشارة خفيفة غير مبالية بانتاجهم أو باتجاههم نظرا للضغط الاجتماعي الخائق . أما أثر الفلسفة فقد كان متجليا لا فی الأبحاث الفلسفية وحدها بل كان ظاهرا فی أصول الفقه وفي النحو وفي العروض وفي المنطق وإن كان ذلك لا يتضح للباحث بصفة مباشرة ؛ فمن الممكن اذن أن يكون هناك فلاسفة تفلسفوا من حيث لا يشعرون !

الرياضيات

امتاز العصر المريني بنشاط منقطع النظير فيما يرجع للرياضيات والعلوم المرتبطة بها كعلم التوقيت والفرائض وغير ذلك ؛ وعرف هذا العصر ما لم يعرفه في عصور أخرى سابقة أو لاحقة من شخصيات كثيرة لامعة ، نبغت في هذه العلوم وتقدمت فيها تقدما باهرا جعلها تتفوق على أهل زمانها ؛ فكان منها من أصبح أستاذا لمن أتى بعده بفضل ما قام به من أبحاث وما خلفه من آثار ظلت إلى يومنا المرجح الاساسي (I) لكثير من هذه العلوم . فأصبحنا نرى شخصيات أخرى تفقد على المغرب الاقصى من الاندلس ومن المغربيين الاوسط والادنى لتأخذ عن أساتذة المغرب في هذا الميدان .

ويرجع ازدهار هذه العلوم إلى عوامل رئيسية ، منها أن الرياضيات ظلت ، على مر الأزمان ، في الشرق وفي الغرب ، العلم الوحيد الذي لم يعرف لا تنافرا ولا تعارضا مع علوم الدين والفقه ، تلك العلوم التي سبق أن رأينا ما كان لها من تأثير على أوجه النشاط الفكري الأخرى كالفلسفة وما يرتبط بها ؛ فلم تكن الرياضيات ، من حسن حظها ، تمس بالفقهاء أو تخل بسلطتهم ؛ ولم تكن تتعارض لا في قليل ولا في كثير مع العلوم الشرعية السائدة آنذاك ؛ ولم يكن ملوك بني مرين ينفرون من أصحابها أو يحتمونهم كما فعلوا بالنسبة لغيرهم ؛ بل كانوا يقربونهم منهم استفادة من علمهم وخدمة لمصالحهم (2) . فنجا ، تبعاً لذلك ، من المكر والخديعة ، والمتاورات والمؤامرات التي كانت تدبر ضد غيرهم . وبذلك استطاعوا أن يتفرغوا بكل هدوء واطمئنان لنشاطهم ، ويبدلوا فيه الجهود الجبارة التي خلدت ذكرهم وعملت على إذاعة صيتهم في الشرق وفي الغرب .

ومن العوامل التي ساعدت على النهوض بمستوى الرياضيات في هذا العصر حاجة الدولة إلى ضبط أحكامها ، ومواردها ومصاريفها ، واستخلاص ضرائبها . كل ذلك يحتاج إلى دراية في علم الحساب وتقنن في تطبيقه تطبيقا مضبوطا خاليا من كل خطأ أو غلط . فالغاية هنا كانت اقتصادية قبل كل شيء ، تستهدفها الدولة لتكوين أطرها وملء وظائفها الشاغرة بالمخزن الذي كان يضم من بين موظفيه مسئولين حسابيين يشرفون على الدواوين الخاصة بتسيير شؤون الدولة المالية .

(I) تلخيص ابن البناء المراكشي .

(2) أبو سعيد عثمان يستمدى ابن البناء المراكشي ويطلب منه اطلاقه على وقت وفاته .

على أن أهم عامل في نظرنا كان وراء هذه الحركة الرياضية التشبيطة هو حاجة الشعب ، تطبيقا لتعاليم الاسلام وقياما بالواجبات الدينية ، الى من يعرفه بأوقات صلواته وصيامه ، كما كان في حاجة أكيدة الى معرفة ما أوجبه الله تعالى فيما يتعلق بنظام الارث وتوزيعه . وذلك يحتاج الى معرفة دقيقة بعلم الحساب ، لان مشاكل الارث ، كما لا يخفى ، مشاكل عويصة ، معقدة في بعض الاحيان ، كثيرا ما تستعصى على العدول والفرضيين ، فيلجأو في حلها الى اهل الدراية والمعرفة في هذا الميدان . ومعنى ذلك أن علم الفرائض وعلم التنجيم كانا من أهم الاسباب التي جعلت الرياضيات تنهض وتتقدم تقدما كبيرا ، نظرا للترابط الوثيق الموجود بينها . فالسبب اذن كان دينيا في جوهره ، ويكفى أن يكون كذلك لتزدهر هذه العلوم في هذا العصر وتنطلق انطلاقا تعدت آفاقه حدود المغرب الى الشرق وغيره . ان الدعامة الاولى كانت الدين وتطبيق تعاليمه نظرا لكون البيئة المغربية في عصر بنى مرين كانت ، كما رأينا في فصل سابق ، بيئة دينية ، محافظة ، شديدة التمسك بتعاليم الاسلام وبشعائره ؛ كل حركة فكرية ساندت الدين وجدت فيه خير معين وخير نصير ، كما أن كل حركة حاولت القيام بمسه كان مآلها الفشل .

ونريد ، بهذا الصدد ، أن نشير الى ما ذكره الدكتور رينو في بحثه حول العلوم البحتة وتعليمها بالمغرب (I) .

لقد تعرض الدكتور المذكور لهذه العلوم وتناول طرق تعليمها بالنقد مبينا ما كان لتلك الطرق من آثار سيئة على الذهن وعلى تطور الثقافة بصفة عامة . ولقد ذكرنا أولا بما سبقه اليه ابن خلدون الذي عقد فصولا كثيرة في مقدمته (2) عن أساليب التربية والتعليم العقيمة التي كانت سائدة في عصره . والدكتور رينو متأثر بابن خلدون تأثرا شديدا ، ونحن نوافقه على أن تلك الطرق التي تعتمد على الذاكرة وحدها والاستظهار من شأنها أن تحول دون التقدم الفكري والازدهار العلمي ؛ لا ريب في ذلك اذا كانت الذاكرة هي الاساس الوحيد الذي يعتمد عليه في التعليم ؛ الا أننا نراه يبالغ ويتطرف في حكمه ناسيا أن الذاكرة تلعب دورها الرئيسي في التعليم ، ولا يجب أن نحاربها ونقاوم كل ما من شأنه أن يتصل بها ؛ فالحفظ والاستظهار لا خطر فيهما اذا ما أحسن استعمالهما واستغلالهما في ظروف معينة وبعد استيعاب وفهم ما يطالب التلميذ بحفظه . ان التربية الحديثة التي قامت

(1) هـ. ب. رينو ، تعليم العلوم البحتة ونشر المؤلفات العلمية بالمغرب قبل الاحتلال الادبي ، ادريشون ج 13 صفحة 325 روما . بدون تاريخ .

(2) انظر الفصل المتعلق بالعلوم الدينية في المقدمة ص 422 .

على انقراض تلك الطرق العقيمة تنص في مبادئها على عـدم التخلي عن الذاكرة بل تلج على تنميتها كسائر الملكات الاخرى ، لكن مع مراعاة التناسب والانسجام . فاذا كان المغاربة ، كما لاحظهم رينو ، يكترون من حفظ المنظومات الرجزية في تعلمهم الدينى أو العلمى بصفة عامة ، فانهم كانوا يتخذون ذلك لبنة أولى لتركيز الاسس التى يبنون عليها فيما بعد ؛ فالحفظ لم يكن الغاية بل كان وسيلة فقط ، ولذلك استطاعوا فى هذا الميدان أن يحققوا انتصارات عظيمة . ومن ملاحظات الدكتور أيضا أن «العرب ، خلافا لعلماء اليونان ، كانوا يشتغلون بالعلوم الرياضية وغيرها لغاية نفعية لا من أجل العلم كما فعل اليونان الذين لم يستهدفوا من وراء خدمتهم للعلم أى شىء» (I) .

إذا كان الدكتور يعنى «بالغايات النفعية» خدمة الدين وشؤون المسلمين التى تمس علاقتهم بالاله وعلاقة بعضهم ببعض فائنا لا نرى فى ذلك أى تشويه للحقيقة أو تعصب يحرفها ، ولكن إذا كان يعنى شيئا آخر أى خدمة المصلحة الشخصية المحضة أو هدفا اقتصاديا أو تجاريا فذلك ما لا نوافق عليه ، لان المسلمين استطاعوا فى اطارهم الدينى «أن يحققوا المعجزات» فى ميدان العلم والمعرفة بشهادة كثير من المؤرخين العرب وغيرهم الذين تصدوا لدراسة مظاهر الحضارة الاسلامية دراسة موضوعية ونزيهة . وليس معنى هذا أننا نشك فى نزاهة وأمانة رينو ولكننا فقط أردنا فى عرضنا هذا أن نشير الى ما يقع من سوء فهم أو التباس فى تاريخ الحضارة الاسلامية .

وبعد هذا العرض الوجيز الذى قمنا به لاعطاء فكرة عن الحالة بالنسبة للعلوم الرياضية نريد الآن أن نتعرض فيما يلى لذكر بعض الشخصيات المغربية أو التى كان للمغرب فضل عليها فيما يرجع لهذه العلوم . فما هى اذن هذه الشخصيات التى برزت فى عصر بنى مرين ؟ لقد بحثنا عن اشهرها واكثرها ايجابية فى تقدم هذا النوع من العلوم فوجدنا من خلال دراستنا للمصادر التى وقفنا عليها ظاهرة حديرة بالذكر والانتباه ، ذلك أن جميع من برزوا فى الرياضيات كانوا تقريبا تلاميذ لأكبر شخصية وأعظم نابغة فى العلوم الرياضية عرفها العصر المرينى فى المغرب : انها شخصية أبى العباس احمد ابن البناء المراكشى(2) الذى فاق أهل عصره وسيطر بنفوذ على المغرب وعلى المشرق ؛ كان يقصده الدانى والقاصى لياخذاه عنه وينهلا من علمه الغزير ، حتى صار اسمه مقرونا بالرياضيات نظرا لتفوقه فيها وتبحره فى

1) ديتو م . ن . صفحة 326 .

2) أنظر ترجمته فى الباب الذى خصصناه للمشاهير .

فروعها وتفننه في تطبيقها وتهتكه في تطويرها ، وسلوكه فيها مسلكا جعل الخاصة والعامة يتعجبون في أمره لكونه سار بعيدا وقطع أشواطا حتى علا نجمه وأصبح في السماء ضوءا لامعا مشرقا يستنير به كل من حاول اتباع طريقه والاهتداء بهديه والاسترشاد بنصائحه . ولقد أحببنا نظرا لهذه المكانة المرموقة التي حصل عليها ، أن نخصص له في مكان آخر ترجمة كافية تجعل القارئ يطلع على جوانب شخصيته وعلى أطوار حياته ومظاهر ثقافته ؛ لذلك نتركه الآن لننتقل الى شخصيات أخرى كانت لها شهرتها في نفس الميدان ودورها في النهوض بهذا النوع من العلوم التي نحن بصدددها .

وفي المقدمة نذكر أستاذه الكبير أبا زيد عبد الرحمان الهزميري ، الصوفي الشهير ، مؤسس الطريقة الهزميرية بأغمت «كثيرا ما كان يزوره تلميذه ابن البناء اذا عنت له مشكلة أو حل به أمر حار في التخلص منه» (I) . «كان عارفا بالحساب والتعاليم والهيئة » (2) توفي بفاس سنة 706 هـ .

ومن شيوخه كذلك محمد بن محمد بن ادريس القلوشي المولود عام 607هـ والمتوفي سنة 707 هـ . درس عليه ابن البناء بفاس كتابه في العروض المسمى بالختام المفوض وأرجيزه في الفرائض كما درس أيضا على أبي عبد الله محمد بن مخلوف السجلماسي المراكشي التنجيم .

ومن مشاهير هذا العصر في الرياضيات العلامة الكبير محمد بن النجار التلمساني . درس على أبي عبد الله الابلي ثم انتقل الى فاس فاتصل بامام التعاليم أبي عبد الله بن هلال كما تلمذ لابن البناء حتى أصبح متفوقا في علم النجوم . اتصل بأبي الحسن المريني فضمه الى بلاطه ، فصار في خدمته الى أن توفي بالطاعون سنة 749 هـ .

احمد بن ابراهيم بن محمد بن صفوان أبو جعفر حسبما جاء في الإحاطة (3). كان فيلسوفا ومتصوفا كلفا بالعلوم الالهية . انتقل الى العدو ودرس على ابن البناء بمراكش .

(1) ديتو ، ابن البناء المراكشي ، هيسبريس ج : 25 سنة 1938 .

(2) ابن القاضي ، الجدوة (المطبعة الحجرية بفاس) صفحة 167 .

(3) الإحاطة تحقيق محمد عبد الله عنان (دار المطرف بمصر بدون تاريخ) المجلد الاول صفحة 230

علي بن عبد الله بن محمد بن هيدور التسادى . كان اماما في الفرائض والحساب واشتغل بتدريسهما بعد أن تتلمذ لابن البناء . اعتنى اعتناء خاصا «بتلخيص» أستاذه فشرحه كما قيد على كتابه رفع الحجاب ، توفي بمجاعة فاس سنة 816هـ .

عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان بن يوسف بن محمد ابن عطية المديوني الشهير بالجاذيري ولد سنة 777هـ ، كان متضلعا في علوم الحساب والتوقيت الشيء الذي أهله لان يصبح موقت جامع القرويين . يقول ابن القاضي : «له كتاب جمع فيه بين العمل بألة الاسطرلاب وبالصفحة الشكازية وبربع الدائرة ، والعمل بالحساب ؛ والجدول ؛ وتنبيه الانام على ما يحدث في أيام العام ، ومختصر شرح الخاقانية للداني ؛ والرجز المسمى بالنافع في أصل حروف نافع ؛ والمذكر والمؤنت وروضة الازهار في علم وقتي الليل والنهار وشرح البردة (I) » ، كانت وفاته سنة 818هـ ويتعلق الامر هنا ، كما نرى ، بشخصية ملحوظة ذات ثقافة واسعة ، وقدرة على التأليف ، ولو قدر لها أن تعيش أكثر لافادتنا بانتاج أضخم ، لكن المنية عاجلتها وحالت دون تحقيق ذلك .

ومن علماء هذا العصر في الرياضيات نذكر أيضا العلامة الكبير محمد بن شاطر أبا عبد الله المراكشي . قال ابن القاضي نقلا عن المقرئ : «لقيت فيمن لقيت بفاس رجلين . أحدهما عالم الدنيا والآخر نادرتهما . أما العالم فهو شيخنا أبو عبد الله بن احمد العبدري الابلي واما النادرة فأبو عبد الله بن شاطر (2) » . انتقل الى مراكش فلازم أبا زيد الهزمري ، واتصل كذلك بابن البناء اتصالا وثيقا مكنه من الاطلاع على ما عنده من معرفة واسعة بعلم الحساب .

وكان حيا في هذا العصر بفاس عالم كبير ، خلوف اليهودي المغيلي «شنيخ التعاليم» (3) أخذ عنه في الحساب طلبة كثيرون واشتهر في عصره بهذا العلم حتى أصبح الناس يقصدونه من الداخل ومن الخارج . يكفي أن نشير الى أن الابلي محمد ابن ابراهيم العبدري العالم الشهير ، لما فر من بلاده قصد خلوف هذا واختفى عنده بفاس الى أن انتقل الى مراكش حيث قطب العصر وأستاذ زمانه ابن البناء . كنا نود أن نخص هذه الشخصية بترجمة وافية نظرا لكونها من دين آخر ، لكننا لم نعثر على

(1) الجلوة صفحة 165 .

(1) الجلوة صفحة 249 .

(2) الجلوة صفحة 199 .

أكثر منا قلناه عنها . لم تكن نشك في أن اليهود لعبوا دورا ثقافيا كما خاضوا غمار السياسة والادارة في هذا العصر ، لكن المصادر قليلا ما تعرضت لهم لاسيما من الناحية الثقافية اما لتعصب واما لاسباب أخرى نجهلها الى اليوم .

وعلى كل ، فقد رأينا ما كان لهذه الشخصيات التي سردنا اسماءها من تضييع في الرياضيات على الخصوص كما رأينا أنها كانت في أغلبها تدين لأستاذ واحد انفرادا بالرئاسة والزعامة في هذا الميدان ، ألا وهو احمد أبو العباس ابن البناء المراكشي . ولعل في ذلك أمثلة كافية تتناسب وأهمية هذا البحث .

العلوم الطبيعية

أكد كثير من المؤرخين ان الطب بالمغرب عرف نوعا من الازدهار أيام المرابطين والموحدين ثم أصابه الركود والجمود في عصر بنى مرين ، وهم في حكمهم هذا يقرنون الحالة المغربية بالحالة في الاندلس وفي الشرق ؛ بحيث أن الركود الذي تميزت به الحضارة العربية في القرن الرابع عشر (م) كان عاما وسائدا حتى بالنسبة للمغرب الأقصى . وأقدم نظرية في هذا الموضوع هي للطبيب المؤرخ الشهير لوسيان لوكليير الذي ذكر في مؤلفه تاريخ الطب عند العرب (1) أن المغرب عرف عددا من الاطباء تكوّنوا في القرنين الحادي والثاني عشر ولازموا ملوكهم في الاندلس ثم ما لبثوا أن انتقلوا مع هؤلاء الملوك الى المغرب ليقضوا آخر أيامهم به . وهكذا استفاد المغرب من المصائب التي حلت بالاندلس لما ما حدث بعد ذلك فهو عبارة عن جمع بعض المؤلفات القديمة وتنقيحها وتهذيبها وحصرها في شبه قوائم أو قواميس تضاف اليها بعض الحواشي والتعليق ، ذلك هو رأى الدكتور لوكليير فيما يرجع للطب بالمغرب في القرون الوسطى ، بل نراه في حكمه يغالى ويتطرف عندما يقول (2) : «من الممكن أن نسجل أنه كان هناك عدد لا يزيد عن أربعين طبيا نسبهم من اسبانيا ، ولا نجد ولو واحدا منهم يصح أن ننتهه بالشهرة والنبوغ ، ذلك أن كل انتاج أصيل قد كف وانعدم واصبحت الجهود تدور حول القديم لتجميعه وتقتبس منه لا اقل ولا أكثر » ولقد كان لهذا الرأى الخطير تأثير مباشر على من جاء بعد لوكليير وحاول البحث

(1) طبعة باريز 1876 ج 2 صفحة 241 .

(2) نفس المصدر صفحة 242 .

فى آثار المغاربة فى هذا الميدان . ويهمنى هنا ما قاله مؤلف معاصر محمد بن احمد العبدري الكانونى (x) فى مؤلفه تاريخ الطب بالمغرب حيث نجده متأثرا تأثيرا مباشرا بنظرية الدكتور لوكليز . ففى مقدمة كتابه هذا قدم لنا بحثه فى تصميم واضح يشتمل على أربعة أقسام . فى القسم الاول وهو القسم الذى أطلق عليه دور التكوين فى القرون الاربعة الاولى ، تكلم عن نشأة الطب ومظاهره فى المرحلة الاولى ، أما القسم الثانى فهو فى نظر المؤلف دور الازدهار الذى يتحقق فى القرنين الخامس والسادس، أى فى ظل المرابطين والموحدين . أما الركود والجمود فقد تجليا فى عصر بنى مرين قبل عصر الانحطاط الذى هو القرن التاسع وما بعده . ويلاحظ القارئ أن هذه النظرية لا تختلف لا فى جوهرها ولا فى شكلها عن نظرية لوكليز . فكل المؤرخين اعتمد فى بحثه على الازدهار الذى كان قائما بالاندلس فى هذا الميدان وربطه بالحالة فى المغرب فى نفس العصر ، وكلاهما ذهب الى أن الانحطاط الذى أصاب الشرق العربى أصاب المغرب فى نفس الوقت ، بمعنى أن ظاهرة الانحلال السياسى وتقهقر الاوضاع الاقتصادية حلت بالمغرب كما حلت بالمشرق بدون أدنى فرق ولا تفاوت لا فى الزمن ولا فى المكان . وإذا كانت هذه النظرية تعتمد على شئ من الصحة وقليل من الحجج الواقعية(2) فإن لنا رأيا خاصا وهو ان المغرب، بقطع النظر عن صلاته بالشرق وبالاندلس اللذين كانا يمدانه بكثير من الابحاث والاطباء ، كان له نشاط طبي تقليدى يعتمد على التجارب الواقعية والاحداث التى مرت بالاجيال السابقة والتى عرف فيها المغاربة الاطباء كثيرا من النجاح والتوفيق . فالطب التقليدى كان مزدهرا بالمغرب كما هو مزدهر الآن ببعض الاقطار الاسيوية كالصين مثلا حيث توجد جامعة خاصة بهذا النوع من الطب الى جانب جامعات عصرية وقد ذكر بنسبون فى بحثه حول انطب والاطباء بالمغرب (3) : «انه يجب ان نلاحظ ان الطب التقليدى بالمغرب كان يستعمل فى عدة حالات أنواعا من العلاج لم يعد نزاع فى جدواها وكثيرا ما كان الطب التقليدى ينجح فى معالجة أمراض يخفق فيها الطب الذى يعتمد على النظر والبحث المجرد مثال ذلك ما وقع لآبى عبد الله محمد الفهرى أو الشفيرة (حسب بعض المصادر) الجراح الشهير الذى يخفى عن نفسه (4) انه حاز فى معالجة امرأة

(1) مخطوط وضعه وعن اشارتنا الاستاذ عبد السلام ابن سودة .

(2) لقد سبق للدكتور لوكليز ان عبر عن اسفه لعدم استطاعته زيارة المغرب ولا سيما مدينة فاس كما جاء فى كتاب الطب والاطباء بالمغرب لعبد العزيز بن عبد الله (طبعة الرباط 1960) صفحة 91 .

(3) انظر المرجع السابق صفحة 75 حيث يستشهد الاستاذ ابن عبد الله بآراء الطبيب بنسبون الذى كتب بحثا حول الطب بالمغرب مجلة المغرب الطبى (شتنبر 1951) .

(4) انظر فى مجلة هيسبريس (عدد 20 سنة 1935 صفحة 3) بحثا للدكتور رينو عنوان جراح من مملكة غرناطة .

من قبيلة بنى العلاء أصيبت بقروح كبيرة فى رأسها فرفض معالجتها وترك الامر لحجّام اعتنى بها . هذا ولقد تحدث الدكتور رينو بتفصيل فى كتابيه الطب بالمغرب (I) والصحة والطب بالمغرب (2) عن وسائل العلاج التقليدية التى كانت مستعملة فى المغرب مشيدا فى كثير من الاحيان وتأثيرها بجداولها الصحى المباشر نذكر من ذلك (3) أن المغاربة كانوا يعالجون النزيف بمسحوق اليفطين ودقيق الفول، كما كانوا يتخذون الكى لمقاومة هذا النزيف ، ومن بين الوسائل التى كانت رائجة فى القديم عملية الدلك التى كان يلجأ اليها عندما يصاب المريض بكسر أو ما يشبه الكسر مع اطعام المريض ببعض المواد الغذائية الغنية بالفوسفات والجير ، وكانت أمراض الاذن (4) تعالج بالجاوى والزعفران والزيت ، وذكر أيضا استنادا الى الدكتور رينو أن أطباء العيون المغاربة ، كانت لهم «أساليب مفيدة لمعالجة أنواع الرمد ولهم فيه مهارة ؛ ويستطيعون أن يزيلوا محذ: غشاوة العين المانعة من الابصار ، بل يتقنون عملية أصعب من هذه» وهكذا تدلنا هذه الامثلة القليلة على أن المغاربة لم يعدوا أطباء مهرة استطاعوا بخبرتهم الطويلة وبتجاربهم المبنية على بعض التقاليد المتوارثة أن يقاوموا أمراضا خطيرة وينجحوا فى بعض الاحيان حيث تخفق عمليات الطب النظرى المبنى على البحث المجرد . حقا لم تظهر نظريات جديدة أو اكتشافات جديدة بالذكر كالاكتشاف الدورة الدموية التى قام بها ابن نفيس المصرى (5) فاقصر الامر على دراسة ومراجعة كتب ابقراط وجالينوس وديجينوس وابن سينا وابن البيطار والانطاكى وغيرهم من التبايع الذين لعبوا فى الطب دورا أو تناولوا الكتب القديمة بالشرح والنظم والتعليق، ولكن الطب العمى كما ، رأينا ظل نشيطا ومستمر يعالج الامراض على اختلاف أشكالها وتنوع مظاهرها . ولنرجع لنتساءل مرة أخرى عن أسباب هذا الجمود الذى وصف به الطب لمغربى فى عصر بنى مرين - هل كان هناك ، فى البيئة المغربية ، ما يقاوم النشاط الطبى أو يعرقل تطوره كما حدث بالنسبة للفلسفة أو بعض العلوم المتصلة بها يوم كان الفقهاء ورجال الدين بصفة عامة يصبون جام غضبهم وحقدهم عليها ويكيدون ويتآمرون للقضاء عليها وعلى أصحابها هل كانت تتعارض مع هذه العلوم فى فروع من فروعها ؟ لا نظن ذلك لان الواقع المغربى آنذاك يشهد بالعكس يشهد باعتناء الملوك بالطب وبالاطباء وبجميع ما له صلة بهما ؛ والشعب نفسه كان من مصلحته أن يعمل كل ما من شأنه أن ينهض بهذه العلوم وينمى مستواها نظرا

(1) نشرة معهد الدروس العليا بالرباط سنة 1939 عدد 1 .

(2) نشر بالجزائر 1950 .

(3) عبد العزيز بن عبد الله الطب والاطباء بالمغرب (الرباط 1960) ص 72 .

(4) نفس المرجع صفحة 73 .

(5) اكتشف (ابن نفيس الدورة الدموية الصغرى قبل الغربيين بنحو ثلاثة قرون

لما يجد فيها من تحقيق لمصلحته الشخصية ومقاومة بعض الامراض التي كانت تفتك به أيام المجاعات التي عرفها في هذا العصر والطاعون الذي حل بالمغرب بصفة خطيرة كما حل بأقطار العالم الاخرى ان التاريخ يشهد لبنى مرين باعتنائهم الخاص واهتمامهم المتزايد بهذا النوع من المعرفة والنشاط فكان اهتمامهم هذا يشمل الناحية النظرية والناحية العملية في نفس الوقت ، ولذلك أصبحنا نرى في هذا العصر كثيرا من الاطباء يخصصونهم بأبحاثهم ويقدمونها لهم كهدايا ثمينة كالارجوزة (I) التي نظمت وقدمت لابي سعيد عثمان المريني وكعمل «من طب لمن حب» لابن الخطيب لسان الدين الذي ألفه وقدمه هدية لابي سالم بن أبي الحسن المريني ، ويعتبر من المؤلفات القيمة التي ألفها ابن الخطيب في الطب كما شهد بذلك الكانوني (2) وغيره ، ويوجد الآن بخزانة القرويين تحت عدد 3657 ضمن المخطوطات المغربية ، ولقد سبق أن رأينا أن هؤلاء الملوك كانوا يتحملون بعض الفلاسفة رغم كراهيتهم الشديدة للفلسفة ويفضون الطرف عنهم نظرا لاشتغالهم بالطب أو بالرياضيات أو بالادب أو بفنون اخرى .

ومهما يكن من أمر فالنشاط الطبي كان في هذا العصر يتجلى في مظهرين اثنين : مظهر علمي نظري يتعلق بالاطباء وبانتاجهم ومظهر ثان يتمثل في الممارسات التابعة لها .

الممارسات :

لقد تعرضت المصادر التي اهتمت بتاريخ بنى مرين الى هذه المنشآت العمرانية التي أسست في هذا العصر لكنها في تعرضها هذا كانت وجيزة عابرة ثم كثيرا ما اختلفت في تسمية هذه المؤسسات التي كانت في نظر البعض مدارس طبية أو مستشفيات بمعناها الحديث أو ممارسات خاصة بالعلاج وباطعام المساكين والمعوزين . وهكذا وقع الخلط والالتباس في موضوع يكتسى صبغة هامة بالنسبة لتاريخ الحضارة المغربية في عصر بنى مرين ولا سيما الجانب الاجتماعي منها . مثال ذلك ما وقع في تسمية المارستان الذي بناه أبو عنان المريني بسلا ؛ فقد ذكر الكانوني (3) أنه كان «مدرسة على ما جزم به الشيخ الوالد المقدس في تاريخ الاستقصاء

(I) الارجوزة موجودة اليوم بالخزانة العامة كمخطوط يحمل رقم د 79 ومؤلفها ظل مجهولا الى اليوم .

(2) انظر مخطوطه صفحة 28 .

(3) انظر مخطوطه صفحة 29 .

أو مارستانا على ما حققه تلميذه المحقق الفاضل السيد محمد بن علي في تاريخه الاتحاق، ويتدخل الكانوني للتوفيق بين هذا الخلاف قائلا : « ويمكن الجمع بين كونه مدرسة ومارستانا بأنه كان أقساما على حسب المدارس الكبرى الطبية والعلمية فقد كانت المارستانات الاسلامية جامعة بين مواضع المرضى ومواضع الاطباء ؛ وغالبا ما كان هؤلاء الاطباء يشتغلون في بعض الاوقات بتحضير الادوية واستخراجها من المواد الكيماوية ويعلمون التلاميذ صناعة ذلك علما وعملا فكان القسم المعين للتعليم والقاء الدروس مدرسة ويسمى مارستانا باعتبار القسم المخصص للمرضى والمجانين ومن في معناهم وهذا شأن الكليات الآن في العواصم الاوروبية والمدن الكبرى ؛ فلا تنافر بين تسميته مدرسة أو مارستانا بحسب هذا الاعتبار . » واذا كنا لا نريد الدخول في مناقشة هذا الرأي فان الغالب على الظن أن المارستان كان في غالب الاحيان مكانا معدا للحق والمجانين وذوى العاهات العقلية والامراض النفسية يحسبون فيه خاضعين لنظام طبي الى أن يعالجوا بصفة نهائية اما الدروس النظرية فقد كانت تعطى ببعض المدارس التي بناها بعض ملوك بني مرين ، ولقد بقي هذا التحديد الذي أوردناه جاريا اليوم على السنة العوام الذين كثيرا ما يرددون اسم المارستان في حديثهم عن الحق والمجانين ؛ ولقد بقيت بعض آثار هذه المارستانات الى اليوم شاهدة بما كان لبنى مرين من عناية بهذا الجانب الاجتماعي كما تدل في اغلبها على امكنة خاصة لمعالجة نوع معين من الامراض العقلية والنفسية . ولا يزال المراكشيون يعرفون مكان وأنقاض المارستان الذي كان قائما بالطالعة بالقرب من جامع ابن يوسف وهم لا يتحدثون عنه الا كمكان خاص بالمجانين أما المارستان الذي بناه أبو عنان المريني بمدينة سلا فما زال يحمل اسمه الى اليوم وهو من أعظم المارستانات التي بناها بنو مرين ، ويوجد قريبا من باب حسين ويتوفر على بنايات ضخمة يغلب على الظن أنها كانت بيوتا يحبس فيها المرضى ويعالجون ، ويحكى بعض المؤرخين أن هذا المارستان كان قبل بنائه فندقا للزيت الى أن تولاها أبو عنان بعناية فبناه ثم جلب له الاطباء المهرة ليعالجوا المرضى المقيمين فيه ؛ كما عين موظفين ليشرفوا على تسييره وأغدق عليهم أموالا كثيرة مقابل خدمتهم الادارية والاجتماعية ؛ وكذلك مستشفى مدينة فاس الذي كان على جانب كبير من الاهمية نظرا لوجوده بعاصمة المملكة المغربية آنذاك ولقربه من ملوك بني مرين أنفسهم الذين كانوا ، كما أسلفنا ، لا يألون جهدا في النهوض بهذه المؤسسات الاجتماعية ، وهذا المستشفى الذي يطلق عليه مستشفى أبي الجنود هو من تأسيس أبي يوسف يعقوب المريني . ومن أهم المارستانات بفاس مارستان سيدي فرج الذي كان مخصصا لحبس الحق والمجانين ولعلاجهم فيه بالموسيقى والغناء مع استعمال آلات الطرب المختلفة ؛ وقد كان على أرباب الطرب (I) «أن يحضروا في كل أسبوع مرة أو مرتين لان ذلك يفيد في اشراح

(I) الكانوني تاريخ الطب العربي بالمغرب صفحة 38 (مخطوط خاص) .

انصدر وانعاش الروح فتقوى ضربات القلب وتعود الاعضاء الجسمية الى تأدية وظائفها وهكذا كان اللجوء الى الموسيقى والغناء من الوسائل النافعة لعلاج داء الحمى كما هو الشأن اليوم في مستشفياتنا العصرية ، والى جانب هذه المستشفيات المنتشرة في نواحي البلاد كانت هناك ارباض خاصة بالمصابين بداء الجذام وكان يشرف عليها نظار وعدول لتسيير الاموال والاملاك التي كانت توقف عليها من طرف الرؤساء وبعض العناصر الشعبية الموسرة وقد أشار بعض المؤرخين الى أن هذه الارباط كانت كثيرة بفاس وضواحيها وبمراكش أيضا حيث كانت بعض الحارات مأوى للمجذومين الذين كانوا يلجأون بل ينقلون اليها ويعزلون عن غيرهم من المارة والسكان الى أن يشفوا نهائيا ؛ وبعض آثار هذه الارباط والحارات ما زال ماثلا للعين كاتقاض أو كاسوار انطمست معالمها الاصلية . لان الناس ما زالوا يعرفون موقعها ويتحدثون عنها خصوصا بحومة باب دكالة (I) .

الا أن الظروف سرعان ما تبدلت بتبدل الاحوال السياسية وتقهقر الاوضاع الاقتصادية فأصبحت هذه المنشآت الطبية تبعا لذلك في الصميم وانهارت معالمها وانطمست مآثرها وأسرع الى جملها الخراب بعد أن هجرها اطباؤها ومسيروها لما لحقهم من ضعف وخوف على مستقبلهم الذي كانت تتهدده الاخطار من كل ناحية ، وقد حدث ذلك عندما أصيبت أجهزة الدولة بالضعف والوهن وتضافرت عليها أواخر القرن الثامن الهجري عوامل الضعف والانحلال من اضطرابات سياسية داخلية وأمراض وبائية وضربات قاسية آتية من تدخل بنى الاحمر في الشؤون الداخلية واحتلال الاسبان والبرتغال لمدن المغرب الساحلية فأصبح ، نتيجة لذلك ، بعض ملوك بنى مريّن يطمعون في أخذ الاموال والاملاك التي كانت توقف على هذه المارستانات والمستشفيات ، تسديدا للعجز الذي حل بهم وبشؤون دولتهم وليس بغريب أن يقع مثل ذلك في أيام السلطان أبى سعيد عثمان المريني (2) الذي كان يتخبط في مشاكل سياسية خطيرة أدت به ، تلافيا للعجز ، الى التسلط على الاموال التي كانت مرصدة لهذه المؤسسات الاجتماعية فصرفها عبثا في قمع الثورات التي كانت تنشب ضده من حين لآخر . ويحكى عنه الكانوني (3) «انه قامت عليه ثورات أوجبها اختلال توازن السياسة ولم يكن لديه من المال ما يجهز به الجيش الكافي لخماد الثورة فأشار عليه بعض شياطين الانس الى الاموال المرصدة لهذه المستشفيات، فأرسل بعض وزرائه لتنفيذ هذه الخطة ، فعارضته الامة الفاسية معارضة ووقفت في

(I) من الابواب الرئيسية بمراكش .

(2) الكانوني ص 38 .

(3) ن . م ص 38

وجهه فقال لهم ان هذه الملاجئ نفسها وأوقافها من صدقات أجداد الامير ، وحيث كان كذلك فمن حقوق الملك أن يفوت هذه الاملاك . ولم يزل هذا الموظف يحتج لهذه النظرية ويؤيدها حتى اقتنع الناس بذلك وبيعت تلك الاملاك الوافرة ؛ ولكن تلك التوراث انتهت بقتل الملك ولم تعد المستشفيات الى ما كانت عليه بل تدهورت حالتها وبقيت بيد بعض الاعيان من أهل فاس وبعض الاطباء هذا خبر أوردناه ، رغم طوله ، لما له من أهمية بالنسبة لموضوعنا وهو يعطينا فكرة عن مدى تدهور الحالة السياسية والاقتصادية ونتائج ذلك بالنسبة للمستشفيات والمرستانات والمؤسسات في عهد بني مرين .

ذلك هو الجانب العملي من النشاط الطبي الذي كان قائما في هذا العصر أما الجانب النظري فقد كان يتجلى في تخرج الاطباء ونبوغهم وما خلفوه من انتاج . ورغم كون هؤلاء الاطباء كانوا ، كما أسلفنا ، الى جانب اشتغالهم بهذا الفن يلمون بفنون أخرى فاننا سنورد هنا أسماء بعض الشخصيات التي كانت لامعة في هذا العصر مقتصرين على أكثرها تأثيرا في الميدان

محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي من قبيلة العزفيين المشهورين بسببته بنفوذهم السياسي والمعنوي وثقافتهم الواسعة . كان أحد رؤساء سبته حيث عين بعد أبيه عام 719هـ على حد قول ابن القاضي (1) وخلع سنة 725هـ حسب ما ذكره الكانوني (2) . وكان له الامام كبير بالطب وفن التوشيح ، رغم كوننا لم نقف له على أثر في هذا الميدان . ولقد انتقل الى مدينة فاس بعد خلعه فأقام بها كاتباً لملوكها الى أن توفي سنة 768هـ بنفس المدينة التي رحل اليها .

وفي نفس العصر كان حيا الطبيب الماهر والفيلسوف الشهير احمد بن محمد بن شعيب الجزنائي الفاسي انتقل الى فاس من قبيلة جزناية الريفية . درس بفاس على كثير من أساتذتها منهم الاستاذ أبو عبد الله ابن جروم وأبو عبد الله بن رشيد الفهري صاحب الرحلة المشهورة . كان الى جانب اشتغاله بالعلوم الطبية والفلسفية والطبيعية من أكبر حفاظ الشعر : فقد ذكر ابن الخطيب (3) أنه كان يحفظ 20 000 ألف بيت من الشعر . ولقد رحل الى تونس فأخذ الطب والهيئة على الشيخ يعقوب بن الدارس ومهر في الطب والفلسفة والكيمياء وخلع العذار فيها ، وكان إماما

(1) جذوة الاقتباس (المطبعة الحجرية بفاس) صفحة 241 .

(2) انظر مخطوطه الذي تحدثنا عنه فيما سبق . ص 18 خلافا لابن القاضي الذي يرجع تاريخ وفاته الى سنة 720 .

(3) الاحاطة (طبعة مصر المجلد الاول) صفحة 198 .

فى الطب ماهرا فى صناعته دقيق النظر فيه ، غاية فى معرفة النباتات والاشجار، كانت وفاته بتونس سنة 749هـ .

ومنهم غالب بن على بن محمد اللخمي الشقورى أبو تمام . ترجم له الدكتور لوكلير (I) لكن ترجمته هذه كانت وجيزة جدا . نشأ بفرناطة ثم رحل الى المشرق ليؤدى فريضة الحج فنزل بالقاهرة عند رجوعه فتعاطى فيها بصفة خاصة لدراسة الطب حتى حصلت له ملكة كبيرة فيه . ففقل راجعا الى مدينة فاس حيث أصبح فى خدمة أبى سعيد المرينى ثم فى خدمة ابنه السلطان أبى الحسن . وتنص بعض المصادر على أنه عين من طرف مخدومه أبى الحسن ثم صار من أطبائه الخاص الى أن توفى فى احدى المعارك التى خاضها أبو الحسن سنة 741هـ . ذكر الدكتور لوكلير وغيره من المؤرخين أنه ترك مؤلفات قيمة جدا فى الطب الا أننا لم نعتز عليها مع الاسف .

ومنهم كذلك الطبيب الشهير على بن عبد الله بن هيدور التادلى الفاسى أبو الحسن . كان مشاركا فى فنون كثيرة لكنه اشتهر بالطب اذ ترك فيه أثرا يدل على تفضله فيه وهو عبارة عن رسالة سماها المقامة الحكيمة فى الامراض الوبائية ولقد ألفها فى هذا العصر الذى اجتاحت فيه الطاعون المغرب وغيره من الاقطار العالمية الاخرى . توفى فى المجاعة التى حلت بالمغرب سنة 826هـ .

والطبيب الجراح على ابن أبى غالب الادريسى المولود بفاس سنة 765هـ والمتوفى فيها سنة 801هـ يحكى عنه الكانونى (2) أنه نشأ يتيما تحت حضانة والدته فعلمته صناعة الحجامة ثم درس الطب حتى مهر فيه واشتهر وأخذ يباشر العمليات الجراحية فكان موفقا فيها ، الشيء الذى لفت الانظار اليه وجعل الطلبة وغيرهم يقصدونه من كل حذب وصوب لياخذوا عنه أو لينتفعوا بنصائحه وارشاداته العلمية. ولقد حاولنا التعرف على ما قد يكون تركه من أثر لكن المصادر التى وقفنا عليها لم تشير لا بقليل ولا بكثير الى انتاجه أما لضياع واما لاهمال .

وفى هذا العصر كان يعيش فى ظل بنى مرين الطبيب القرشى أبو بكر المالقى . انتقل من مالقة الى غرناطة ثم الى فاس حيث استقر وأخذ يباشر مهنة الطب كما عين على رأس مارستان فاس الشهير مدة طويلة للثقة التى كان يحظى بها لدى رؤسائه وكانت وفاته سنة 754هـ .

1/ فى كتابه تاريخ الطب العربى (باريز 1876) صفحة 243 .

2/ نفس المصدر صفحة 28 .

أما الوزير لسان الدين ابن الخطيب فهو غنى عن البيان والترجمة في هذا الميدان نظرا لشهرته الواسعة ومؤلفاته الطبية القيمة ولقد أحببنا ان نخصه بترجمة كافية في غير هذا المكان ونتعرض لبعض مؤلفاته الطبية . أما الآن فنذكر منها المسائل الطبية ، الرجز في عمل الترياق ، اليوسفى في الطب ، رسالة تكوين الجنين ؛ الوصول لحفظ الصحة في الفصول ؛ رجزى الطب رجز الاغذية ، البيطرة والبيطرة ، مقنة السائل عن المرض الهائل وهي رسالة كتبها عن الطاعون الذى حل بالمغرب وغيره من الاقطار سنة 749هـ ، ثم مؤلفه الشهير عمل من طب لمن حب الذى تعرضنا اليه في فصل سابق .

الخاتمة

وبعد ، هل عرف المغرب فى عهد بنى مرين نهضة ادبية ؟

تعتبر المظاهر الادبية التى درسناها فى هذا العرض الوجيز نتيجة حتمية لما قمنا به من تحليل للبيئة المغربية التى تميزت فى عهد بنى مرين بسميات خاصة ، كان لها من المفعول المباشر والاثار القوي ما جعل أبناء المجتمع المغربى مع رؤسائهم يتجهون فى تفكيرهم ، وفى ثقافتهم ، وفى سلوكهم المادى والروحى ، اتجاها بقى بعضه اثرا الى اليوم . بقيت بعض الآثار تشتمل على ازدهار الفن العمرانى فى عصر بنى مرين وتدل على ما كان يبذله الفقهاء والعلماء والادباء من جهد فى ميدان العلم والادب . واذا كانت بعض الظواهر الروحية طغت على كثير من مرافق الحياة وحالت دون انطلاق الشعر والنثر الفنى انطلاقهما فى الشرق العربى وفى الاندلس فلن ما تحفل به المكتبات العامة والخاصة لشاهد على تراث فكرى ضخم تركه لنا العلماء والفقهاء فى نفس العصر .

ويرجع الفضل فى كثير من النشاط الادبى الى مجاورة المغرب الاقصى للمغربيين الاوسط والادنى وللاندلس على الخصوص ، تلك المجاورة التى آتت بخيرها وشرها ، وخلقت فى المجتمع المغربى تيارات فكرية وحضارية وأدبية حركت النفوس ، ونهضت بالهمم ، وقوت العزائم وأثارت التنافس بين العناصر المختلفة المتعايشة . فكان بنو مرين أنفسهم فى المقدمة يعطون المثال بمواقفهم وأنواع سلوكهم ؛ فلم يقع اصطدام بينهم وبين سائر الطبقات الاجتماعية التى ظلت تكن لهم المحبة الصادقة والاخلاص المتين ويتجاوبون معهم نجابا عميقا . فكان ذلك الانسجام عاملا من عوامل الوحدة والعمل المشترك الذى ظل يسود البلاد - باستثناء دسائس داخلية -

الى آخر أيام بنى مرين حيث استفحل الخلاف الداخلى وانحلت الاوضاع السياسية فتسربت عناصر أجنبية تثير الفتنة وتوقد نار الحرب الداخلية .

على أنه ليس معنى هذا أن المغرب كان عالة على غيره فى جميع مجالات حياته الفكرية ذلك أنه أخذ وأعطى بحكم التبادل الثقافى الفردى والاجتماعى الذى ساد العالم العربى بأجمعه لاسيما فى العصور الوسطى . فالمغربى كان يتنقل من وطنه الى البلدان الشرقية بقصد أداء فريضة الحج وبقصد الاتصال بالعلماء والادباء ليأخذ عنهم ويتحقق من رواياتهم ومن سندهم . لكنه كذلك كثيرا ما كان يستقر بهذه البلدان ويعمل فيها اما كأستاذ واما كقاض أو كامام فى المساجد ، فيطلع أهل المشرق على نشاط وطنه ويفيد بعلمه وبتدريسه وانتاجه . وكذلك كان الامر بالنسبة للمشرقى وللاندلسى وللجزائرى وللتونسى مما كون شبه وحدة ثقافية بين أجزاء العالم العربى كله رغم انفراد الثقافة المغربية بمميزات خاصة تجلت فى تشبثها بالخط العربى المشتق من الخط الكوفى القديم وفى ترتيبها الخاص للحروف الهجائية، وفى استعمالها أرقاما لا يستعملها المشاركة وغير ذلك من المميزات التى طبعت شكلها وجوهرها والتى لا يتسع لها المجال هنا لذكرها كلها .

وإذا كان بعضهم قد اتهم المجتمع المغربى بالقصور والتقليد الاعمى ، فإن الواقع ينفى هذه التهمة ويؤيد أن المغاربة كغيرهم من الشعوب ، كانت لهم شخصية قوية ظهرت آثارها فى ميدان السياسة والاجتماع وكذا فى ميدان الثقافة والادب ، لاسيما الادب الروحى والعلوم الدينية لان التقليد ليس معناه أن يشبه انتاج فرد انتاج فرد آخر فى هذا الميدان أو ذاك . اذ من الممكن نفسيا واجتماعيا أن يتصارع شخصان ويتغالب فيصلا الى نتيجة واحدة . فمن الغالب اذن من المغلوب ؟ ان التيارات الاجتماعية واسعة النطاق وتجتاح مجتمعات كثيرة فى نفس الوقت . فكيف يدعى شخص الاستاذية المطلقة ؟ يمكنه أن يدعى التفوق فى بعض الميادين وفى بعض الجزئيات لكنه لا يصح له أن يدعى التفوق المطلق . قد يكون المغرب كما رأينا قد تأثر قليلا أو كثيرا فى ميادين خاصة بالتيارات الاجتماعية أو الادبية الاجنبية لكن شخصيته بقيت واضحة المعالم بارزة الاصاله والقوة .

والا فمن ذا الذى يزعم أن بنى مرين (والشعب من ورائهم) لم يكونوا شجعانا وذوى سياسة محكمة ؟ من يستطيع الادعاء أنهم تقاعسوا وركنوا الى الراحة والتلذذ بنعيم الحياة ، لقد رأيناهم يواجهون المعارك فى عدة واجهات . حاربوا بكل ما كانوا يملكون من شجاعة مادية ومعنوية فى طليعة الاندلسيين حتى كان لهم الفضل فى ابقاء غرناطة مدة طويلة واستمرارها فى الحياة تحت ظل بنى الاحمر الى أن سقطت نهائيا فى يد الاسبان . نعم ، حاربوا فى الداخل والخارج لاقرار الامن كما قاوموا كثيرا من الفتن فى المغربين الاوسط والادنى من أجل اقرار وحدة مغربية قوية يستطيع بها المسلمون أن يواجهوا العدو والاجنبى مهما كانت الظروف . وإذا كان

النجاح لم يحالفهم فى أهدافهم كلها ، فقد استطاعوا أن يطبعوا المغرب بطابعهم الخاص ، الذى ظل أثره قويا فى سائر مرافق الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية والعمرانية على الخصوص .

أما الادب بمعناه التقليدى (يعنى الشعر والنثر الفنى) اذا كان لم يبلغ مستوى بيئات أخرى ، اذا كان قد ظل منحصرا فى ميدان ضيق بحكم الظروف التى كانت تحيط به وتقلص من ظله نظرا للنزعة الروحية الطاغية عليه ، ونظرا لخلوه من شعر الطبيعة وأغراض أخرى مختلفة ، فان شخصية الإبداع المغاربة تجلت فى ما خلفوه من آثار علمية ضخمة وأدبية وفى ما تركوه من كتب فقه ، وحديث وتفسير . ولغة ونحو أدب لاسيما أدب الرحلات التى اشتهر بها المغرب والادب الدينى الذى وقفنا على كثير من مظاهره ألا يمكن أن يعوض هذا الانتاج الضخم ما سبق أن رسمناه من نقص فى ميادين أخرى ؟ ومهما يكن ، فإى بيئة خلت من مواطن الضعف والقوة ؟

وخلاصة القول ان المغرب فى عهد بنى مرين عرف نهضة أدبية من نوع خاص ، اكتست صبغة دينية قبل كل شئ وانطبعت بطابع البرجوازية اذ عاش جل الإبداع والعلماء والفقهاء فى ظل الملوك وأنتجوا انتاجا كان فى غالب الاحيان لهؤلاء الملوك بايحاء أو بتشجيع منهم كما عاشت هذه النهضة بين جدران المدن الكبرى وبعض المراكز التى كان لها حظ من الحضارة والعمران .

المراجع

لم نكتف باثبات المراجع التي اعتمدناها مباشرة ولكن أضفنا اليها مصادر أخرى لها صلة بالبحث وذلك لمساعدة من يريد التوسع في الموضوع :

١ - المراجع العربية :

ابراهيم : عباس ابن المراكشي .

الاعلام من حل مراكش وأغمات من الاعلام 5 أجزاء
(فاس 1356هـ) .

الابرار : أبو عبد الله محمد ابن
كتاب التكملة لكتاب الصلة (طبعة مدريد 1886) .

الاحمر : أبو الوليد اسماعيل ابن

١ - روضة السريرين في دولة بني مرين . مطبوعات
القصر الملكي (الرباط 1962) .

٢ - مستودع العلامة ومستودع العلامة تحقيق محمد
التركي التونسي منشورات جامعة الرباط بدون
تاريخ - ومراجعة محمد بن تاويت التطواني .

أجروم : أبو عبد الله ابن
المقدمة شرحها الأزهرى .

احمد بابا : أبو العباس III التميمي .
نيل الابتهاج بتطريز الديباج (مصر : 1951) .

اصيبيعة : ابن أبي .
عيون الانباء في طبقات الاطباء (بيروت : 1376هـ) .

أمين : أحمد
ظهور الاسلام الجزء الاول (القاهرة 1946) .

أمين : مصطفى
تاريخ التربية (مصر 1926) .

ادهم : علي
بين الفلسفة والادب (دار احياء الكتب العربية 1945) .

- بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن
تحفة النظر في غرائب الامصار عجائب الاسفار (مصر 1924)
- بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن
كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس (مدريد 1882)
- البناء أبو العباس احمد ابن
I التلخيص (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ج II45)
2 منهاج الطالب في تعديل الكواكب (مخطوط الخزانة العامة
بالرباط رقم 325) .
- بنعبد الله عبد العزيز
I مظاهر الحضارة المغربية جزآن . (الدار البيضاء : دار
السلمي الطبعة الاولى 1957 - 1958) .
2 الطب والاطباء بالمغرب (المطبعة الاقتصادية)
- التطوانى محمد بن أبى بكر
ابن الخطيب من خلال كتبه
(تطوان : مطبعة كريما س 1959)
- تاويت محمد ابن - بالاشتراك مع محمد الصادق عفيفي
الادب المغربى (بيروت 1960) .
- الجزنائى أبو الحسن
زهرة الآس فى بناء مدينة فاس (الجزائر 1340هـ)
- جنادر محمد أيوب
مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط 1345هـ)
- حسن حسن
حسن ابراهيم
تاريخ الاسلام أربعة أجزاء (مصر 1958)
- الحجوى محمد بن الحسن الثعالبي
الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى 4 أجزاء (الرباط
1354هـ) .
- حاجى خليفة

كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون (ط. استنبول
1360هـ)

الحبابي

محمد عزيز
مفكر الاسلام (الرباط 1945)

خلدون

عبد الرحمان ابن -

1) المقدمة (نشر مصطفى محمد بدون تاريخ)
2) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر 7 أجزاء (القاهرة
1284هـ)

3) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، نشر محمد
ابن تاووت الطنجي (القاهرة 1951)

الخطيب

لسان الدين أبو عبد الله محمد ابن

1) الاحاطة في أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان
(مصر بدون تاريخ)

2) كتاب المعيار في ذكر المعاهد والديار (مخطوط الخزانة
العامة بالرباط رقم : د 1092) .

3) عمل من طب لمن حب (مخطوط خزانة القرويين بفاس
رقم 3658)

4) الاعلام بمن بويغ قبل الاحتلام (مخطوط الخزانة العامة
بالرباط رقم د 1552)

5) كتاب الوصول في حفظ الصلحة في الفصول (مخطوط
الخزانة العامة بالرباط رقم د 652)

داود

محمد

تاريخ تطوان . المجلد الاول والثاني والثالث
(تطوان المغرب) مطبوعات معهد مولاى الحسن (بدون تاريخ)

داود

أبو القاسم بن السلوى

نوادير النظام في شرف سيدي الانام (مخطوط الخزانة العامة
بالرباط ح ك 360)

رشيد

أبو عبد الله محمد بن عمر ابن

رحلة ملء القبية فيما جمع بطول القبية في الوجهتين
الكريمتين الى مكة وطيبة (مصور الخزانة العامة بالرباط
رقم 127)

- الرجراجى عبد الله بالاشتراك مع س. علوش (باريز 1954)
فهرس المخطوطات
- الزيات يوسف التادلى ابن
التشوف الى رجال التصوف (نشرة ادولف فور بالرباط
سنة 1958)
- الزبير أبو جعفر احمد ابن
صلة الصلة نشره ليفى بروفتال (الرباط 1938)
- الزبيدى أبو بكر محمد بن الحسن
طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل
ابراهيم (مصر : الطبعة الاولى 1954) .
- زيدان عبد الرحمان ابن
اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (الرباط
347 I - 1352هـ)
- زهرة محمد أبو
ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه
(دار الفكر العربى بدون معلومات أخرى)
- زيدان جرجى
تاريخ التمدن الاسلامى 7 أجزاء
مراجعة الدكتور حسين مؤنس (مصر بدون تاريخ)
- كنون عبد الله
I) النبوغ المغربى فى الادب العربى 3 أجزاء (بيروت : الطبعة
الثانية 1961)
2) مشاهير رجال المغرب من I الى 7 (تطوان : مطبعة كريماس
بدون تاريخ)
- الكانونى محمد بن حمو العبدى
الطب بالمغرب (مخطوط خاص)
- الكتانى محمد بن جعفر
سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس فيمن أقبر من العلماء
والصلحاء بمدينة فاس (1312هـ)
- مالك أبو عبد الله محمد ابن
الالفية . نشرها ابن عقيل ، جزآن (مصر 1961)

- مرزوق ابن الخطيب محمد
المسند الصحيح الحين في مآثر مولانا أبي الحسن (مخطوط
الخزانة العامة بالرباط رقم III ق)
- الموقت محمد ابن
السعادة الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية
(طبعة فاس 2336م)
- المقرى احمد بن محمد
I) نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب . تحقيق محمد
محي الدين عبد الحميد IO أجزاء (الطبعة الاولى
مصر 1949)
2) ازهار الرياض ، نشر مصطفى السقا وابراهيم
الابيارى وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة 1939 - 1942)
- متز آدم
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج : 2
نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو زيدة (القاهرة 1957)
- مؤلفون مجهولون :
- الذخيرة السنية في تاريخ الدول المرينية نشر ابن أبي
شنب (الجزائر 1920)
بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته في الدولة
المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب نشره محمد بن
تاويت في مجلة تطوان ع : 9 سنة 1964 .
- المراكشى عبد الواحد المراكشى . ضبطه وصححه وعلق عليه محمد
سعيد العريان ومحمد العربى العلمى (القاهرة : 1949)
- المنونى محمد
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين (تطوان 1950)
- المرحل مالك ابن
الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة .
مخطوط الخزانة العامة بالرباط 89 ج
- الملزوزى أبو فارس عبد العزيز
نظم السلوك فى الانباء والخلفاء والملوك (المطبعة الملكية
بالرباط سنة 1963)

- الناصرى أبو العباس احمد بن خالد
الاستقصاء لاختبار دول المغرب الاقصى 9 أجزاء (الدار
البيضاء 1956)
- التميشى أحمد
تاريخ الشعراء بفاس (فاس 1343هـ) .
- صاحب الصلاة عبد الملك ابن
تاريخ المن بالامامة ، تحقيق عبد الهادى التازى
(بيروت 1964)
- عسكر محمد بن على ابن
دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن
العاشر (المطبعة الحجرية بفاس بدون تاريخ)
- عذارى ابن المراكشى
البيان المغرب فى اخبار المغرب نشر الجزء الاول والثانى
دوزى (طبعة ليدن 1948 - 1851) ونشر الجزء الثالث
ليفى يروفانسال (باريز 1930)
- عبد الملك ابن المراكشى
الذيل والتكملة (مصور الخزانة العامة بالرباط رقم 98)
- عنان محمد عبد الله
1) نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين (مصر القاهرة :
الطبعة الثانية 1958)
2) ابن خلدون (القاهرة 1953)
- عياض القاضى
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك
الجزء الاول تحقيق محمد بن تاويت الطنجى (الرباط
وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية 1965)
- العبدري أحمد
1) الرحلة المغربية تحقيق احمد بن حدو . نشر كلية الآداب
الجزائرية بدون تاريخ
2) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 1012 و ك 356 .

- العبادي أحمد مختار
مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس
(الاسكندرية 1958)
- غازي محمد بن عثمان ابن
1) الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون (المطبعة الملكية
بالرباط 1964)
2) بغية الطلاب في شرح قيمة الحساب
- الغزالي أبو حامد
أيها الولد نشر الاونسكو (بيروت 1959)
- الفاسي محمد المهدي
1) تحفة أهل الصديقة بأسانيد الطائفة الجزولية (مخطوط
الخزانة العامة بالرباط ط ج 76)
2) ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتابع وما لهما من
الاتباع (المطبعة العجربة بفاس 1313هـ)
- القاضي أبو العباس أحمد ابن
1) جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس (المطبعة
الحجرية بفاس بدون تاريخ)
2) درة الحجال في غرة أسماء الرجال . جزآن نشره يس
علوش (الرباط سنة 1934) .
- سودة عبد السلام المري ابن
دليل مؤرخ المغرب الاقصى (تطوان 1950)
- السوسي محمد المختار
المعسول 20 جزءا (الدار البيضاء 1960)
- الشقوري أبو عبد الله محمد
مقاله في الطب (مخطوط الخزانة العامة بالرباط د 1035) .
- وافي علي عبد الواحد
ابن خلدون (مصر بدون تاريخ)
- اليفريني محمد الصغير المراكشي
نزهة الهادي بأخبار القرن الحادي (طبعة فاس بدون
تاريخ)

المجلات

- (1) دعوة الحق :
مجلة شهرية تصدرها وزارة عموم الاوقاف الرباط .
- (2) البحث العلمى
مجلة يصدرها المركز الجامعى للبحث العلمى الرباط .
- (3) اللسان العربى :
مجلة دورية للابحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب فى العالم العربى يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية الرباط .
- (4) تطوان :
مجلة للابحاث المغربية الاندلسية يصدرها معهد مولاي الحسن تحت اشراف وزارة التربية الوطنية الرباط .
- (5) رسالة المغرب :
مجلة شهرية فى العلم والادب والاجتماع كانت تصدر قبل أوائل استقلال المغرب . وهى محفوظة الآن بالخزانة العامة بالرباط .
- (6) آفاق :
مجلة يصدرها اتحاد كتاب المغرب العربى بالرباط .
- (7) الايمان :
مجلة شهرية تصدرها جمعية شباب النهضة الاسلامية (الرباط)
- (8) البنية :
مجلة كانت تصدرها وزارة الشؤون الاسلامية بالرباط .
- (9) جامعة القرويين :
كتاب يتضمن أهم الابحاث والمقالات التى كتبت عن جامعة القرويين بمناسبة ذكرها المائة بعد الالف (سنة 1960)
لقد رجعنا فى بحثنا الى أهم المقالات والابحاث التى رأيناها تتصل بموضوعنا ولقد رأينا أن نخص منها بالذكر ما يلى :
ابن تاويت ، محمد :
I «من زوايا التاريخ المغربى» مجلة تطوان . العدد التاسع سنة 1964 (ص 31) .
2 «بلغة الامنية ومقصد اللبيب» م.ن صفحة 173 .

الفاسي محمد :

- 1) الرحالة المغاربة وآثارهم
مجلة دعوة الحق (العدد الثالث الرباط 1958) ص 19 .
- 2) «الرحالة المغاربة» م.ن (العدد الثاني الرباط 1958) ص 8 .
- 3) ابن رشيد الفهري ورحلته الى المشرق ، م.ن (عدد 2
الرباط 1959) ص 33 .

المنوني محمد :

- «نظم الدولة المرينية» مجلة البحث العلمي العدد 2 و 3 و 4
سنة 1964 و 1965 .

السوسي محمد المختار :

- «تأثير العربية في اللهجة الشلحية» مجلة اللسان العربي .
العدد الثاني سنة 1965 .

Documents en langue étrangère

Africain, Jean-Leon :

Description de l'Afrique.

edition traduite de l'Italien par A. Epauler, 2 volumes (Paris 1956)

Ayache, Albert :

Le Maroc (Paris 1956)

Alain, E. et Deverdun Gaston :

Les portes anciennes de Marrakech (Hesperis TxLLIV 1957).

Brokelman, Carl :

Geschichte der Arabischen :

Litteraturé 2 vol . (Berlin 1898-1902)

Brunschvig, Robert :

La Berberie Orientale sous les Hafsides : des origines à la fin du xv siècle, 2 tomes (Paris 1940-1947)

Bargès, L'Abbé I.J.L. :

Histoire des Beni Zeiyan, Rois de Tlemcen (Paris 1852)

Bellaire, Michaux

Essai sur l'histoire des confréries marocaines (Hesperie T. 1. année 1921)

Bremond, Edouar (CR)

Berbères et Arabes (Paris 1950)

Bousquet, G - H. :

Les Berbères - Collection que sais-je n. 718 (Paris 1961)

Berque (Jacques) :

L'univers politique des arabes (Paris 1957).

Bousquet, C-H. :

L'Islam maghrébin (4^e édition Alger 1955)

Benech, J. :

Essai d'exploitation d'un Mellah (sans lieu ni date)

Basset, Henri et Levi-Provencal :

Chella, une nécropole mérinide (Hesperie tome II 1922)

Benabdellah, Abdelaziz. :

L'art Maghrébin Notes et documents.

(sans Indication de lieu, an. 19 ?)

Bel, Alfred :

Inscriptions arabes de Fès, journal asiatique 1917. 198 T.X.

Chouraqui, André :

L'Etat d'Israel (Paris 1955 coll. «que sais-je» No 673)

De Castries, Henry :

Les sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845
(Paris 1905 et suite)

Demombynes, Gaudefroy, éditeur.

Ibn Fadl Allal al Umari : Masalik al absar fi Mamalik al Amsar
(Paris 1927)

les émirs des Hintata Ro:s de Marrakech (Hesperis 1937 TX

Deverdun, Gaston :

Marrakech (Rabat 1959)

Dozy, R. :

1) Supplement aux dictionnaires arabes (Lev de 1881)

2) Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (Paris 1881)

Gautier, E.F. :

Le passé de l'Afrique du Nord. (Edition Payot Paris sans date)

Goulven, J. :

Les Mellah de Rabat et de Salé (Paris 1927)

Gauthier, Leon :

Ibn Thofail, sa vie et ses œuvres (Paris 1909)

Julien, Charles-André :

Histoire de l'Afrique du Nord (Paris 1952)

Lévi-Provençal, L. :

1) Conférences sur l'Espagne Musulmane traduite en arabe par M.A. Cheira (Le caire 1951)

2) La Peninsule Iberique du Moyen âge d'après de ki tab ar-Rawd al Mi, tar (Leiden 1938)

Une description de Ceuta Musulmane au XVe Siècle (Hesperis 1931 tome XII)

4) Un nouveau texte d'Histoire merinide le Musnad d'Ibn Mar-zûk (Hesperis T.5 1925)

5) L'Espagne Musulmane (Paris 1932)

Leclerc, Lucien :

Histoire de la Medecine arabe. 2 tomes (Paris 1876)

Le Tourneau, R. :

Fès avant le protectorat (Casablanca 1949)

Montel, Vincent :

Les arabes. Collection «que saije-je» (Paris 1959)

Malka, Elie. :

1) Essai sur la condition juridique de la femme juive au Maroc (Paris 1952)

2) Essai de Folklore des Mellahs (Rabat 1954)

Massignon, Louis :

Le Maroc dans les premières années du XVI siècles (Alger 1906)

Marçais, G. :

Manuel d'art musulman 2 tomes (Paris 1926)

Reinaud, H.P.J. :

1) Notes critiques d'histoire chez les Musulmans II Ibn al Banna de Marrakech (Hesperis tome XXV an. 1938)

2) Un medecin du royaume de grenade : Nahmad as Saquri (Hesperis tome XXVII 1946)

Un chirurgien musulman du royaume de grenade Mohamed as safra (Hesperis T.XXI 1935)

4) L'enseignement des sciences exactes au Maroc Hesperis T XIV 1932)

5) Trois études de la médecine arabe en occident (Hesperis TX II Fas 2 année 1931)

Sourdél, A. :

L'Islam-collection que «sais-je» (Paris 1949)

Terrasse, Henri :

1) Histoire du Maroc 2 tomes (casablanca 1950)

2) L'art hispano-mauresque des origines au XIII siècle (Paris 1932)

Thomas Bertran :

Les arabes (Paris 1946).

فهرس الاعلام

لم نثبت في هذا الفهرس الا الاسماء التي لها أهمية في الصفحات المذكورة أما الاعلام التي تكرر ذكرها فقد عمدنا اغفالها تاركين للقارئ مجال البحث عنها .

افريقش : 18

الاندلسيون : 32 ، 37 ، 33 ، 49 ، 78

اجروم (ابن) : 194

البرجى ، أبو القاسم : 37

بنو مريـن : فى معظم الصفحات

البرانس : 18

البتـر : 18

البخارى : 196

بنو عبد المومن : 25 ، 34 ، 97 ، 196

بنو عبد الواد : 46

بنو ادريس : 34

بنو العلا : 34

ابن البيطار : 223

ابن نيمة : 196

جزى (ـ ابن ـ) : 37 ، 75 ، 174

جروم (ـ ابن ـ) : 134

الجزنائى ، أبو العباس احمد بن شعيب : 213 ، 227

ابن الحاجب : 183

الحسن أبو - الميرني : 40 ، 50 ، 119 ، 124 ، 128 ، 137 ، 140 ، 195 ،
196 ، 199 ، 208 ، 209 ، 223 .

حزم (ابن - الاندلسي) : 160

الحفصيون : 48

الحسن (أبو -) : 209

خاتمة ، ابن - : 205

الخوارزمي ، أبوبكر : 160

الربيع (أبو -) : 49 ، 92

الربيع (ابن أبي) : 210

رشيق (ابن) : 198

رينو : 217 ، 223

روسو : 173

رشد (ابن) : 212

زفانة : 18 ، 22

زورق أبو العباس احمد - : 146

زيد (ابن أبي ..) : 196

لوكلير (دكتور) : 222

مالك : ابن - (النحوي) : 201 ، 207 ، 209

مالك (ابن انس) : 194 ، 213

مالك (أبو مالك الميرني) : 137 ، 138 ، 163

مسلم : 196

المكودي : 209

المورسكيون : 38

مصمودة : 19

المرايطون : 193

- التسائي : 196
صنهاجة : 18
عبد العزيز الورياغلي : 199
عنان (أبو) : 25 ، 128 ، 137 ، 225
العباس أبو - احمد : 137
العزفيون : 78 ، 79
عمر بن عبد الله الوزير : 120
عمر أبو - تاشفين : 120
عباس (أبو العباس احمد المريني) : 161
القينيقيون : 22
سعيد (أبو عثمان) : 80 ، 109 ، 216 ، 226
سالم (أبو - المريني) : 72 ، 119 ، 122 ، 125
سينا (ابن) : 223
السلحة : 212
وليم لنكو : 152
وقاصة : 41
يعقوب أبو : يوسف : 40 ، 45 ، 47 ، 64
يوسف (أبو يعقوب) : 40 ، 68 ، 80 ، 85 ، 128 ، 187
يوسف أبو يعقوب المنصور : 213
يوسف ابن الاحمر : 112
يوسف ابن تاشفين : 26
يحيى (أبو - المريني) : 128
يونس (ابن) : 196
اليهود : 38 ، 39 ، 41 ، 43

فهرس الموضوعات

المقدمة : 9

الباب الاول

البيئة المغربية فى عصر بنى موين

- I بنو موين 16
- 2 الاطار الاجتماعى 28
- 3 العنصر العربى 29
- 4 عنصر الاندلسيين 32
- 5 عنصر اليهود 38
- 6 الحياة السياسية العامة 44
- 7 الحياة الدينية 50

الباب الثانى

مشاهير الادباء المقاربة

- I مالك ابن المرحل 60
- 2 عبد العزيز الملووزى 66
- 3 أبو العباس القباب 69
- 4 ابن بطوطة 72
- 5 أبو العباس احمد زروق 75
- 6 ابن رشيق 78
- 7 أبو عبد الله محمد العبدري 82
- 8 ابن رشيد 89
- 9 ابن داود السلوى 92
- IO ابن عبد الملك المراكشى 96
- II ابن البناء المراكشى 100

شخصيات مشتركة

112 ابن الخطيب	1
117 ابن خلدون	2
123 ابن مـرزوق	3

الباب الثالث

131 النهضة الادبية الفنية	1
145 مكانة الشعر بالنسبة للنثر	2
150 النزعة الروحية فى الشعر المغربى	3
165 نتائج هذا الاتجاه بالنسبة لاغراض الشعر	4
170 أدب الرحىلات	5
176 النزعة الدينية	6
180 عنصر الوصف	7
183 النزعة التعليمية	8

الباب الرابع

191 العلوم الدينية	1
203 العلوم العربية	2
211 العلوم البحتة	3
212 الفلسفة	4
216 الرياضيات	5
221 العلوم الطبية	6
229 الخاتمة	
232 فهرس المراجع	
246 الاعلام	



صدر للمؤلف

- مظاهر الثقافة المغربية دراسة أدبية باللغة العربية نالت جائزة المغرب سنة 1970 (في العصر المريني).
- البيئة المغربية ومظاهرها الثقافية ، دراسة حضارية باللغة الفرنسية صدرت سنة 1970 (في العصر المريني).
- الحياة الفكرية المغربية في عهد الدولة المرينية والوطاسية دكتوراه الدولة صدرت باللغة الفرنسية — 1974 .
- معجم التربية والتعليم باللغة الفرنسية والعربية — 1981 .
- التربية والتعليم في المغرب ، دراسة وتعريب — 1982 .
- الثقافة الشعبية المغربية ، باللغة الفرنسية — 1980 (انطلاقا من العصر المريني).
- كتاب الامتاع والانتفاع في مسألة سماع السماع لابن الدراج السبتي دراسة وتحقيق — 1982 (العصر المريني).
- كتاب فضالة الخوان في طبقات الطعام والألوان لابن رزين التجيبي دراسة وتحقيق — 1982 (انطلاقا من العصر المريني).
- فيض العباب وافاضة قدام الآداب أو رحلة أبي عنان المريني لابن الحاج النيري دراسة وتحقيق — 1984 (العصر المريني).
- التعليم والتربية في القرآن الكريم بالعربية والفرنسية (نحت الطبع).

مطبعة النجاشي الجديدة
الطبعة الثانية

نقلا عن مطبعة الرسالة الرباط

الايداع القانوني رقم 1985/766

Mohamed B.A. Benchakroun

Aspects de la Culture Marocaine

Diffusion



Acharika Al Jadida

DAR ATTAKAFA
CASABLANCA